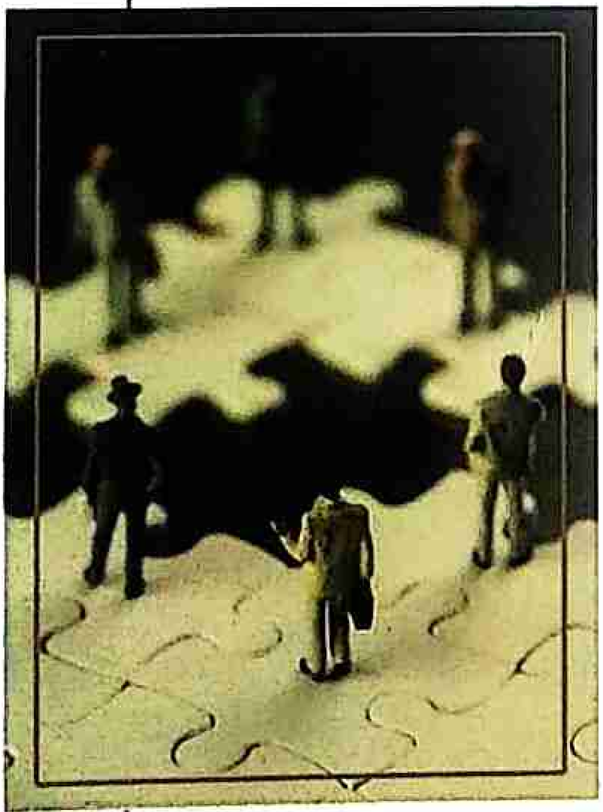
آفاق المعرفة
AFAQ ALMAAREFA

هندسة الصراع

النّشأةُ والدّوافِعُ



أحمد فهمي

هندسة الصراع

النشأة والدوافع

يسعى هذا الكتاب إلى تقديم عرض مبسط للمثقف غير المتخصص حول مداخل تفسير الصراعات، وكيف تنشأ وتتطور، وكيف يُتخذ قرار السلوك الصراعي من خلال صنع السياسات الخارجية للدول، مع التركيز على تحليل أثر الدين في نشأة الصراعات وتطورها.

ويتضمن في ثنايا معالجاته تطبيقات عملية متعددة لما يتضمنه من نظريات ومفاهيم، مع التوسع قدر ما تسمح به المساحة في سرد الأمثلة والشواهد.

وهذا الإصدار يمثل الجزء الأول من الكتاب، وهو متعلقٌ بـ (النشأة والدوافع)، حيث يتضمن الكلام عن نشأة الصراع، من خلال مداخل التفسير وصنع السياسات الخارجية.

وأما الجزء الثاني فسيتضمن -إن شاء الله- مراحل تطور الصراع، ونماذج تفكيك وتحليل الصراعات، والنظريات المستخدمة في إدارتها، وتكتيكات المناورة والفوز والتحكم فيها.

٩

آفاق المعرفة
AFAQ ALMAAREFA

المملكة العربية السعودية - الرياض - الرمز البريدي: ١٢٢٧٤
سجل تجاري: ١٠١٠٢٥٨٨٣٨ هاتف: ٩٦٦١١٢٢٥٥٤٧٣+ فاكس: ٩٦٦١١٢٢٥٠١٦٧+
www.afaqpub.com info@afaqpub.com

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٣-٣٠٣٣-١

هندسة الصراع

النَّشأةُ والدَّوافِعُ

هندسة الصراع

النشأة والدوافع

أحمد فهمي

ح شركة آفاق المعرفة للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
فهمي، أحمد سعد
هندسة الصراع./ أحمد سعد فهمي - الرياض، ١٤٤١هـ.
٣٠٥ ص؛ ١٧× ٢٤ سم
ردمك: ١-٣٣-٣٠٣-٠٣-٦٠٣-٩٧٨
١- الصراع الدولي
أ. العنوان
ديوي ١, ٣٢٧ ١٤٤١/٤٥٩٠

رقم الإيداع: ١٤٤١/٤٥٩٠
ردمك: ١-٣٣-٣٠٣-٠٣-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٤١هـ - ٢٠٢٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

العنوان	الصفحة
المقدمة	١١
تمهيد	٢١
الفصل الأول: أيها الشعوب.. الموت راحة لكم	٢٧
١- تفسير الصراع بسبب النزعة الطبيعية لدىٰ الإنسان إلىٰ العدوان	٢٩
٢- نظرية الإخفاق أو الإحباط	٣٤
٣- نظرية الشخصية القومية	٣٧
٤- نظريات تتعلق بأثر الاتجاهات والمعتقدات القومية في تفجير الصراعات	٤٠
الفصل الثاني: أيها الأبيض.. استعد حملك الثقيل	٤٥
تعريف الأيديولوجيا	٤٧
تقسيم الأيديولوجيا من حيث تأثيرها	٤٨
العوامل المحددة لتأثير الأيديولوجيا علىٰ الصراعات	٤٩
نهاية التاريخ- الأيديولوجيا.. حقيقة أم خيال؟	٥٠
الأيديولوجيا الإمبريالية وامتلاك العالم	٥٤
الفصل الثالث: «لدينا سمكات أكبر لنقليها».. المصلحة والقوة	٦١
الاستعمار نموذجًا	٦٤
وسائل السيطرة الاستعمارية	٦٥

تضارب المصالح القومية	٦٦
النموذج الفيتنامي	٧١
أدوات القوة	٧٣
ما الذي يصنع القوة القومية للدولة؟	٧٤
أساليب استخدام القوة القومية للدولة	٧٦
المصلحة القومية عابرة للأنظمة والحكام والزمن	٧٨
هل الأصل في العلاقات الدولية.. الصراع أم التعاون؟	٨٢
مستويات الدول من حيث طلب الحماية الخارجية	٨٤
القيم، الثقة، الأخلاق VS المصلحة القومية	٩٥
الفصل الرابع: سباق التسلح	١٠١
ما هي احتمالات نشوب حرب عالمية ثالثة؟	١٠٣
كيف يؤدي سباق التسلح إلىٰ صراع بين الدول؟	١٠٧
نظرية «رايت ميلز».. المجمع الصناعي العسكري	١١٠
الفصل الخامس: تطبيقات عملية: صراع واحد وأسباب متعددة «لماذا قامت أمريكا بغزو العراق؟»	١١٣
١- المصالح العامة أو إستراتيجية الأمن القومي الأمريكي	١١٦
٢- مصالح القوىٰ الاقتصادية	١١٨
٣- المصالح الخاصة للشخصيات الفاعلة في الإدارة الأمريكية	١٢٤
كيف يؤثر تعدد العوامل والأسباب علىٰ إدارة الصراع؟	١٢٧
الفصل السادس: «قال لنا المسيح أن نحمل سيفًا».. الدين والصراعات	١٣٥
تطور تأثير الدين في السياسة عبر القرون	١٣٧

مقارنة في التأثر بالدين بين «جورج بوش» و«باراك أوباما»	١٣٩
من أبرز الأحداث التي عززت من تأثير الدين في السياسة	١٤١
عوامل تقلص من تأثير الدين في مجال العلاقات الدولية	١٤٣
الدين في السياسة الخارجية للدول الغربية	١٤٧
المعايير المحددة لتأثير الدين في السياسة الخارجية للدول الغربية	١٤٨
صدام حضارات أم صدام أديان؟	١٥٦
تطبيقات علىٰ تأثير الدين في العلاقات والصراعات الدولية	١٦٣
الفصل السابع: السياسة الخارجية ودورها في بدء الصراعات	١٩٥
أولًا: السمات العامة للسياسة الخارجية	١٩٧
ثانيًا: أدوار الدولة في السياسة الخارجية	٢٠٥
ثالثًا: المتغيرات المؤثرة في صنع السياسة الخارجية	٢١٧
(١) المتغيرات الموضوعية	٢١٨
(٢) المتغيرات النفسية	٢٢٣
(٣) المتغيرات الوسيطة	٢٢٦
المقدرات القومية	٢٢٦
الخلاصة	٢٣٣
الفصل الثامن: تطبيقات عملية على السياسة الخارجية المنشئة للصراع: (١) نموذج الاحتلال السوفيتي لأفغانستان	٢٣٧
الفصل التاسع: تطبيقات عملية على السياسة الخارجية المنشئة للصراع: (٢) السياسة الخارجية لإيران تجاه دول الخليج -البحرين نموذجًا	٢٤٥
أهم المتغيرات الموضوعية المؤثر في صناعة السياسة الخارجية الإيرانية تجاه البحرين	٢٤٩

تأثير المتغيرات النفسية	٢٥٠
نموذج الشخصية المنغلقة -الدوجماتي	٢٥١
تاريخ المطالبات الإيرانية بالبحرين	٢٥٢
الفصل العاشر: الخطوط الحمراء	٢٧١
تعريفات	٢٧٣
المحور الأول: الخطوط الحمراء.. فترة الصلاحية	٢٧٨
المحور الثاني: اختبار الخط الأحمر	٢٨٠
المحور الثالث: الخطوط الحمراء بين العلانية والخفاء	٢٩٢
المحور الرابع: الخطوط الحمراء ونقاط الضعف	٢٩٨
المراجع	٢٩٩

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام علىٰ رسول الله ..

فلنتخيل معًا هذا المعدل من القتل اللا إنساني:

- كل دقيقة يقتل إنسان.

- في الساعة (٦٠) قتيلًا.

- في اليوم (١٥٠٠) قتيل.

- في العام (٥٦٠) ألف قتيل.

من يستطيع أن يفعل ذلك؟

بل من يمكنه أن يمارس هذا الفعل لمدة مائة عام متواصلة بحيث يصل مجموع القتلىٰ إلىٰ (٥٦) مليون إنسان.

ذلك ببساطة أحد إفرازات الحضارة الأوروبية العريقة، أو حضارة القارة العجوز كما تسمىٰ.

الأرقام ليست جزافية، فهي حصيلة دراسة أجراها فريق علمي في كلية لندن -بريطانيا- ونشرت نتائجها شبكة سي إن إن الأمريكية[1].

يقول الباحثون إنَّ المستوطنين الأوروبيين قتلوا نحو (٥٦) مليون شخصٍ من السكان الأصليين علىٰ مدار (١٠٠) عامٍ في جنوب أمريكا ووسطها وشمالها، عن طريق القتل المباشر أو نشر المرض.

(1) http://edition.cnn.com/2019/02/01/world/european-colonization-climate-change-trnd/index.html

أحد المشرفين على الدراسة، «مارك ماسلين»، أستاذ الجغرافيا في كلية لندن، يقول: «إن مقتل السكان الأصليين أسهم مباشرةً في نجاح الاقتصاد الأوروبي، فالموارد الطبيعية والطعام التي حصلت عليها أوروبا من «العالم الجديد» سمحا لسكانها بالتوسُّع، وتقليص الزراعة من أجل الحصول على الطعام، والتحول للعمل في صناعاتٍ أخرىٰ لجمع مالٍ إضافي». يضيف «ماسلين»: «الشيء شديد الغرابة هو أنَّ القضاء علىٰ سكان قارتي أمريكا الجنوبية والشمالية ربما يكون قد سمح للأوروبيين دون قصدٍ بالهيمنة علىٰ العالم، وساعد أيضًا في قيام الثورة الصناعية واستمرار هيمنة الأوروبيين».

أحد المداخل المهمة المستخدمة في تفسير الصراعات والحروب، هو المدخل الجيوبوليتيكي -الجغرافي السياسي-، ومن أبرز معطياته نظرية تسمىٰ «المجال الحيوي»(١)، أول من نشر هذه النظرية هو «فريدريش راتزل» -الملقب بأبو الجيوسياسية الألمانية-.

تفترض نظرية «المجال الحيوي» أن الدولة كائن حي، عبارة عن وحدة عضوية من السكان والأرض، وأنها تنمو مثل الكائنات الحية، ونموها مرتهن بمقدار الحيز المكاني الذي تتحرك وتتفاعل فيه، وأن الدولة تبدأ في الانحلال والتدهور عندما تهمل التفكير مساحيًا.

هكذا هاجرت موجات بشرية متلاحقة من أوروبا في اتجاه «العالم الجديد» -الذي لم يكن جديدًا لسكانه الأصليين- لأسباب مختلفة، لكنها مستوعبة في إطار نظرية «المجال الحيوي».

---

(١) د. إسماعيل صبري مقلد، العلاقات السياسية الدولية، دراسة في الأصول والنظريات، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ١٩٩١م ص ٢٣٤

هكذا تقدمت أوروبا وتطورت، علىٰ أشلاء (٥٥) مليون إنسان، قال لهم الأوروبيون: معذرة، إما نحن وإما أنتم.

ومرة أخرىٰ، هذا ما يقوله الأوروبيون أنفسهم.

ما سبق مجرد جزء من الإجابة عن **السؤال الأهم**: لماذا تثور الصراعات وتتفجر الحروب هنا وهناك، تاركة وراءها ملايين من الضحايا والمعذبين؟

هذا السؤال ربما تبدو إجابته سهلة للكثيرين، لكنها في واقع الأمر بالغة التعقيد.

فالأسباب والدوافع التي تفرز صراعات وأزمات وحروبًا، كثيرة ومتنوعة للدرجة التي يصعب حصرها، حتىٰ علىٰ مستوىٰ صراع واحد في كثير من الأحيان.

في إحدىٰ الدورات التي شاركت في إلقائها، طرحت سؤالًا -في صيغة تحدٍّ- للمتدربين: اذكر صراعًا بين دولتين أو أكثر نشب لسبب واحد فقط، في العقود الثلاثة الماضية؟

لم تأتِ إجابة، فزدت العدد حتىٰ ثلاثة أسباب، هنا بدأت الإجابات تتوالىٰ.

في كتابه القيم عن السياسة الخارجية، حاول أستاذ العلوم السياسية الأمريكي «لويد جنسن»، أن يحدد الأسباب الحقيقية وراء اتخاذ الاتحاد السوفيتي قرارًا بغزو أفغانستان عام ١٩٧٩م، والتورط في صراع دام لمدة عشر سنوات تقريبًا.

لكنه بعد أن سرد عددًا كبيرًا من الأسباب المحتملة، ترك الباب مفتوحًا للمزيد، ولم يستطِع الحسم.

ليس من السهل إذًا أن نجيب عن سؤال: لماذا يندلع الصراع؟

وإن كانت الإجابة عليه تحقق قفزة حقيقية للأمام علىٰ صعيد فهم ما يحدث، ومحاولة التعامل معه أو التحكم به.

ربما يساعدنا في الوصول للإجابة الصحيحة، أن نطرح بعض الأسئلة الفرعية، مثل:

- هل تحدث الصراعات لأسباب تلقائية معلنة مباشرة، أم لأسباب خفية غامضة؟

- هل تتفجر الصراعات لأسباب تتعلق بأطرافها المباشرين؟ أم أنه توجد أطراف أخرىٰ خارج دائرة الصراع، تبذل جهدًا لإثارته والتحكم به؟

بعد انهيار الاتحاد السوفيتي نهاية ثمانينيات القرن الماضي، أطلق «ألكسندر أرباتوف» المستشار الدبلوماسي لـ«ميخائيل جورباتشوف» -آخر رئيس سوفيتي- جملته الشهيرة، مخاطبًا بها الأمريكيين: «سنقدم لكم أسوأ خدمة، سنحرمكم من العدو».

هذا التصريح الخطير يدفعنا للتفكير حول عدد الصراعات والحروب التي تندلع لمجرد أن الغرب يحتاج إلىٰ «عدو» لكي يدير ماكينته الحضارية العملاقة.

الحقيقة أن الغرب اعتاد الوفرة في كل شيء، وعلىٰ نمط الاستهلاك المبالغ فيه.

في سياق تعليقه علىٰ رفض التوقيع علىٰ اتفاقية «كيوتو» بخصوص تغير المناخ، أعلن الناطق باسم «جورج بوش الابن»: «يشكل الاستهلاك الكبير للطاقة جزءًا من نمط حياتنا، ونمط حياة الأمريكيين مقدس».

إذًا المحافظة علىٰ «النمط المقدس» تتطلب اقتصادًا منتعشًا علىٰ الدوام، أو بمعنىٰ آخر، تتطلب عدوًا وصراعات وحروبًا عند الآخرين.

من النكت الساخرة التي كان يتبادلها الدبلوماسيون الأمريكيون في الثمانينيات: «الشيء الوحيد السيئ في الحرب الإيرانية العراقية أنها سوف تنتهي في يوم من الأيام»[1]، مع ذلك فلا بأس في إطلاق التصريحات كل مدَّة بضرورة أن تتوقف الحرب، وأن يعم السلام المنطقة، إلخ، فهذه من قواعد «المهنة» ولزوم «حَبْك الصنعة».

تحولت الصراعات إذًا إلىٰ «صنعة»، تتعلق بكلِّ مراحلها، بدءًا من اندلاع الصراع، مرورًا بمستوىٰ حدته وحجمه وخسائره، وانتهاء بتحديد العمر الزمني للصراع.

إن ما يحدث يستحق أن يطلق عليه «هندسة الصراع» التي تشمل كلَّ مراحله وتطوراته، وصولًا إلىٰ التحكم في تفاصيله وتأثيراته ونتائجه والأطراف المشاركة فيه.

إن فهم الآلية التي تتم بها «هندسة الصراع» تتطلب تحليلًا عميقًا لأسبابه والمتغيرات التي تؤثر في نشأته وتطوره، كما تتطلب القدرة علىٰ قياس تطور الصراعات، ومعرفة اتجاهاتها المستقبلية، مع الإلمام بنظريات وآليات التكتيك والمناورة وإدارة الصراعات لتحقيق الفوز.

هذا هو موضوع الكتاب: تحليل وتفكيك أساليب «هندسة الصراعات» الدولية.

إن «هندسة الصراع» ليست عملًا لا أخلاقيًّا بإطلاق، بل هي مجرد آليات ونظريات وتكتيكات يرتبط الحكم عليها بمعرفة خلفياتها وأهدافها الحقيقية، فلا توجد دولة تخوض صراعًا لكي تُهزم، أو تخسر، فالأصل أن الدول تسعىٰ لـ«الفوز بالصراع»، أيًّا كانت الوسائل التي تسلكها في سبيل ذلك.

---

(1) توماس زايفيرت، كلاوس فيرنر، السجل الأسود للنفط، المكتبة الشرقية، بيروت، ص ٩٥.

الصورة الإيجابية لـ«هندسة الصراع» من أجل الفوز، بما يتوافق مع المنظور القيمي الأخلاقي، تبرز في حالتين:

الأولىٰ: أن يكون موضوع الصراع حقًّا مسلوبًا مغتصبًا.

في هذه الحالة لا مناص عن طلب الفوز والتضحية في سبيل ذلك بما يناسب الحق الضائع، وليس بما يتجاوزه.

الثانية: أن يكون موضوع الصراع خلافيًّا، يتعلق بوجهات نظر متفاوتة، وحقوق مبهمة.

هنا تكون تسوية الصراع بمنزلة فوز لجميع الأطراف، وفق إستراتيجية «الكل يربح»، ويكون الفوز بمعنىٰ: إدارة عملية التسوية بما يحقق أفضل نتيجة ممكنة، بأقل خسارة ممكنة، درءًا للمفاسد وتجنُّبًا للضرر، دون إهدار لحقوق الآخرين.

الصورة السلبية لـ«هندسة الصراع» -وهي الغالبة للأسف في الصراعات الدولية- تتضمن:

- أن تسعىٰ دولة ما إلىٰ تفجير صراعات بين دول أخرىٰ.

- أو التحكم في صراعات محددة وفق آلية معينة.

- أو أن تخوض صراعات محسوبة مع عدو تتولىٰ هي نفسها صناعته -أحيانًا- بغرض تحقيق مكاسب سياسية أو اقتصادية أو عسكرية.

يسعىٰ هذا الكتاب إلىٰ تقديم عرض مبسط للمثقف غير المتخصص، حول مداخل تفسير الصراعات، وكيف تنشأ وتتطور، وكيف يُتخذ قرار السلوك الصراعي

من خلال صنع السياسات الخارجية للدول، مع التركيز علىٰ تحليل أثر الدين في نشأة الصراعات وتطورها.

يتضمن الكتاب تطبيقات عملية متعددة لما يتضمنه من نظريات ومفاهيم، مع التوسع قدر ما تسمح به المساحة في سرد الأمثلة والشواهد.

هذا الكتاب -هندسة الصراع- يتكون من جزأين:

الأول: يتضمن الكلام عن نشأة الصراع، من خلال مداخل التفسير وصنع السياسات الخارجية.

الجزء الثاني: سيتضمن -إن شاء الله- مراحل تطور الصراع، ونماذج تفكيك وتحليل الصراعات، والنظريات المستخدمة في إدارة الصراع، وتكتيكات المناورة والفوز والتحكم في الصراعات.

وأسأل الله تعالىٰ التوفيق والسداد في القول والعمل.

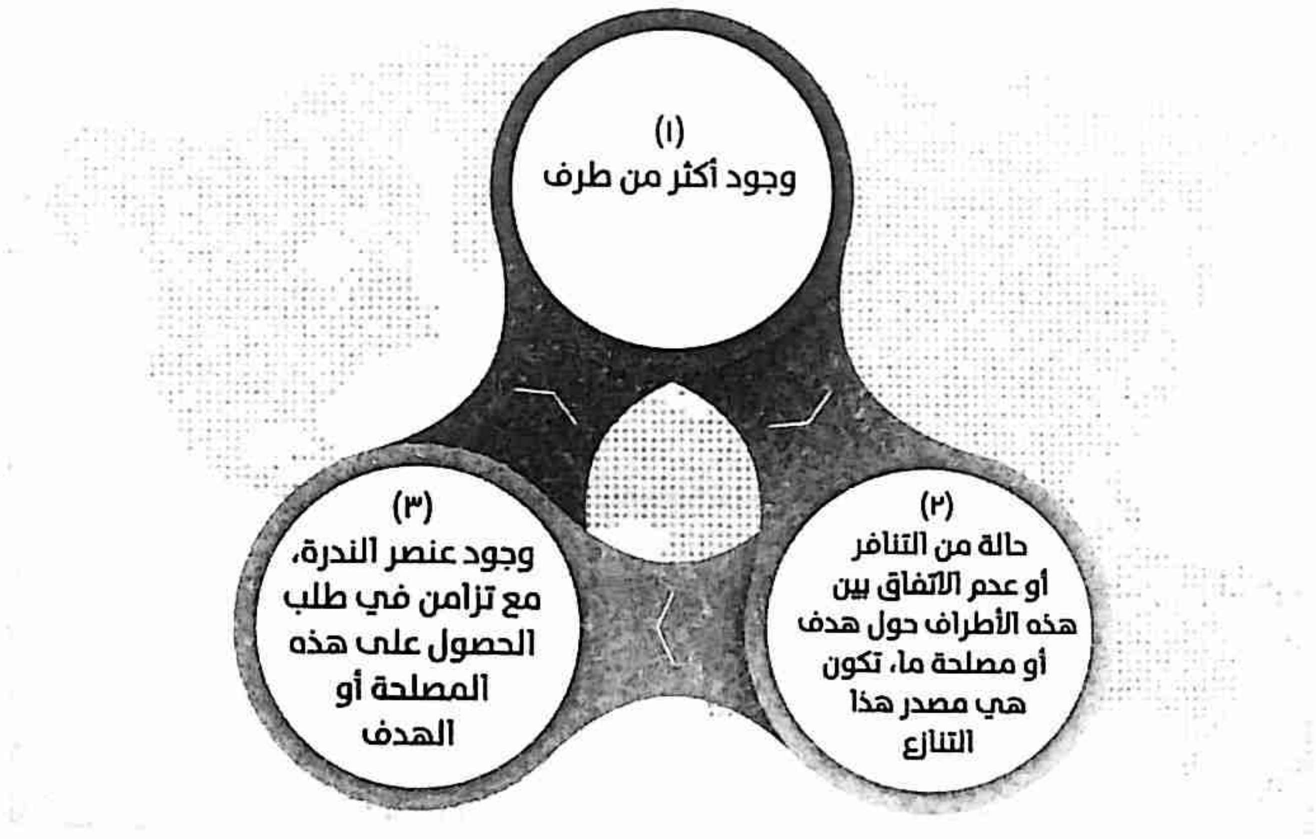
وصلِّ اللهُمَّ علىٰ محمد وآله وصحبه وسلم

تمهيد

الصراع بصفة عامة هو: وضع بين طرفين أو أكثر، يوجد بينهما تناقض في المصالح، ويتم التعبير عن هذا التناقض من خلال اتجاهات عدائية، ومحاولة الحصول علىٰ -أو تحقيق- هذه المصالح من خلال تصرفات أو إجراءات تؤدي إلىٰ الإضرار بالأطراف الأخرىٰ، سواء كانت بين أفراد أو جماعات أو دول، وتتفرع هذه المصالح إما حول الموارد المادية، أو السلطة والنفوذ، أو الهوية، أو المكانة والكرامة، أو حول القيم، بما ترتبط به من ثقافات وأديان.

يعرفه بعض العلماء المتخصصين في هذا المجال من الدراسات بأنه: «حالة تناقض بين أهداف Goals الدول أو بين قيم Values الفاعلين Actors في النظام الاجتماعي Social System، ويتم ذلك ضمن إطار مفاهيم ومعتقدات كل طرف».

مفهوم الصراع: تعريفات مختلفة حول عناصر ثلاثة



أما الصراع بين الدول، فهو هو أحد مجالات أو مستويات الصراع، ولكن أطرافه دولية، عبارة عن حكومات أو قوىٰ أخرىٰ[1].

ينشأ الصراع الدولي نتيجة إدراك متبادل متناقض بين دولتين أو أكثر حول المصالح المادية أو القيم الإنسانية، وهو يمس بوجه خاص قضايا مثل السيادة الوطنية، والأمن، والهوية، وغير ذلك.

وهذا النوع من الصراعات يتسم بتعدد أطرافه المتنازعة، وتناقض مصالحها، وأهدافها ودوافعها.

بعض الدراسات المتخصصة تقسم الصراعات الدولية إلىٰ خمس فئات، هي[2]:

١. الصراعات حول الأرض.

٢. الصراعات حول الاقتصاد.

٣. صراعات تشكيل الدولة.

٤. صراعات أيديولوجية.

٥. صراعات التعاطف أو الارتباط الإنساني: (الدين، والعرق، والطائفة، إلخ).

الصراعات بين الدول قد تكون إقليمية، بين دول متجاورة، أو بين قوىٰ كبرىٰ أو خارجية في إقليم ما، أو قد تكون بين دول جديدة تشكلت بعد انهيار أو تفكك

---

(١) د. سامي إبراهيم الخزندار، إدارة الصراعات وفض المنازعات، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ٢٠١٤م، ص٦٠، ٦١، ٦٣، ٦٤، ٦٩.

(٢) المرجع السابق، ص١٧٣.

دولة أكبر في إقليم معين، كما حدث بعد تفكك دولة «يوغوسلافيا»، عندما اندلعت حروب تطهير عرقي قام بها الصرب ضد البوسنيين والكروات عام ١٩٩٢م.

أغلب الباحثين يعدُّون مفهوم الصراع أوسع من مفهوم النزاع -أو الخلاف-، فالنزاع هو أدنىٰ مرتبة أو مستوىٰ من مستويات الصراع، وأقلها حدة أو أبسطها، قد يتطور أو يظل في حدوده الدنيا.

ظاهرة الصراع الدولي تتميز بأنها ظاهرة متناهية التعقيد، بسبب تعدد أبعادها، وتداخل مسبباتها ومصادرها، وتشابك علاقاتها وتأثيراتها المباشرة وغير المباشرة، وتفاوت المستويات التي تحدث عندها، من حيث المدىٰ أو الكثافة أو الحدة أو العنف.

ليس بالضرورة أن يتطور كل صراع إلىٰ حرب، فقد يظل في حدوده الدنيا، وقد يتطور بشكل حاد دون استخدام العنف، وقد يتفاقم ليصبح حربًا عسكرية.

قد يتنوع الصراع ليتخذ مظاهر وأشكالًا متعددة، فقد يكون اقتصاديًّا أو سياسيًّا أو ثقافيًّا أو دعائيًّا أو دينيًّا أو حضاريًّا، إلخ[1].

المداخل التي تستخدم في تفسير ظاهرة الصراع في العلاقات الدولية، كثيرة ومتنوعة، منها: المدخل السيكولوجي-النفسي، والأيديولوجي، والمصالح القومية، وسباق التسلح، والجيوبوليتيكي، والسياسي، والاقتصادي، والاجتماعي.

لا يمكن في هذا العرض المبسط لظاهرة الصراع ونشأته وتطوره، أن نتناول كل هذه المداخل، لذلك سوف نكتفي بأكثرها أهمية وتأثيرًا واستخدامًا، مع تخصيص فصل كامل لتحليل أثر الدين في نشأة الصراعات وتطورها.

---

(١) العلاقات السياسية الدولية، مرجع سابق ص٢٢٣.

كما نتناول في فصول مستقلة كيف ينشأ الصراع ويتطور من خلال عملية صنع السياسات الخارجية للدول.

وفي الفصل الأخير من هٰذا الجزء -الخطوط الحمراء- نسلط الضوء علىٰ نماذج من الأسباب المباشرة التي تؤدي إلىٰ نشوب صراع جديد، أو تفاقم صراع قائم.

الفصل الأول

أيها الشعوب .. الموت راحة لكم

المدخل الأول في تفسير الصراعات الدولية هو المدخل النفسي-السيكولوجي:

يفترض هذا التفسير أن الصراعات التي تتورط فيها دولة ما، تكمن أسبابها الأساسية في العوامل والنوازع النفسية.

ويمكن تقسيمها إلىٰ نوازع تتعلق: بالحكام أو النخبة الحاكمة، بالشعب نفسه، بالظروف التي تمر بها الدولة.

قدم علماء النفس -والسياسة- عدة نظريات لتفسير الصراعات الدولية بحسب التقسيم السابق، وهذه أبرزها[1]:

١ - تفسير الصراع بسبب النزعة الطبيعية لدى الإنسان إلى العدوان:

انطلاقًا من غرائز السيطرة والتسلط والنزعة إلىٰ التدمير، أول من طرح هذا التفسير عالم النفس المعروف «سيجموند فرويد»، الذي يفترض أن غرائز السيطرة والتسلط والنزعة إلىٰ التدمير، التي تتعاظم لدىٰ بعض الأشخاص أو الفئات المجتمعية، تفسر كثيرًا من النزاعات والصراعات الدموية. هذا الطرح لا شك أنه يفسر كثيرًا من سلوكيات الحكام الطغاة عبر التاريخ -ولو جزئيًّا- مثل الحملات الوحشية التي قام بها المغول من وسط آسيا إلىٰ شرق المتوسط بقيادة «جنكيز خان» و«هولاكو»، والتي راح ضحيتها ملايين من البشر. لكن هذه النظرية لا تصلح لتفسير مئات من النزاعات والحروب التي لم تنطلق لمجرد إشباع الميول العدوانية.

---

(١) العلاقات السياسية الدولية، مرجع سابق ص٢٢٥.

لكن بصفة عامة يمكن أن يندرج تحت هذه النظرية نزاعات وحروب كثيرة أشعلها حكام قساة في التاريخ المعاصر.

في مقدمة هؤلاء يأتي «جوزيف ستالين»، الزعيم السوفيتي المتوفىٰ عام ١٩٥٣م:

اسمه الحقيقي «جوزيف دزوجاشفيلي»، وُلِد في إحدىٰ قرىٰ جورجيا، وأطلق علىٰ نفسه لاحقًا اسم «ستالين» أي الفولاذ، شارك في شبابه في عملية سطو علىٰ أحد البنوك المحلية في جورجيا تسببت في مقتل كثيرين.

حكم روسيا بعد وفاة لينين عام ١٩٢٤م، حتىٰ عام ١٩٥٣م، أوصىٰ الزعيم السوفيتي «فلاديمير لينين» في أثناء مرض وفاته بعدم اختيار «ستالين» خليفة له لأنه فظ وقاسٍ، لكن الوصية أُخفيت لاحقًا واختارته قيادة الحزب، رغم أن «ستالين» نفسه اعترف بفظاظته وأكد أنه لن يتخلىٰ عنها، لكن في مواجهة أعداء الحزب[١].

تتراوح تقديرات أعداد القتلىٰ من مواطني الاتحاد السوفيتي الذين تسببت سياسات «ستالين» في موتهم، ٦٠ مليونًا كحد أقصىٰ، و٢٠ مليونًا الحد الأدنىٰ، وهناك تقديرات أكثر اعتدالًا تجعلهم في حدود ٤٠ مليون إنسان[٢].

وبهذا المعدل الأخير فإن ستالين في سنوات حكمه، سواء في منصبه الحزبي أو في رئاسة الدولة، كان يقتل: مليونًا وثلاثمائة ألف شخص سنويًا، ١١٥ ألف شخص شهريًا، ما يقرب من ٤ آلاف شخص يوميًا.

---

(١) فؤاد النمري، من هو ستالين، وما هي الستالينية؟ نسخة إلكترونية، دون دار نشر، الأردن، ص١٤.

(2) http://www.sasapost.com/author/abdulrahman-nasser

نتج عدد القتلىٰ عن سياسات وقرارات كثيرة، من أبرزها، تطبيق سياسة الزراعة التعاونية، التي أدت إلىٰ تغيير خريطة السكان في البلاد، وتهجير مئات الآلاف من الأسر، كما تسببت في مجاعة عارمة، كذلك فإن سعيه لتطوير الصناعة وإنشاء معسكرات مسخرة للعمل في سيبيريا أدىٰ إلىٰ مقتل ملايين.

كما أن غفلته عن الخطر الذي يمثله «هتلر» علىٰ ألمانيا في بداية الحرب العالمية الثانية، دفعه لتجاهل تحذيرات القادة العسكريين بالاستعداد للغزو الألماني، وقد أدىٰ ذلك إلىٰ اجتياح الجيش الألماني للبلاد واحتلال ما يقرب من ثلث الاتحاد السوفيتي، قبل أن ينجح الجيش ومقاومة الشعب في هزيمته، مخلفًا وراءه ملايين القتلىٰ[1].

لم يتوقف دمار «ستالين» عند حدود بلاده، بل تخطاه خارجًا، فقد أسهم في تأسيس أنظمة شيوعية في عديد من دول أوروبا الشرقية ومناطق مختلفة من العالم، لتتحول إلىٰ أنظمة قمعية قتلت وأرهقت وتورطت في حروب أهلية وإقليمية قتلت ملايين من البشر.

كما حرض «ستالين» حليفه -أو تابعه- الكوري، الزعيم «كيم إل سونج» ليخوض حربًا ضد كوريا الجنوبية، عام ١٩٥٠م، استمرت حتىٰ عام ١٩٥٣م، وكانت حصيلتها ٥ ملايين قتيل ما بين مدنيين وعسكريين[2].

من أقوال ستالين الشهيرة[3] التي تبين نزعته الهائلة للتدمير والاستهانة بالدماء: «موت إنسان مأساة، لكن موت مليون مجرد إحصاءات».

ويقول أيضًا: «الموت حل لكل المشكلات».

---

(1) http://www.arageek/bio/joseph-stalin

(٢) بي بي سي، كوريا ١٩٥٠م- ١٩٥٣م: الحرب التي فتكت بـ ٥ ملايين إنسان، ١٦/ ٤/ ٢٠١٧م.

(٣) http://ar.wikiquote.org/wiki جوزيف_ستالين.

من هؤلاء الحكام أيضًا، «ماوتسي تونغ»[(١)]:

الزعيم الصيني الذي كان مقربًا من «ستالين». بدأت سيطرته علىٰ الحزب الشيوعي الصيني منذ أواخر ثلاثينيات القرن الماضي، ثم سيطر علىٰ مقاليد الحكم منذ عام ١٩٤٩م حتىٰ وفاته في عام ١٩٧٦م.

خلال تلك الفترة تسبب في مقتل سبعين مليون صيني، ليصبح الزعيم الأكثر دموية في التاريخ المعاصر.

وصل «ماو» إلىٰ الحكم عن طريق حرب أهلية، ثم ألف «الكتاب الأحمر» وضَمَّن فيه مبادئه الثورية الشيوعية، ودشن ما يعرَف بـ«الثورة الثقافية» لتحويل الصين إلىٰ دولة عظمىٰ، لكن كانت حقيقتها التخلص من المعارضين لحكمه. قُتِل في «الثورة الماوية» ما يقرب من مليون صيني خلال سبع سنوات فقط في سياق التأكد من الولاء للزعيم، أغلبهم من المثقفين وأساتذة الجامعات الذين كانوا يمتحنون في حفظ نصوص من الكتاب الأحمر.

وفي إحدىٰ نزعاته اللاعقلانية دشن حملة للقضاء علىٰ «الآفات الأربع»؛ أي: العصافير، والناموس، والذباب، الفئران.

بدأت السلطات عام ١٩٥٨م في اصطيادها ضمن حملة وطنية شاملة، فاختل التوازن البيئي وانتشر الجراد وتناقص محصول الأرز -الغذاء الرئيس للشعب الصيني- فحدثت مجاعة هائلة راح ضحيتها ما يقرب من ٢٠ مليون مواطن، سقطوا ضحايا تجارب الزعيم[(٢)].

---

(١) يونج شانج، جون هاليدي، ماوتسي تونج، القصة المجهولة، دار النهار، بيروت، ٢٠٠٧م.
(٢) مرجع سابق / author/abdulrahman-nasser.

من هؤلاء أيضًا، الزعيم الألماني «أدولف هتلر»:

الذي تسبب في مقتل ما يقرب من ٢٧-٤٠ مليون إنسان، من جنسيات متعددة.

الزعيم الكمبودي «بول بوت»، قائد حركة «الخمير الحمر» الذي وصل إلىٰ رئاسة الوزراء عام ١٩٧٦م، ليقود حملات تطهير وتطوير للمجتمع قتل فيها نحو ٣ ملايين كمبودي، وكان إجمالي عدد السكان وقتها ٨ ملايين شخص.

في السياق العربي، يبرز «صدام حسين» الرئيس العراقي الذي حكم منفردًا منذ عام ١٩٧٩م إلىٰ ٢٠٠٣م. كان معروفًا بالقسوة تجاه معارضيه، حيث أعدم عددًا كبيرًا من كوادر الحزب البعثي، كما توسع في قتل ونفي المعارضين، ونفذ حملة عسكرية ضد الأكراد أطلق عليها اسم «حملة الأنفال» عامي ١٩٨٧م و١٩٨٨م، راح ضحيتها عشرات الآلاف من القتلىٰ، يقدرهم البعض بنحو ١٨٠ ألف كردي. قاد الحملة «علي حسن المجيد» ابن عم «صدام حسين»، الذي أطلق عليه الأكراد اسم «علي كيماوي».

من أبرز أحداث الحملة مذبحة «حلبجة» -مارس ١٩٨٨م- تلك المدينة الكردية التي قصفتها الطائرات بالأسلحة الكيميائية، التي تضمنت غاز الخردل وغاز الأعصاب والسيانيد والقنابل العنقودية، مخلفة وراءها نحو خمسة آلاف قتيل وسبعة آلاف مصاب.

كان سبب القصف تمركز قوات «البيشمرجة» الكردية التابعة للاتحاد الوطني الكردستاني في المدينة في أثناء الحرب مع إيران، وكان الاتحاد الكردي مؤيدًا للجانب الإيراني في الحرب[1].

---

(١) صحيفة الشرق الأوسط ١٩/ ٤/ ٢٠٠٣م.

عندما بدأت «حملة الأنفال» انسحب المقاتلون الأكراد من المدينة تاركين وراءهم النساء والأطفال وكبار السن، لتقصفهم الطائرات بعد أن حلقت فوق المدينة عدة ساعات.

لم يكد «صدام حسين» يفرغ من حربه مع إيران في أغسطس عام ١٩٨٨م، والتي نتج عنها خسائر بلغت نحو مليون قتيل، و٤٠٠ مليار دولار من الجانبين، حتىٰ تورط بعد عامين فقط -أغسطس ١٩٩٠م- في غزو الكويت، ليجلب لبلده وشعبه دمارًا وتدهورًا في كل مجالات الحياة.

اللافت هنا أن كل هؤلاء الزعماء الذين لديهم نزعة كبيرة للتدمير والقسوة وقتل الملايين والتورط في صراعات متعددة، كانوا يطبقون سياساتهم تلك تحت زعم الارتقاء بالدولة والشعب، وتطوير المجتمع، إلخ، وكلهم بلا منازع تسبب في عكس ما أراد أو زعم، وكانوا سببًا مباشرًا في انهيار دولهم، ولو بعد حين.

٢ - نظرية الإخفاق أو الإحباط[١]:

من النظريات المهمة التي تفسر نشأة الصراعات بين الدول.

يفترض مؤيدو هذه النظرية أن الدافع للتورط في الصراعات يمكن إرجاعه إلىٰ ما يسمونه: عامل الإحباط «Frustration» الذي يصل إلىٰ ذروة تأثيره في ظروف الأزمة، وبالأخص عندما تصاب الخطط القومية للدولة بالإخفاق.

يقول عالم النفس البريطاني «جون كارل فلوجيل» أن الدول التي تلبي الحاجات الأساسية لشعوبها بدرجة مقبولة، تكون أقل استعدادًا من الناحية

---

(١) العلاقات السياسية الدولية، مرجع سابق ص٢٢٦.

النفسية للدخول في نزاعات أو حروب، مقارنة بالدول التي يسيطر علىٰ شعوبها الشعور بعدم الرضا أو الإحباط وعدم كفاية الحاجات الأساسية.

يذكر عالم النفس الأمريكي «إريك فروم» أن العنف والميل إلىٰ التدمير يمثلان الناتج التلقائي والحتمي للشعور بالإحباط الذي ينشأ من الصدمة الناتجة عن خذلان الآمال والتطلعات القومية لأسباب مختلفة.

من أبرز الأمثلة علىٰ تفجر النزاعات الدولية بحسب هذه النظرية، نموذج ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولىٰ و«معاهدة فرساي».

بعد هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولىٰ، انعقدت مباحثات الاستسلام في قصر فرساي -فرنسا عام ١٩١٩م، التي انتهت بتوقيع «معاهدة فرساي»، كان أحد طرفيها الحلفاء المنتصرين في الحرب، وفي مقدمتهم: أمريكا، بريطانيا، فرنسا، إيطاليا، والطرف الآخر المهزوم كان ألمانيا، وقال رئيس الوزراء الفرنسي «جورج كليمنصو» بأن ألمانيا لديها سكان ٢٠ مليون نسمة أكثر من اللازم، فاقتطع من أراضيها جزءًا يسكنه نحو ٧ ملايين شخص.

عُدَّت الاتفاقية الأكثر إجحافًا وظلمًا عبر التاريخ، بسبب الشروط والقيود القاسية التي فرضت علىٰ الألمان.

أبرز ما تضمنته تلك الشروط(١):

جغرافيًّا: تخلت ألمانيا عن مستعمراتها في أنحاء العالم، كما تخلت عن أجزاء كبيرة من أراضيها في أوروبا لصالح: بولندا -بلجيكا -فرنسا -تشيكوسلوفاكيا.

---

(١) http://www.marefa.org/ معاهدة_فرساي.

فرضت المعاهدة قيودًا قاسية علىٰ القدرات العسكرية الألمانية، بأن يقتصر تعداد الجيش علىٰ مائة ألف جندي فقط، مع إلغاء التجنيد الإلزامي، وإلغاء القوات الجوية، وتحديد القوة البحرية بـ١٥ ألف جندي فقط، ولا يحق للجنود البقاء في الخدمة أكثر من ١٢ عامًا، والضباط أكثر من ٢٥ عامًا، وذلك حتىٰ تتقلص الكفاءات المدربة داخل الجيش.

تضمنت الاتفاقية نصًا يحُمِّل ألمانيا المسؤولية الكاملة عن خسائر الحرب، ما يعني التزامها الكامل بدفع التعويضات للدول المتضررة بحسب المعاهدة، وقُدِّرت قيمة التعويضات بـ٢٦٩ مليار مارك ألماني أو حوالي ٩٦ ألف طن ذهب. أدىٰ ذلك إلىٰ تدهور الاقتصاد الألماني، وتراجع مستويات المعيشة وتفاقم الأزمات الاقتصادية، وفي أعقاب الكساد الكبير عام ١٩٢٩م، تم خفض ديون ألمانيا إلىٰ ١١٢ مليار مارك، تدفع علىٰ ٥٩ عامًا، وقد انتهت ألمانيا من دفعها بالفعل عام ٢٠١٠م.

خسرت ألمانيا نتيجة المعاهدة: ٥, ١٢٪ من أراضيها - ١٢٪ من عدد السكان - ١٥٪ من الإنتاج الزراعي - ١٠٪ من الصناعة - ٧٤٪ من إنتاجها من خام الحديد، وتوزع ملايين الألمان في بولندا وتشيكوسلوفاكيا والنمسا.

كان ذلك رغبة من فرنسا لتحطيم ألمانيا، وخوفًا من انتعاشها لاحقًا وعودتها إلىٰ السيطرة.

أرسلت بريطانيا الخبير الاقتصادي المعروف «جون مينارد كينز» إلىٰ مؤتمر باريس للسلام ممثلًا لها في مباحثات فرساي، لكن «كينز» استقال لاحقًا بسبب اعتراضه علىٰ المبالغة في حجم التعويضات المفروضة علىٰ ألمانيا، وقال إنها

لن تكون قادرة علىٰ صياغة السياسات الصحيحة، إذا لم تكن قادرة علىٰ تمويل نفسها[١].

صدقت توقعات «كينز» وكان صعود الحزب النازي بزعامة «هتلر» نتيجة مباشرة لهذه الاتفاقية، نتيجة شعور الألمان بـ«الإحباط»، وعجز الدولة عن تلبية الحاجات الأساسية بسبب قيود المعاهدة.

نجح الحزب النازي بقيادة هتلر في الحصول علىٰ المركز الثاني في انتخابات البرلمان عام ١٩٣٠م، ثم اكتسح انتخابات عام ١٩٣٢م، وتولىٰ منصب «المستشار» أي رئاسة الحكومة عام ١٩٣٣م، فأوقف دفع التعويضات، وألغىٰ البرلمان، ودشن مشروع «السنوات الأربع» لإعادة تسليح وتطوير الجيش الألماني والصناعات العسكرية، ثم بدأ يتجاوز شروط المعاهدة، وصولًا إلىٰ اندلاع الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩م، حيث تمكن في المرحلة الأولىٰ من الحرب من تدمير الجزء الأكبر من الدول الأوروبية التي فرضت المعاهدة علىٰ ألمانيا، حتىٰ إنه أرغم فرنسا علىٰ توقيع اتفاقية استسلام في عربة القطار نفسها في باريس، التي أُجبرت ألمانيا علىٰ توقيع اتفاقية الهدنة بداخلها.

٣ - نظرية الشخصية القومية[٢]:

بحسب هذه النظرية فإن بعض الأمم أو القوميات تتصف بالطابع العدواني الذي يجعلها تنزع إلىٰ إشعال الصراعات مع الآخرين، ما يحتم ضرورة تكاتف الدول الأخرىٰ لمجابهة هذا الخطر العدواني وعزله أو تصفيته نهائيًا.

---

(1) http://www.sasapost.com/loans-the-first-world-war-britain-germany-the-us-finance/.

(٢) لعلاقات السياسية الدولية، مرجع سابق ص٢٢٦.

يندرج ضمن هذه النظرية أيضًا، النموذج الألماني في عهد «هتلر»: حيث اتسم بالعدوانية الشديدة التي دفعته للانطلاق بجيوشه في اتجاه الشرق متسببًا في معارك لا حصر لها، وقتلىٰ بالملايين، وخسائر تفوق الحصر.

أحد الأسباب الأساسية في هذه السمة لدىٰ الألمان في ذلك الوقت، هو شعورهم الطاغي بالتفوق العرقي. وكان ذلك أحد المقومات الأساسية لشخصيتهم القومية، ما جعلهم ينزعون إلىٰ العدوان والتوسع الخارجي.

قامت النازية الألمانية علىٰ فكرتين أساسيتين، هما:

١. تصنيف البشر وفق تقسيم عرقي، مع وضع العرق الآري الألماني في قمة الهرم، يليه في الترتيب الأعراق القريبة منه، مثل البريطانيين والفايكنج، ووضع اليهود والروس في أسفل السلم. وتبنت النازية مبدأ تحسين الجنس البشري عن طريق القضاء علىٰ المعوقين وأصحاب التشوهات والأجناس الدنيا.

٢. تأسيس الدولة الوطنية ذات الطبيعة العسكرية كأداة لتحقيق الهدف الأول. وهذا يعني أن مهمة الدولة الألمانية ستكون تحقيق السيادة للعرق الألماني، والتدني للأعراق الأخرىٰ[١].

من الأمثلة أيضًا علىٰ الشخصية القومية التي تنزع إلىٰ العنف وتفجير الصراعات: «الشخصية القومية الصهيونية»، التي تتبنىٰ سياسات عدوانية وإقصائية ضد الفلسطينيين بصفة عامة، وضد النخب والحركات السياسية الفلسطينية بصفة خاصة، وحتىٰ ضد المسؤولين الأوروبيين الذين يخالفونهم أو يطالبونهم بتهدئة مشروعهم الاستعماري.

---

(١) الجزيرة، النازية، العرق الآري في قمة الهرم ٧/ ٦/ ٢٠١٦م.

ونذكر بعض الأمثلة من سلوكهم العدواني ضد البريطانيين، والذي لا يعرفه كثيرون:

اتبعت المنظمات الصهيونية العسكرية في فلسطين قبل عام ١٩٤٨م نهجًا عدوانيًّا ضد المسؤولين الأوروبيين الذين كانوا يطالبونهم بالتمهل قليلًا في خطوات تأسيس الدولة، والسيطرة علىٰ الأراضي الفلسطينية، فلم يكن هؤلاء يرفضون الفكرة أصلًا أو يعارضونها.

نفذت تلك المنظمات عددًا من العمليات ضد الوجود البريطاني في الفترة من ١٩٣٩م حتىٰ ١٩٤٨م، شملت الهجوم المتكرر علىٰ مقرات المخابرات والشرطة البريطانية، وزرع الألغام والمتفجرات في أماكن وجود الجنود والمسؤولين البريطانيين، واغتيال وزير الدولة البريطاني في الشرق الأوسط «والتر إدوارد جينس» -اللورد موين- والذي نفذ الاغتيال جماعة ليحي اليهودية، والذي أصدر الأمر «إسحاق شامير» -رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق-.

العملية الأبرز كانت تفجير فندق الملك داود في القدس عام ١٩٤٦م، وكان يضم المكاتب الإدارية للانتداب البريطاني، نتج عنه مقتل ٩١ شخصًا أغلبهم من العرب، وعشرات الجنود البريطانيين[١].

في سبتمبر ١٩٤٨م في أثناء مباحثات التقسيم بإشراف مجلس الأمن، كان المبعوث الدولي السويدي الكونت «فولك برنادوت» قد توصل إلىٰ ضرورة أن تكون صحراء النقب ضمن الدولة العربية المقترحة في فلسطين، وكان ذلك لا يعجب اليهود، فقرروا اغتياله بإطلاق الرصاص عليه في القدس، وكان المنفذ جماعة ليحي أيضًا، بإشراف «إسحاق شامير»[٢].

---

(١) http://www.marefa.org/ النزاع_البريطاني_الصهيوني.

(٢) محمد حسنين هيكل، المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل، الأسطورة والإمبراطورية والدولة اليهودية، ج١، دار الشروق القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩٦م، ص٢٧٤-٢٧٥.

تصاعدت العمليات الصهيونية ضد البريطانيين، لدرجة أن رئيس الوزراء البريطاني «كليمنت آتلي» أرسل برقية يشتكي فيها إلىٰ الرئيس الأمريكي الأسبق «هاري ترومان»، جاء فيها: «كما تعرفون تحاول الجماعات الصهيونية في فلسطين الضغط علينا في موضوع الهجرة، وقد زادت عمليات الميلشيات الصهيونية المسلحة ضد القوات البريطانية في فلسطين، وكان آخرها خطف ستة ضباط بريطانيين، إن حكومة صاحبة الجلالة قد توصلت إلىٰ اقتناع بأن هذا وضع يصعب السكوت عنه، وقد أُخطر المندوب السامي في القدس بأنه مخول بسلطة اتخاذ ما يراه من إجراءات تحقق سيطرة الإدارة البريطانية في فلسطين علىٰ الأمور»[١].

٤- نظريات تتعلق بأثر الاتجاهات والمعتقدات القومية في تفجير الصراعات[٢]:

يقول الفيلسوف الفرنسي» إميل دوركايم»: «حين يعاني المجتمع، يشعر بالحاجة لأن يجد أحدًا يمكنه أن يعزو إليه ألمه، ويستطيع أن ينتقم لخيبات أمله»[٣].

من الاتجاهات السلبية، أن تقوم إحدىٰ الدول بتحميل دولة أخرىٰ المسؤولية عن مشاعر الإحباط الداخلي، أو الانكماش الاقتصادي أو تدهور الأوضاع المعيشية، إلخ، ما يرسخ النظرة العدائية لدىٰ الرأي العام تجاه هذه الدولة بصورة مبالغ فيها تتسبب في تعزيز بيئة الصراع.

---

(١) المرجع السابق ص٢٢٨-٢٢٩.

(٢) العلاقات السياسية الدولية، مرجع سابق ص٢٢٧.

(٣) بيار كونيسا، صنع العدو، أو كيف تقتل بضمير مرتاح؟ المركز العربي، ٢٠١٥م، ص٣٦.

وفي بعض الحالات تتولد هذه الاتجاهات السلبية لدى الدول القمعية أو الديكتاتورية تجاه الدول الديمقراطية التي تنعم بالحريات في نطاقها الإقليمي.

مثال الحالة الأولى، محاولة صدام حسين أن يحمل الكويت مسؤولية الأزمة الاقتصادية التي تعانيها بلاده بدعوى أنها تتحكم في أسعار النفط، فقد كانت ديون العراق بعد الحرب ثقيلة، وكان يسعى إلى دفعها عن طريق مدخول النفط، لكن تدهور الأسعار ووصولها ١٠-١٢ دولار للبرميل، منعه من تحقيق أهدافه، فبدأ يلقي المسؤولية واللوم على الدول المجاورة، وفي مقدمتها الكويت التي اتهمها صدام بأنها تتجاوز حصتها في منظمة أوبك لكي تخفض أسعار النفط، رغم تأكيد الكويت لاحقًا أنها تلتزم بالحصص المعلنة.

ثم بدأ صدام يطالب الكويت مجددًا بإلغاء الديون على العراق التي قدرت بعشرات المليارات، ثم اتهم الكويت بأنها استخرجت النفط من حقل الرميلة في المنطقة المشتركة.

في نهاية الأمر، اتخذ صدام قراره بغزو الكويت، بناء على المعطيات السابقة، كاشفًا عن نوايا عدوانية سابقة، وقناعات سياسية ترتكز على رؤية حزب البعث في تأسيس العراق الكبير الذي يضم أراضي من عدة دول مجاورة بينها الكويت.

مثال الحالة الثانية: العلاقة المتوترة دومًا بين الكوريتين، أحد الأسباب الرئيسة، هو أن كوريا الجنوبية تحظى بنظام ديمقراطي، واقتصاد متقدم، ومستوى معيشي مرتفع، وعدد سكان أكبر، إلخ المزايا والفروقات التي تجعل من النظام في كوريا الشمالية يحمل حقدًا دائمًا ضد الجارة الجنوبية.

أيضًا من هذه الاتجاهات السلبية المعززة للصراعات: التمسك بفكرة نمطية عن دولة أو مجتمع آخر دون أي محاولة للتغيير بما يتلاءم مع تطورات الواقع،

وهذا يؤدي إلىٰ تراكم ثقافي سلبي يعزز من احتمالات سوء الفهم والتحيز وتنامي مشاعر العداء.

المثال الأبرز علىٰ ذلك ظاهرة «الإسلاموفوبيا»، حيث تقوم وسائل إعلامية ومراكز دراسات ومنظمات غربية ببناء صورة نمطية سلبية عن المسلمين والإسلام، وترسيخها وتعميقها في الذهنية الغربية، لكي تتولد عنها أفكار وسلوكيات تتسم في أقل درجاتها بالنفور، فضلًا عن العدوانية والكراهية.

من أمثلة ذلك، الجهد الكبير الذي بذلته إدارة الرئيس الأمريكي الأسبق جورج بوش، في تحميل النظام العراقي جانبًا من المسؤولية عن هجمات سبتمبر ٢٠٠١م، أو تحويله إلىٰ مصدر كبير للخطر النووي، وهو ما أثر بالفعل في توجهات الرأي العام التي باتت أغلبيته مقتنعة بأن غزو العراق يرتبط بالأمن القومي الأمريكي مباشرة.

كما أثر أيضًا في مشاعر ونفسيات الجنود العراقيين الذين ذهبوا لقتال النظام العراقي بوصفه عدوًّا خطيرًا، يذكر أحد الجنود الأمريكيين الرافضين للحرب في العراق -ستيفن فانك-: «كانوا يرسلون الجنود إلىٰ الخليج ويقولون لهم عبارات مثل: اقتل رأسًا بخرقة من أجلي، كم أحسدك»[1].

بصفة عامة فإن توجيه الرأي العام نحو عدو معين، باتت صناعة معقدة، يشرح الخبير السياسي «بيار كونيسا» هذا الأمر في كتابه المهم «صنع العدو»، فيقول: «منذ الثورة الفرنسية، لم يعد الملك هو الذي يقرر الحرب أو السلم بمفرده. إذًا، يستلزم نشوء القوميات والنزاعات العالمية في القرن العشرين موافقة الرأي العام،

---

(١) جيف سيمونز، عراق المستقبل.. السياسة الأمريكية في إعادة تشكيل الشرق الأوسط، دار الساقي، بيروت ص٢٨.

لكونه العامل الأساس للتعبئة الحربية. ويبقىٰ تفسير الحروب -بوصفه لعبة تجار السلاح أو مصلحة الرأسمال الكبير- قاصرًا عن تغطية مجمل النزاعات الحالية. وتقتصر المهمة الرسمية لمؤسسات الفكر الإستراتيجي في البلدان الديمقراطية الكبرىٰ علىٰ إنتاج تحليل، إلىٰ جانب خطاب، حول السياق الدولي والتهديدات، وإعطاء شكل جديد للقوة العسكرية الضرورية لمواجهة هذه التهديدات، وأخيرًا شرعنة استخدام القوة إن لزم الأمر. ولقد أغرقتهم الحقبة التي أتت بعد نهاية الاتحاد السوفيتي في حالة من القلق الشديد. «إن من يحيا علىٰ محاربة عدوه، من مصلحته أن يدعه يعيش»[1].

في هذا السياق يمكن ملاحظة تطور مهم يتعلق بـالإدارة الأمريكية في عهد «جورج بوش» الابن، فقد أحدثت تطويرًا في فلسفة المعلومات والعمل الاستخباراتي، فبدلًا من البحث عن المعلومات أولًا ثم بناء السياسات انطلاقًا منها، كانت الإدارة تحدد السياسة أولًا، ثم تجمع المعلومات المتوافقة معها، وكان ديك تشيني -نائب الرئيس الأمريكي- يتردد باستمرار علىٰ مقر السي آي إيه في لانجلي، ويكثر من الأسئلة حول العراق، ويقول للموظفين: «لماذا لا تدعم استخباراتكم ما نعرف أنه موجود هناك؟»[2].

ومن الطريف أن وزير الدفاع الأسبق «دونالد رامسفيلد» عندما كان يشغل منصب رئيس طاقم البيت الأبيض في عهد الرئيس الأسبق «جيرالد فورد»، أصدر ما أصبح يعرف بـ«قوانين رامسفيلد» التي تحث علىٰ تحسين آلية تدفق المعلومات إلىٰ الرئيس ومنه، لكن في عهد «بوش»، عندما أصبح وزيرًا للدفاع، أصبح متهمًا

---

(١) بيار كونيسا، صنع العدو، مرجع سابق، ص١٧.

(٢) جون نيكولز، ديك تشيني رئيس أمريكا الفعلي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ص١٨٣.

عن جدارة بـ«المنع المتعمد لوصول المعلومات إلىٰ رئيسه» تحت حجة أنه لا يريد أن يشغل وقت الرئيس[1].

(١) مجموعة مؤلفين إسرائيليين، الدور الإسرائيلي في الحرب على العراق، مركز الدراسات الفلسطينية، دمشق ص٧١.

الفصل الثاني

أيها الأبيض .. استعدْ حملك الثقيل

وفقًا للمدخل الأيديولوجي في تفسير الصراعات، فإن التناقضات الأيديولوجية بين القوىٰ العظمىٰ الكائنة في المجتمع الدولي تمثل الحقيقة الكبرىٰ التي تنبع منها وتدور في خلفيتها كل أشكال الصراعات.

مصطلح **«أيديولوجيا»** يرتبط بالثقافة الغربية بصفة أساسية، فهو تعبير عن تركيبة من الأفكار والمعاني التي تجعل من الصعب ترجمة هذا المصطلح إلىٰ لغة أخرىٰ بكلمة واحدة مطابقة، فهو أصلًا مكون من كلمتين يونانيتين: إيديا، بمعنىٰ «فكرة»، و«لوجوس» بمعنىٰ «علم».

وقد أصبح لهذا المصطلح في العلوم الإنسانية تعريفات متعددة وتطبيقات يصعب حصرها، لكنه بصفة عامة يتضمن العناصر الآتية:

- مجموعة من الأفكار والمعاني والمفاهيم والقناعات التي تقدم تفسيرًا للحياة والمجتمع والبيئة المحيطة.

- خطاب عاطفي جماهيري.

- تحديد للسلوك السياسي والاجتماعي.

- التوجه لتحقيق أهداف وطموحات تتجاوز أحيانًا نطاق دولة المنشأ إلىٰ المجتمعات والدول الأخرىٰ.

كانت «الماركسية» هي سبب شيوع استخدام هذا المصطلح في القرن الماضي، فقد عدَّ المفكرون الغربيون أن «الشيوعية» تحمل في صميم أفكارها منهج صراع يتبنىٰ «حتمية الحرب» مع المعسكر الرأسمالي الغربي.

بالرغم من تراجع الاتحاد السوفيتي لاحقًا عن مبدأ «حتمية الحرب» وتبني مبدأ «التعايش السلمي»، فإن ذلك عمليًّا لم يكن أكثر من مجرد استبعاد لأداة «الحرب المباشرة» من الصراع[1] مع بقائه كما هو، وقد تجلىٰ ذلك من خلال فترة «الحرب الباردة» التي استمرت لعقود بين المعسكرين الغربي والسوفيتي.

من أبرز الأيديولوجيات بخلاف -الشيوعية- في القرن الماضي: النازية -الفاشية -الخمينية -البعثية -القومية، إلخ.

يمكن تقسيم الأيديولوجيات من حيث تأثيرها إلىٰ ثلاث مجموعات من الأيديولوجيات[2]:

أولاً: الأيديولوجيات الفرعية Subnational Ideologies:

أي التي توجد داخل الدولة الواحدة، ويعبر كل منها عن قطاع داخل الرأي العام الداخلي؛

مثل التيارين الإصلاحي والمحافظ في إيران، فلكل منهما أيديولوجيته الخاصة، وكل منهما ينقسم إلىٰ أيديولوجيات فرعية.

فالأيديولوجيا السياسية للنظام الثوري الإيراني بقيادة «الخميني»، كانت في حقيقة الأمر مجموعة من الأيديولوجيات الفرعية، هيمنت عليها أيديولوجيا واحدة في النهاية، لكنها لم تلغها[3]. وأدىٰ التدافع المستمر بينها عبر السنين إلىٰ ظهور مزيد من الأيديولوجيات السياسية الفرعية داخل النظام السياسي الإيراني.

---

(١) العلاقات السياسية الدولية، مرجع سابق ص٢٢٩ بتصرف.

(٢) المرجع السابق ص٦٦-٦٧.

(٣) توفيق السيف، حدود الديمقراطية الدينية، دار الساقي، بيروت، ٢٠٠٨م، ص٩٢.

مثال آخر: أيديولوجيا «المحافظين الجدد» في أمريكا، الذين يعبرون عن تيار سياسي يميني يتحرك داخل الحزب الجمهوري.

ثانيًا: الأيديولوجيات القومية National Ideologies:

أي التي يمتد تأثيرها إلىٰ الدولة بأكملها، بحيث تعطي ملمحا عاما للدولة، وتشكل مناخه السياسي والفكري، مثل النازية في ألمانيا - هتلر، والفاشية في إيطاليا- موسوليني.

ثالثًا: الأيديولوجيات الدولية أو عبر القومية Transnational Ideologies:

أي التي يتشارك في الانتماء إليها والتأثر بها أكثر من دولة، مثل الماركسية.

من حيث العدد، فإن الأيديولوجيات الفرعية هي الأكثر عددًا وتنوعًا، يليها القومية ثم الدولية. أما من حيث الحجم، أي عدد من ينتمون إلىٰ الأيديولوجيا، فإن الأيديولوجيات الدولية تأتي في المقدمة، يليها القومية، ثم الفرعية.

تأتي الأيديولوجيات الدولية -عبر القومية- في المقدمة من حيث تأثيرها في العلاقات الدولية، وتسببها في صراعات ونزاعات، **لكن هذا التأثير يتوقف حجمه وشدته علىٰ ٣ عوامل أساسية:**

١ - طبيعة الأيديولوجيا:

هل تفرض علىٰ المنتمين إليها التوصل إلىٰ أهداف محددة، تتجاوز الأطر القومية؟

هل يتجاوز الانتماء إليها أي مرجعيات أخرىٰ؟

٢- طبيعة الأهداف:

هل هذه الأهداف سلبية التأثير علىٰ الآخرين؟

أم أن لها تأثيرًا قويًّا وحادًّا علىٰ أمن ومصالح الدول الأخرىٰ؟

٣- طبيعة التابعين:

كم عدد الدول التي تضم تابعين لهذه الأيديولوجيا؟

كم يبلغ عدد التابعين في كل دولة، وما أهمية المراكز التي يشغلونها؟

هل هم داخل السلطة أم خارجها؟

هل توجد من ضمن الدول التي يوجد فيها التابعون، دول كبرىٰ؟

نهاية التاريخ -الأيديولوجيا.. حقيقة أم خيال؟

بعض الكتاب يستخدم مصطلح «الأيديولوجيا» في سياق سلبي، قاصرًا إياه علىٰ المذاهب السياسية التي تواطأت الثقافة الغربية علىٰ وسمها بالتطرف مثل «الشيوعية» وغيرها، وعليه يروج لما يسمىٰ «سقوط أو نهاية الأيديولوجيا» مع نهاية القرن العشرين.

أول ظهور لهذا المصطلح «نهاية الأيديولوجيا» كان مبكرًا في مطلع الخمسينيات بعد وفاة رئيس الاتحاد السوفيتي «جوزيف ستالين»، فقد عدَّ «ستيوارت هيوز» أستاذ التاريخ الأمريكي أن مظاهر تراجع الشيوعية تؤذن بنهاية الأيديولوجيا، كما عُقِد مؤتمر ضخم في ميلانو -إيطاليا- عام ١٩٥٥م تحت عنوان «مستقبل الحرية»، شارك فيه عدد كبير من علماء الاجتماع والسياسة

الغربيين، حيث جرىٰ الإعلان عن اختفاء أسباب الصراع الأيديولوجي في العالم وإعلان نهاية عصر الأيديولوجيا -أي الشيوعية-[١].

راجت الفكرة لدىٰ عدد كبير من علماء الاجتماع البارزين في ذلك الوقت، فكتب «سيمور مارتن ليبست» كتابه «السياسي» ١٩٥٩م، وألف عالم الاجتماع الأمريكي البارز «دانيال بل» كتاب «نهاية الأيديولوجيا، عن استنزاف الأفكار السياسية في الخمسينيات»، عام ١٩٦٠م، وتبنىٰ فيه القول بأنه لا يمكن اعتقال التطور السياسي والاجتماعي والاقتصادي والفكري لمجتمع ما في ظل أيديولوجيا مقننة لها مبادئها المقدسة التي لا يمكن تغييرها، لأن ذلك ضد منطق تاريخ التطور الإنساني، بحسب قوله[٢].

تضخم الترويج لهذا المصطلح بعد سقوط الاتحاد السوفيتي وظهور كتاب المفكر الأمريكي «فرانسيس فوكوياما»: «نهاية التاريخ والإنسان الأخير»، عام ١٩٩٢م، الذي يعلن فيه انتصار النظام والفكر الرأسمالي والليبرالية الغربية علىٰ النظام والفكر الشيوعي والاشتراكية.

هذا الطرح -غربي النشأة- يستند إلىٰ فكرة أن المجتمعات الصناعية المتطورة قد حلت أغلب مشكلاتها الاجتماعية وقضاياها الكبرىٰ، ولم تعد بحاجة إلىٰ الأيديولوجيا التي تلاشت الحاجة الوظيفية لها، وأن الجدل داخل المجتمعات المتطورة يدور حول قضايا تنفيذية ومشكلات تقنية إدارية، فليس ثمة حاجة إلىٰ رؤىٰ مثالية كلية تتعارض مع التنظيم العقلاني للمجتمع.

---

(١) صلاح سالم، نهاية الأيديولوجيا أم تحورها؟ صحيفة البيان، ١٥/ ٩/ ٢٠١٥م.

(٢) السيد ياسين، نهاية الأيديولوجيا وبداية الشعبوية، الأهرام ٢٦/ ١/ ٢٠١٧م.

تبنىٰ كثير من الكتاب والباحثين العرب هذه المقولة وانطلقوا يروجون لها مع تضمنها لكثير من العور وعدم الدقة.

فالذي يتأمل في الصراعات الدائرة اليوم لا يمكن بحال أن يغفل عن جذورها الأيديولوجية، مهما كانت خافتة أو مضمرة، بل إن العولمة والديمقراطية والليبرالية هي بحد ذاتها أيديولوجيات تتضمن تفسيرًا للحياة والمجتمع والبيئة والعلاقات المحلية والخارجية، إلخ، ولم يتخلَّ الغرب يومًا عن منطلقات أيديولوجية في علاقاته الدولية، بدءًا من عصر الإمبريالية المباشرة قبل قرون، وانتهاء بالإمبريالية المقنعة بغلالة ليبرالية في وقتنا الحالي.

يفترض المفكر وأستاذ السياسة في جامعة هارفارد الأمريكية «صمويل هنتنجتون» في كتابه صدام الحضارات، أن تفكك «الليبرالية الغربية» كأيديولوجية، خطر كبير يتهدد الحضارة الغربية، وأن هذا التفكك سيحدث عندما تتحول الولايات المتحدة إلىٰ «أمم متحدة» بسبب تعدد الثقافات علىٰ أرضها، وينقل عن الرئيس الأمريكي الأسبق «تيودور روزفلت» قوله: «الطريقة الوحيدة المؤكدة التي تؤدي بهذه الأمة إلىٰ الدمار ومنع كل إمكانية لاستمرارها كأمة، هي السماح لها بأن تصبح كتلة متشابكة من قوميات متنازعة»[1].

يقول «هنتنجتون»: «يرفض دعاة التعددية الثقافية الأمريكيون تراث بلدهم الثقافي ويرغبون في إيجاد بلد ذي حضارات متعددة.. يرينا التاريخ أن دولة بهذا الشكل لا يمكن أن تستمر طويلًا كمجتمع متماسك. ولايات متحدة متعددة الحضارات لن تكون الولايات المتحدة، بل ستكون الأمم المتحدة»، وينقل عن

---

(١) صمويل هنتنجتون، صدام الحضارات، إعادة صنع النظام العالمي، ١٩٩٩م، ص٤٩٤.

أستاذ التاريخ الأمريكي «ريتشارد هوفستاتر» قوله: «قدرنا كأمة ألا يكون لدينا أيديولوجيات، بل أن نكون نحن أيديولوجية»[1].

المفارقة هنا أنه بينما يروج دعاة «سقوط الأيديولوجيا» هذا المفهوم في سياق التأكيد أن الليبرالية الغربية هي الوارثة والباقية، ينقل «هنتنجتون» عن فيلسوف ياباني معروف -تاكيشي أومي هارا- تحذيره من أن الدور على الليبرالية الغربية لكي تسقط كأيديولوجية كما سقطت الماركسية من قبل، يقول «أومي هارا»: «الإخفاق التام للماركسية، والتفكك الدرامي للاتحاد السوفيتي، ليسا سوى نذير بسقوط الليبرالية الغربية التي هي تيار التحديث الرئيس، وبعيدًا عن كونها بديلًا للماركسية، والأيديولوجيا الحاكمة في نهاية التاريخ، ستكون الليبرالية هي حجر الدومينو الذي عليه الدور في السقوط»[2].

فالدول الغربية إذًا -سواء في نسختها الإمبريالية الظاهرة القديمة، أو الإمبريالية المقنعة الحديثة- تنطلق في علاقاتها مع العالم من رؤية فوقية استغلالية، فهي تستبطن استنزاف ثروات العالم في حين تعلن أنها جاءت لتنقذه، أو «تلبرله».

إنه «عبء الرجل الأبيض» الذي عبر عنه «روديارد كيبلنج» في قصيدته الشهيرة عام ١٨٩٩م التي حملت هذا العنوان، وقال فيها[3]:

أيها الأبيض استعد حملك الثقيل..

مكافأتك هزيلة:

لوم الذي يحتاج هديتك..

---

(١) المرجع السابق ص٤٩٥.

(٢) السابق ص٤٩٥.

(٣) صنع العدو، مرجع سابق، ص١١٥.

كراهية الذين تراقبهم..
جمهور التمتمة الجنائزية
الذي ترشده إلىٰ النور:
لماذا تمحو ظلامنا.. وتهبنا الحرية؟

يتحرك الغرب في علاقاته الخارجية وفق حتمية قيامه بدور السيطرة لإنقاذ العالم من نفسه، فإضافة إلىٰ قصيدة «كيبلنج»، ظهرت في الولايات المتحدة أطروحات تروج للمعنىٰ نفسه مثل: مصطلح «القدر الظاهر»، أو «بيان المصير»، وفي فرنسا ظهر كتاب جول فيري «رسالة الحضارة»، وكلها تؤسس لفكر استعماري لا تزال ملامحه قائمة حتىٰ الآن، فبالرغم من تراجع مفهوم الاحتلال المباشر للدول، فإن عقلية السيطرة الفكرية والسياسية والعسكرية والاقتصادية لا تزال هي المحرك الأساس للسياسات الخارجية للدول الغربية الكبرىٰ استنادًا للأيديولوجيا ذاتها، كما يؤكد «إدوارد سعيد» في كتابه القيم «الثقافة والإمبريالية»: في أيامنا هذه يكاد يكون الاستعمار المباشر قد انتهىٰ، لكن الإمبريالية تستمر، حيث كانت موجودة دائمًا: في مناخ ثقافي عام، وفي ممارسات سياسية وعقائدية واقتصادية معينة أيضًا»[(١)].

هذه الأيديولوجيا الإمبريالية دفعت الأوربيين إلىٰ امتلاك العالم حرفيًّا في القرون الثلاثة الماضية، في عام ١٨٠٠م ادعت الدول الغربية لنفسها حق ملكية ٥٥٪ من سطح الكرة الأرضية، ولكنها ملكت فعلًا ٣٥٪ تقريبًا منها.

---

(١) إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، دار الآداب، بيروت، ٢٠١٤، ص٨٠.

وبحلول ١٨٧٨م ارتفع نصيبها إلىٰ ٦٧٪، وهي نسبة ازدياد سنوية تربو علىٰ ٨٣ ألف ميل مربع في السنة.

ومع حلول ١٩١٤م كانت النسبة المئوية للازدياد قد بلغت حدًّا مذهلًا: ٢٤٠ ألف ميل مربع، وقبضت أوروبا علىٰ حوالي ٨٥٪ من الكرة الأرضية كمستعمرات ومحميات وأقطار خاضعة وكومنولثات[١].

علىٰ الصعيد الأمريكي، ربما يحتاج الأمر إلىٰ مزيد من التفصيل حول الفلسفة الاستعمارية الأمريكية التي تستند إلىٰ مفهوم «بيان المصير» أو «القدر الظاهر»، وجذورها الأيديولوجية.

هذه المصطلحات كلها: بيان المصير -القدر الظاهر -القدر المحتوم، ذات دلالة متشابهة.

أول من استخدم عبارة «بيان المصير» هو الصحفي والسياسي الأمريكي «جون لويس أوسولفان»، حيث نشرها في مقال عام ١٨٤٥م في مجلة «المراجعة الديمقراطية» يدعو فيه إلىٰ ضرورة أن تسعىٰ الولايات المتحدة إلىٰ ضم «تكساس» إلىٰ أراضيها، وقال: إن الولايات المتحدة لديها «انتداب قدسي» للتوسع في كل أنحاء قارة أمريكا الشمالية، والعمل علىٰ نشر النموذج الديمقراطي للحكم والثقافة الأمريكية في سائر ربوع القارة إن لم يكن في كل أنحاء العالم في مرحلة ما، وقال: «إن قدرنا الظاهر لننتشر في القارة قد حدده الله»[٢].

---

(١) المرجع السابق ص٧٨.

(٢) د. علي خوير مطرود، بيان المصير وسياسة التوسع الإقليمي الأمريكي (١٨٤٥-١٨٩٢م)، مجلة كلية التربية، جامعة واسط، العراق، العدد العاشر ص٢٤٧.

وفي مقال لاحق، استخدم «أوسولفان» المصطلح ذاته للمطالبة بضم أراضٍ جديدة، فقال: «إن الولايات المتحدة تمتلك الحق في كل أراضي أوريجون، وأن ذلك الادعاء وفق حق بيان المصير في الانتشار وتملك كل القارة، الذي منحنا الله إياها لتطوير تجربتنا العظيمة في الحرية وفي الحكم الذاتي وائتمننا عليها».

وهكذا تحولت عبارة «بيان المصير» أو «القدر الظاهر» إلىٰ أيديولوجية تغلغلت في الثقافة والوجدان الأمريكي في مختلف فئات وطبقات المجتمع، ويصفها المؤرخ «إرنست لي توفسن» بأنها «الجسد المنظم للمفاهيم والاعتقادات التي تنشئ الحياة والثقافة الأمريكية».

يشرح المؤرخ «بيشوي شاكير» مصطلح «بيان المصير» من خلال عرض الأسس التي يستند إليها، وهي:

١. تميز الشعب الأمريكي ومؤسساته.

٢. مهمة نشر هذه المؤسسات بما يقود إلىٰ إعادة صنع العالم في صورة الولايات المتحدة الأمريكية.

٣. أن هذا العمل إنجاز للقدر وتحت مشيئة الله[١].

كان لهذا المفهوم -بيان المصير- تطبيقات عديدة في السياسة الخارجية الأمريكية، القائمة علىٰ التوسع المستمر في السيطرة وفرض النفوذ والحماية إقليميًا ثم دوليًا.

---

(١) المرجع السابق ص٢٤٩.

منها، ما يعرف بـ«مبدأ مونرو»، حيث بعث الرئيس الأمريكي جيمس مونرو عام ١٨٢٣م رسالة إلىٰ الكونجرس تضمنت ما أصبح يُعرف بـ«مبدأ مونرو» الذي حذر أوروبا من خلاله أن تبتعد عن النصف الغربي من الكرة الأرضية -أي القارتين الأمريكيتين الشمالية والجنوبية- أي أن أمريكا لن تسمح لأوروبا بإقامة مستعمرات جديدة، أو توسيع حدود المستعمرات القائمة. وهو ما جعل أمريكا بمنزلة الحامي لهذا «النصف» وسمح لها أن تتدخل في الشؤون الخاصة ببلدانه.

ثم جاء الرئيس تيودور روزفلت ليرسخ هذا المبدأ من خلال السماح بالتدخل المباشر في دول أمريكا اللاتينية بحجة منع تدخلات الدول الأوروبية، فاتبع سياسة «العصا الغليظة» التي تابعه فيها أسلافه من الرؤساء، فأرسلوا الجيش الأمريكي إلىٰ الدومينيكان عام ١٩٠٥م، ونيكاراغوا ١٩١٢م، وهاييتي ١٩١٥م.

هذا النهج التوسعي الذي لا يعترف بأي سيادة غير السيادة الأمريكية، دفع عضو الكونجرس «روبرت وينثروب -١٨٤٦م» المعارض لمبدأ بيان المصير، إلىٰ السخرية من تداعياته علىٰ الساحة العالمية، إذ قال: «أنا أفترض أن حق قدرنا الظاهر في التوسع لن يعترف بوجود أي أمة، ما عدا أمة أمريكية عالمية»[(١)].

رغم أن المصطلح لم يعد يستخدم في الخطاب الأمريكي اليوم، لكن تأثيره ومعانيه لا تزال حاضرة بقوة في السياسة الخارجية للولايات المتحدة وفي زعمها أنها تحمل مهمة نشر الديمقراطية بنموذجها الأمريكي في كل أنحاء العالم.

علىٰ صعيد آخر، وفي سياق بقاء الأيديولوجيا كسبب رئيس للنزاعات والصراعات الدولية، فإن الاتحاد السوفيتي رغم أن سقوطه هو الذي أبرز مصطلح

---

(١) السابق ص١٥٣.

«نهاية الأيديولوجيا»، إلا أن الدولة التي قامت علىٰ أنقاضه -روسيا- لم تتخلَّ عن بناء «أيديولوجيا» جديدة، فقد صنع الرئيس الروسي «فلاديمير بوتين» «خلطته الأيديولوجية» الخاصة، حيث تبنىٰ نهجًا قوميًّا أرثوذكسيًّا، يدمج ما بين القومية والدين من أجل تأسيس مجتمع ما بعد الشيوعية وتنمية الشعور الوطني لقيادة الدولة لتحقيق أهداف محددة تتعلق بمكانتها بين الأمم.

في الصين، رغم تراجع مفاهيم ومبادئ وتطبيقات الفكر الشيوعي، إلا أن قيادة الحزب الشيوعي استعاضت عن ذلك بالترويج للقومية الصينية والانتشار عبر العالم من خلال الاقتصاد مع تنمية قوتها العسكرية لمنافسة الولايات المتحدة، وتقدمها في مجالات كانت مقصورة علىٰ دول محددة، مثل إطلاق مركبات للفضاء، أو الصعود إلىٰ القمر.

الخلاصة أن الادعاء بنهاية الأيديولوجيات وتراجع تأثيرها في الصراعات الدولية، وتبني مفهوم «العقل المنفتح» الذي يقتبس من كل بستان زهرة، ادعاء ينقضه الواقع، والغرب نفسه.

كثير من مفكري الغرب روجوا لمفاهيم الانفتاح والتعددية، بوصفها الاتجاه المستقبلي للإنسانية. وكتب «كارل بوبر» -فيلسوف نمساوي إنجليزي ١٩٠٢، ١٩٩٤م- قبل عقود كتابًا بعنوان «المجتمع المفتوح وأعداؤه»، تحدث فيه عما سمَّاه «الهندسة الجزئية Engineering Piecemeal»، أي اتخاذ مواقف جزئية لا تستند إلىٰ نظرية أو فلسفة عامة في الحياة، بل تناسب الظروف الواقعية السائدة في مكان معين ووقت معين.

في المقابل، فإن هذا الانفتاح بحد ذاته كان موضع نقد من مفكرين غربيين آخرين، وقد أسلفنا موقف «هنتنجتون» وتحذيره من هذه التعددية، ويذكر

الفيلسوف البريطاني المعروف «برتراند راسل» أن «العقل المنفتح على الدوام هو أيضًا عقل فارغ على الدوام»(١).

الأغلب أن تاريخ الإنسان الفكري والسياسي يدور في دوائر، وتتلقفه أنماط متكررة ليس بإمكانه تجاوزها، فهو ينغمس في طور فكري جديد لأنه سئم القديم وبلغ منه غايته، أو قاعه، حيث تتراكم الأخطاء والسلبيات وتتلاشى الأحلام والوعود البراقة، فيكون إقباله على الجديد سأمًا من قديمه أكثر منه قناعة بجديده، إذ ما يلبث الحراك الإنساني أن يستهلك -ويستنزف- الطور الجديد حتى يبلى وصولًا إلى التراكم السلبي عند القاع، من ثم يدور بحثًا عن جديد، هو بحد ذاته قديم.

بعبارة مختصرة، يمكن القول إن الإنسان قد دخل منذ عقود مرحلة «الفكر السياسي المستعمل»، فليس ثمة جديد في الأفق.

وهذا المعنى هو ما أشار إليه صمويل هنتنجتون عندما قال في صدام الحضارات: «الناس يكتشفون هويات جديدة، ولكنهم في أحوال كثيرة يكتشفون هويات قديمة.. ويسيرون تحت أعلام جديدة، ولكنهم في أحوال كثيرة يسيرون تحت أعلام قديمة تؤدي إلى حروب مع أعداء جدد، ولكن في أحوال كثيرة مع أعداء قدامى».

---

(١) هل انتهى عصر الأيديولوجيات؟ د. جلال أمين، صحيفة البيان، ٧/ ١١/ ٢٠١٧م.

الفصل الثالث

«لدينا سمكات أكبر لِنَقْلِيَها»

المصلحة والقوة

«المصلحة القومية»، أحد المداخل المهمة المستخدمة في تفسير الصراعات الدولية[1]:

يَفترِض هذا المدخل أن المحرك الرئيس لسياسات الدول الخارجية هو حماية وتنمية المصالح القومية، من ثم فإن التحدي الأكبر الذي يواجه الدول وهي تنفذ سياساتها الخارجية هو: كيف تحقق الدرجة القصوىٰ من الحماية لمصالحها القومية، حاضرًا ومستقبلًا؟

يقول دعاة هذا المدخل إن السبيل المضمون إلىٰ ذلك هو مضاعفة الدولة لمواردها من القوة، وهذا ما يعرفه «هانز مورجنثاو -١٩٠٤-١٩٨٠م» أحد أبرز علماء السياسة في القرن العشرين، بأنه المصلحة التي تصبح مرادفًا وقرينًا للقوة، أي أن تنمية وحماية المصلحة القومية، تعني تنمية وحماية القوة القومية للدولة.

وهي مفاهيم مقتبسة من فلسفة «هوبز» و«نيتشه»، التي قامت علىٰ أن الدافع الغريزي الذي يحرك الإنسان دومًا هو الصراع علىٰ القوة من أجل البقاء ومقابلة التحدي وإثبات الذات.

التطبيق الغربي لمفاهيم القوة والسيطرة المقترنة بتحقيق المصلحة القومية، أنتج كمًّا هائلًا من الصراعات والحروب ونتج عنه موت ملايين البشر علىٰ مدىٰ أربعة قرون متتالية.

---

(١) العلاقات السياسية الدولية، مرجع سابق ص٢٢٩.

الاستعمار نموذجًا:

منذ عصر النهضة ثم الكشوفات الجغرافية في منتصف القرن الخامس عشر، كانت المصلحة القومية للدول الغربية لا تتم إلا بالوصول إلىٰ الجانب الآخر من الكرة الأرضية، طلبًا للسلع والبضائع والمنتجات وبحثًا عن موارد جديدة، ثم بعد القفزة الهائلة في القدرات الإنتاجية التي أحدثتها الثورة الصناعية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وجدت الدول الغربية نفسها أمام مأزقين، الأول: الحاجة الشديدة الزائدة إلىٰ توفير المواد الخام اللازمة للصناعة. الثاني: الحاجة إلىٰ فتح أسواق جديدة لتوزيع المنتجات الفائضة.

فكان الجندي البريطاني يقتحم علىٰ الفلاح الهندي كوخه البائس ويتحكم في أرضه وزراعته علىٰ بعد ثمانية آلاف كم من لندن، لأن المصلحة القومية لإمبراطورية صاحبة الجلالة تقتضي ذلك.

في ثمانينيات القرن الثامن عشر، قرر «وليام جلادستون» رئيس وزراء بريطانيا احتلال مصر، وكان السبب هو «حماية أمن الإمبراطورية البريطانية، وبالذات حماية الطريق إلىٰ الهند، فطالما ترىٰ بريطانيا أن لها مصالح في الهند تتطلب استنزاف ثرواته، فإن المصلحة القومية البريطانية تقتضي حماية الطريق بين بريطانيا والهند، حتىٰ لو تطلب ذلك احتلال كل الدول الواقعة علىٰ الطريق، فقط لأن ذلك من مقتضيات تحقيق المصلحة القومية.

الترجمة المباشرة لذلك كان توسع الحملات الاستعمارية علىٰ أشدها، وبعد الحرب العالمية الثانية، بدأت تلك الحملات تتخذ صورًا وأنماطًا جديدة، لا ترتبط بالضرورة بالاحتلال المباشر الدائم للأرض، إذ مع التطور التكنولوجي

والصناعي في كل المجالات، ومنها العسكرية، أصبحت كلفة الاحتلال المباشر مرتفعة للغاية، فكان لا بد من البحث عن طرائق جديدة لاستنزاف الثروات.

بصفة عامة تنقسم وسائل السيطرة الاستعمارية - الإمبريالية - إلى ٣ مجموعات أساسية، هي[١]:

أ - الوسائل العسكرية:

وهي الأكثر شيوعًا عبر التاريخ، حيث تتقدم الجيوش لاحتلال أراضي الدول المستهدفة، والسيطرة عليها وإدارتها وحكمها بصورة مباشرة ومستمرة، ولا تكتمل هذه السيطرة في بعض الأحيان علىٰ النحو الذي كانت تأمله الدولة الغازية، فبعض الدول تنجح في السيطرة وإقامة حكم مستقر لعقود أو قرون متتالية، كما هو حال الإمبراطورية الرومانية، وبعضها يتقهقر بسبب تمددها خارج نطاق القدرة، مثل نابليون في أوروبا، والإسكندر الأكبر في آسيا، وبعضها ينقلب الوضع عليه فيقع هو تحت سيطرة من قام بغزوهم، كما حدث مع «هتلر» والنازية في الحرب العالمية الثانية.

ب - الوسائل الاقتصادية:

لا تصل فيها السيطرة كما يحدث في الوسائل العسكرية، لكنها تحقق أحيانًا نتائج أبعد وأعمق أثرًا، من خلال إحداث تبدلات في موازين القوة دون تحمل تكاليف باهظة أو مخاطرة زائدة أو إحداث استفزازات للمجتمعات والشعوب.

من أبرز الأمثلة ما تفعله الولايات المتحدة في علاقاتها مع دول أمريكا اللاتينية، حيث تخضع للسيطرة الاقتصادية الأمريكية بدرجة كبيرة، لدرجة وصفها بـ«الحدائق الخلفية» لأمريكا.

---

(١) العلاقات السياسية الدولية، مرجع سابق ص٥٦٥ - ٥٦٦ بتصرف.

ج - الوسائل الثقافية:

تصنف علىٰ أنها أكثر الوسائل مكرًا، لكونها لا تستهدف السيطرة المادية، بل العقلية والثقافية، ومن ثم تحويل هذه السيطرة إلىٰ أداة لتبديل موازين القوة لصالح الدولة الاستعمارية، ونتائجها تتسم بالاستقرار والثبات مقارنة بالوسائل الأخرىٰ.

بعض الدراسات تعدُّ هذا النمط من الوسائل الاستعمارية مساعدًا وليس مستقلًّا، فهو يدعم الوسائل العسكرية أو الاقتصادية، ولا يمكن أن ينفرد بتحقيق النتائج المرجوة من الاستعمار، فهو يعمل مقدمة للغزو أو مثبطًا للمقاومة أو مضادًّا للنهضة.

كانت فرنسا من أكثر الدول الاستعمارية التي تعتمد الوسائل الثقافية في حملاتها، خاصة في إفريقيا، بدءًا من إطلاق اسم «رسالة التمدين» علىٰ تلك الحملات، لذلك نجد كثيرًا من الدول التي احتلتها فرنسا سابقًا، لا تزال تتكلم بالفرنسية كلغة أساسية.

في المقابل فإن بريطانيا لم تستطِع تحقيق القدر نفسه من النجاح في الوسائل الثقافية، ففي الهند مثلًا لم تؤثر الثقافة البريطانية في المجتمع، كذلك في بعض الدول العربية مثل مصر، رغم محاولات عزل الدين عن الحياة من خلال تغريب مناهج التعليم.

تضارب المصالح القومية:

لو أخذنا الاستعمار كنموذج لتضارب المصالح القومية حتىٰ بين الدول المتماثلة حضاريًّا، سنجد أنه في كثير من الحالات وقع تضارب وتصارع بين الدول الغربية الاستعمارية علىٰ تقسيم مناطق النفوذ والسيطرة.

علىٰ الرغم من تشابه منطلقاتهم الفكرية والأيديولوجية والسياسية خاصة فيما يتعلق باستهداف دول العالم الإسلامي، فإن المصالح القومية للدول لا يمكن أن تتطابق فيما بينها.

توافقت الدول الاستعمارية علىٰ أربع سياسات لتجاوز هذه المشكلة، وفض الاشتباك بين مصالحها القومية في الدول الخاضعة.

ونستعرض هذه السياسات فيما يأتي:

١ - سياسة اقتسام الغنائم:

وقعت اختلافات كثيرة بين الدول الاستعمارية علىٰ اقتسام الأراضي والمناطق الخاضعة لهم، فكانت تعقد اتفاقات للتقسيم بينهم بحسب موازين القوة أو الأمر الواقع.

من أمثلة ذلك:

- الاتفاق بين ألمانيا وبريطانيا علىٰ إعادة تقسيم شرق إفريقيا بينهما، والذي كان خاضعًا قبل ذلك للبرتغاليين.

- في عام ١٩٠٤م وافقت فرنسا علىٰ التسليم بالنفوذ البريطاني في مصر، مقابل قبول بريطانيا بالنفوذ الفرنسي في المغرب.

- في الفترة نفسها أعلنت إيطاليا عن قبولها بالنفوذ الفرنسي في المغرب، مقابل تسليم فرنسا بالنفوذ الإيطالي في ليبيا.

- عام ١٩٠٧م وقعت بريطانيا وروسيا اتفاقية لتقسيم إيران بينهما.

٢ - سياسة إنشاء الدول الفاصلة:

تهدف هذه السياسة إلىٰ تجنب الصدام بين قوتين استعماريتين من خلال دولة فاصلة تكون خاضعة لإحداهما أو لكلتيهما، في حين يمتد نفوذ القوتين

خارج نطاق هذه الدولة الفاصلة، بحيث لا تتمكن إحداهما من التوسع علىٰ حساب القوة الأخرىٰ.

بالطبع كان ذلك يتم بمعزل عن الشعوب أو حتىٰ مجرد استطلاع رأيها، بل كان يتم بالقهر والتدمير.

من أمثلة الدول الفاصلة، أفغانستان في القرن التاسع عشر:

خاضت بريطانيا حروبًا متتالية ضد أفغانستان طيلة القرن التاسع عشر، حتىٰ استطاعت السيطرة علىٰ أراضيها بشق الأنفس بعد مقاومة صلبة من الشعب الأفغاني قُتِل فيها آلاف الجنود البريطانيين، كان هدف الإنجليز هو تحويل أفغانستان إلىٰ عازل بينها وبين روسيا، حفاظًا علىٰ «الهند» التي كانت تعرف بـأنها «درة التاج البريطاني».

في سياق إقامة هذه الدولة «الفاصلة» أرسلت بريطانيا «هنري مورتيمر دوراند» -الذي كان يشغل منصب سكرتير الشؤون الخارجية للحكومة البريطانية في الهند- في نوفمبر ١٨٩٣م، إلىٰ أفغانستان، ليعيد ترسيم الحدود وفق ما سمي لاحقًا بـ«خط دوراند»، الذي اقتطع ما يقرب من ثلث الأراضي الأفغانية وضمها إلىٰ الهند، فانقسمت قبائل «البشتون» الأفغانية بين الدولتين، وعندما تأسست باكستان لاحقًا عام ١٩٤٧م ضُمَّت إليها تلك المنطقة التي تشمل إقليمي: بلوشستان، وباشتونستان[1]، ولا تزال تلك الحدود التي تمتد لنحو ١٥٠٠ ميل مصدر أزمة كبيرة عالقة بين البلدين.

---

(١) د. عبد القادر دندن، الأدوار الإقليمية للقوى الصاعدة في العلاقات الدولية، مركز الكتاب الأكاديمي، عمان، ٢٠١٥م ص١١٤-١١٥.

٣ – سياسة المشاركة في السلطة والامتيازات:

في بعض الحالات كانت الخلافات بين القوىٰ الاستعمارية تُسوَّىٰ عن طريق اتفاقات لتقاسم النفوذ أو الامتيازات أو مشاركتها في منطقة محددة، ويطلق علىٰ هذه الاتفاقات اسم «السيادة المشتركة Condominium».

توجد أمثلة كثيرة لهذه السياسة[1]:

منها: الاتفاقية التي وُقِّعت بين أمريكا وبريطانيا وألمانيا لتسوية المنازعات في منطقة الباسيفيكي.

ومنها: سعت بريطانيا في مفاوضات مع إسبانيا لتقاسم جبل طارق في إطار السيادة المشتركة، لكن السكان رفضوا في استفتاء ٢٠٠٢م.

ومنها: في المفاوضات بين بريطانيا والصين بخصوص «هونج كونج» حاولت لندن أن تبقىٰ الجزيرة خاضعة للسيادة المشتركة، لكن الصين رفضت.

ومنها: ولاية أوريجون الأمريكية، كانت تحت السيادة المشتركة بين بريطانيا والولايات المتحدة من ١٨١٨م-١٨٤٦م.

ومنها: كانت كرواتيا في أثناء الحرب العالمية الثانية، تحت السيادة المشتركة بين ألمانيا وإيطاليا.

٤ – سياسة الباب المفتوح:

من السياسات التي سادت في القرن التاسع عشر بين القوىٰ الاستعمارية، وكانت تتعلق بالصين، وهي عبارة عن مجموعة أسس ومبادئ أرستها الحكومة

---

(1) http://en.wikipedia.org/wiki/Condominium_(international_law).

الأمريكية لتنظيم علاقة القوىٰ الاستعمارية مع الصين، للحصول علىٰ الامتيازات البحرية والصناعية والسياسية، تخوفًا من أن استئثار كل دولة بمنطقة نفوذ داخل الصين، سيعطل المصالح الأمريكية، فكانت السياسة التي اعتمدت تنص علىٰ حق كل الدول المعنية بالتجارة مع الصين، وهي: أمريكا، وبريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، وإيطاليا، واليابان، وروسيا».

نصت علىٰ هذه السياسة كل الاتفاقيات والمعاهدات التي عُقِدت سواء في حرب الأفيون (١٨٣٩-١٨٤٢م).

عام ١٨٩٩م اندلعت في الصين ثورة شعبية رفعت شعار «قبضة اليد» وقامت بها جمعية مقاومة سرية اسمها «القبضات المتآلفة»، لذلك سميت «ثورة البوكسر-الملاكمين»، كانت ثورة ضد النفوذ الغربي والياباني المتعاظم في بلادهم، لكن القوىٰ الاستعمارية تناست خلافاتها وشكلت تحالفًا عسكريًا ضمت إليه النمسا لتصبح ثماني دول، نجحت جيوش الاستعماريين في إجهاض الثورة واحتلال بكين في أغسطس عام ١٩٠٠، حيث وُقِّع «بروتوكول الملاكمين» الذي يعاقب بعض مسؤولي الحركة بالقتل، كما يحظر انضمام الصينيين إلىٰ أي جمعيات مناهضة للأجانب، إضافة إلىٰ دفع تعويضات هائلة للدول الاستعمارية مقابل تكاليف قمع الثورة، ومُنِحت بعض الدول حق تمركز قوات تابعة لها في بكين لحماية بعثاتها، ومنعت الصين من استيراد أي أسلحة لمدة عامين[١].

ظلت سياسة الباب المفتوح هي حجر الأساس في السياسة الخارجية الأمريكية تجاه الصين لأكثر من ٤٠ عامًا. وقد أنهىٰ اعتراف هذه القوىٰ الاستعمارية بدولة الصين في القرن العشرين هذه السياسة.

(1) http://www.sasapost.com/boxer-rebellion-peasants-fighted-foreigners-in-china/.

وقد طبقت سياسة الباب المفتوح في مناطق عديدة في إفريقيا بعد مؤتمر برلين ١٨٨٤م-١٨٨٥م، وكذلك في الفلبين ١٨٩٩م[1].

النموذج الفيتنامي:

يقدم نموذج «فيتنام» مثالًا إضافيًّا واضحًا لما يحدث لدولة ضعيفة أو متوسطة القوة، إذا وقعت في دوامة من المصالح القومية المتضاربة لعدد من الدول الكبرىٰ، إذ تتحول الدولة التي تقع في أتون هذا التضارب، إلىٰ ساحة للصراعات والحروب التي تستنزف إمكاناتها لسنوات طويلة.

في البداية استقبلت فيتنام المنصرين الكاثوليك القادمين من فرنسا في القرن السابع عشر، لكن بعد تنامي الشك والريبة في نواياهم الحقيقية، انطلقت حملات ملاحقة وتصفية لهم في أرجاء البلاد حتىٰ منتصف القرن التاسع عشر.

تحولت أزمة المنصرين -كالمعتاد- إلىٰ «مسمار جحا» لبداية حقبة استعمارية، حيث تدخلت فرنسا عسكريًّا في مناطق متفرقة من الأراضي الفيتنامية بحجة حماية منصريها، وهذا طبعًا من متطلبات الأمن القومي «الفرنسي»!

توسعت الحملات الفرنسية حتىٰ وقعت فيتنام كلها تحت الاحتلال قبل نهاية القرن التاسع عشر، وظلت كذلك حتىٰ الحرب العالمية الثانية عندما أدت الضغوط اليابانية المتواصلة إلىٰ انسحاب الفرنسيين، لتخضع فيتنام لـ«المصلحة القومية اليابانية».

بعد انتهاء الحرب وهزيمة اليابان، عادت فيتنام مرة أخرىٰ لتدور في فلك «المصلحة القومية الفرنسية»، لكن هذه المرة اندلعت حرب مقاومة شرسة ضد

---

(١) ناظم عبد الواحد الجاسور، موسوعة علم السياسة، دار مجدلاوي، عمان ٢٠٠٩م، ص٩٦.

الاحتلال الأجنبي، وأدت المنافسة بين عدة دول للسيطرة علىٰ فيتنام إلىٰ انقسامها إلىٰ دولتين مع نهاية عام ١٩٤٩م: جمهورية فيتنام الديمقراطية في الشمال تابعة للمعسكر الشيوعي، ودولة فيتنام في الجنوب تابعة للمعسكر الغربي.

استمرت الحرب حتىٰ عام ١٩٥٤م، حيث أقرت فرنسا بالهزيمة وانسحبت تمامًا من فيتنام، لكن التوتر بين الشمال الشيوعي والجنوب التابع للغرب ظلَّ مستمرًّا حتىٰ عام ١٩٦١م، حيث تفجرت الحرب الأهلية من جديد. ليبدأ التدخل العسكري الأمريكي في عهد الرئيس «جون كينيدي» متدرجًا.

في بادئ الأمر، أرسلت واشنطن مستشارين عسكريين، ثم حوالي ٤٠٠ جندي، وفي عام ١٩٦٢م وصل ١١ ألف جندي أمريكي إلىٰ فيتنام.

مع التفاقم المستمر للأزمة علىٰ خلفية الصراع بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة، زاد التورط الأمريكي في الحرب ليصل عدد الجنود في عهد الرئيس «ليندون جونسون» إلىٰ ٥٥٠ ألف جندي أمريكي، قدموا إلىٰ فيتنام -من مسافة ١٤ ألف كم تقريبًا- لحماية «الأمن القومي الأمريكي».

عجزت القوة العسكرية الأمريكية عن تحقيق انتصار في الحرب رغم استخدام قوة تدميرية هائلة، ثم اضطرت إلىٰ سحب تدريجي لقواتها عام ١٩٦٩م، حتىٰ غادر آخر جندي أمريكي فيتنام عام ١٩٧٣م في عهد الرئيس «ريتشارد نيكسون».

كانت حصيلة السعي لتحقيق «المصلحة القومية الأمريكية»، حربًا مدمرة في فيتنام، هذه بعض أرقامها:

- مليونا قتيل فيتنامي.

- ٣ ملايين جريح فيتنامي.

- ١٢ مليون لاجئ فيتنامي.

- ٥٧ ألف قتيل من الجيش الأمريكي.

- ١٥٣ ألف جريح أمريكي[(١)].

أدوات القوة:

إذا كانت القوة تعرف عادة بأنها المقدرة علىٰ جعل الآخرين يستجيبون طواعية أو يذعنون قسرًا لما يراد منهم الإقدام عليه أو الامتناع عنه، فإن القوة في تصور هذا المدخل لا يمكن أن تقتصر علىٰ الأدوات العسكرية وحدها، إنما تشمل إلىٰ جانبها أنماطًا أخرىٰ من القدرة علىٰ التأثير السياسي الدولي، ومن ذلك مثلًا: القدرة علىٰ التأثير بقوة الضغط الاقتصادي، أو بوسائل الحرب النفسية والدعائية، أو بأسلوب التفاوض الدبلوماسي، إلخ. وعلىٰ ذلك فإن دعم قاعدة الدولة من موارد القوة بمختلف عناصرها ووسائلها، يشكل ضرورة قصوىٰ إذا ما كان لها أن تصل إلىٰ تحقيق الأهداف التي تخطط لها في المجتمع الدولي.

هنا ملاحظة مهمة، وهي ضرورة التمييز بين الكيفية التي تجري بها ممارسة القوة القومية من جانب، وبين استخدام العنف كأحد مظاهر هذه الممارسة من جانب آخر، وذلك لأن الخلط بينهما يؤدي إلىٰ إفساد التحليل السليم لطبيعة القوة القومية وأساليب استخدامها، وما الالتجاء إلىٰ العنف إلا واحد فقط من هذه الأساليب.

استخدام العنف ليس -بالضرورة- أنجح الأساليب في التعامل مع الأزمات أو النزاعات الدولية، وليس هو المعيار الوحيد الذي يؤشر للقوة القومية للدولة.

---

(١) الحرب الفيتنامية، الجزيرة، http://www.marefa.org/.

إذًا ما الذي يصنع القوة القومية للدولة؟

القوة القومية ذات أبعاد معقدة ومتشابكة، وبقدر التفاعل الذي يتم بينها تبرز هذه القوة في النهاية بشكل أو بآخر، فهذه القوة بطبيعتها ديناميكية، بمعنىٰ أن أي تغير في الأوزان النسبية للعناصر التي تكونها، لا بد وأن يتبعه تغيرات مشابهة في حجم هذه القوة وفاعليتها.

هنا تقع أخطاء شائعة عند تعرض البعض لتقويم قوة دولة ما، ومن هذه الأخطاء:

أن الدول ذات الرقعة الجغرافية الممتدة هي الدول القوية.

ومنها أن البعض يقيس القوة بمعيار حجم الدولة أو الكثافة السكانية للدولة أو بتراثها أو بتقدمها الصناعي أو بضخامة جيشها، إلخ. التركيز علىٰ أي من هذه العوامل منفردة لا يوضح القوة الحقيقية للدولة، فالبرازيل -مثلًا- تتفوق في مساحتها علىٰ الولايات المتحدة، ومع ذلك لم يقُل أحد إنها دولة قوية مقارنة بها. وباكستان ذات تعداد سكاني أكبر من ألمانيا، ولكنها أقل في القوة. وبلجيكا دولة متقدمة صناعيًّا ولكنها ليست قوية. وسويسرا تحتفظ بجيش قوي ومع ذلك فهي ليست دولة قوية إذا ما قورنت بدول عديدة.

بل ربما وجدنا دولًا تجمع بين عدد من هذه العوامل ومع ذلك ليست قوية، فالصين مثلًا في الأربعينيات كانت رقعتها الجغرافية هائلة، وعدد سكانها هو الأكبر في العالم، وجيشها ضخم جدًّا من حيث التعداد والتسلح، مع ذلك كانت الصين دولة ضعيفة حينذاك، ولم تكن لها سيطرة حتىٰ علىٰ شؤونها الداخلية، ونفوذها الدولي كان محدودًا.

لكن بعد سنوات قليلة تنامت قوة الصين بدرجة كبيرة رغم أن إمكاناتها وموارد‌ها البشرية والطبيعية لم تتغير من حيث الكم، لكن كيفية استخدامها هي التي تغيرت.

فمجرد امتلاك الإمكانات ليس ضمانًا في حدِّ ذاته للحصول علىٰ القوة، بل استعمال هذه الإمكانات بطريقة تؤثر في سلوك الدول الأخرىٰ هو الذي يحقق القوة ويبرزها.

وبذلك يمكن أن نعرف القوة القومية بأنها: «المقدرة علىٰ التأثير في سلوك الدول الأخرىٰ بالكيفية التي تخدم أغراض الدولة المتملكة لها، فقد تكون الدولة كبيرة أو غنية أو عظيمة ولكنها ليست قوية»(١).

توجد منهجيات وطرق مختلفة لقياس قوة الدولة، لكن بعيدًا عن التفاصيل الأكاديمية يمكن تلخيص أبرز العناصر التي تشكل القوة القومية للدولة فيما يأتي(٢):

١. القوة الجغرافية، وتشمل الموقع والتضاريس والمساحة والمناخ، إلخ.

٢. الموارد المادية والطبيعية المملوكة للدولة.

٣. السكان.

٤. مستوىٰ النمو الاقتصادي والتطور التكنولوجي والصناعي.

٥. القوة والفاعلية العسكرية.

٦. كفاءة المؤسسات السياسية، بما فيها الأجهزة الدبلوماسية والدعائية.

٧. القوة المعنوية للمجتمع.

---

(١) العلاقات السياسية الدولية، مرجع سابق ص١٦٤-١٦٥.

(٢) السابق ص١٧٣.

الأساليب التي تستخدم بها القوة القومية[1]:

لنفترض أن هناك دولتين: س، ص، بينهما نزاع علىٰ قضية معينة، هنا تلجأ الدولة «س» إلىٰ استخدام قوتها بطريقة معينة لتؤثر في سلوك الدولة «ص»، في المقابل فإن الدولة «ص» تحاول أن تتبنىٰ سلوكًا يلغي تأثير استخدام «س» لقوتها في النزاع.

هنا نجد لدينا ٤ أنماط من التصرفات والخيارات البديلة لكل طرف، وهي كالآتي من وجهة نظر الدولة «س»:

١- أن تحاول الدولة «س» إقناع الدولة «ص» بالأهداف التي تريدها في القضية محل النزاع.

٢- أن تحاول الدولة «س» تقديم إغراءات للدولة «ص» تجعلها تقبل هذه الأهداف.

٣- أن تقوم الدولة «س» بتهديد الدولة «ص» بفرض عقاب عليها إذا رفضت الاستجابة.

٤- أن تستخدم الدولة «س» القوة العسكرية لإرغام الدولة «ص» علىٰ التسليم بالمطالبة.

باختصار: الإقناع -الإغراء -التهديد والعقاب -القوة العسكرية.

كيف يمكن للدولة أن تختار من بين الأساليب السابقة حين تضطر إلىٰ استخدام قوتها القومية[2]:

---

(١) المرجع السابق ص٢٠٠ بتصرف.

(٢) المرجع السابق ص٢٠٣-٢٠٤ بتصرف.

الأصل أن اختيار الأسلوب الملائم يتحدد بحسب طبيعة العلاقة بين الدولتين، وهنا توجد خمس حالات:

الحالة الأولىٰ: أن يكون هناك اتفاق تام، وعليه لا مجال للعقاب أو التهديد أو القوة المسلحة ولا أي ضغوط أو إغراءات، لأن العلاقة توافقية والمواقف متشابهة، ومن ثم لا حاجة للدولة أن تستخدم قوتها القومية، مثل العلاقة بين أمريكا وبريطانيا علىٰ سبيل المثال، أو بين الدول الإسكندنافية.

الحالة الثانية: يكون عدم الاتفاق موجودًا، لكنه غير مؤثر، بسبب وجود مجالات أكثر للاتفاق عليها.

في هذه الحالة يكون أسلوب الاستمالة والإقناع والخطاب العاطفي هو الأنسب، لقوة الصداقة بين الدولتين.

ومثال ذلك: العلاقة بين فرنسا وبريطانيا، أو بين ألمانيا وبريطانيا، أو بين فرنسا والولايات المتحدة.

الحالة الثالثة: تزداد مساحة عدم الاتفاق، لكن الإطار العام للعلاقة يظل في حدود الصداقة.

وهنا يمكن استخدام أسلوب الإغراءات، سواء بالمساعدات أو المعونات الاقتصادية، أو الدعم العسكري، إلخ.

مثال ذلك: العلاقة بين إيران وروسيا، أو بين أمريكا والمكسيك.

الحالة الرابعة: يكون عدم الاتفاق هو الأصل، ولا يمكن وصف العلاقة بأنها «صداقة».

هنا يمكن استخدام أسلوب التهديد والتلويح بالعقاب، سواء كان سياسيًا أم اقتصاديًا، لأن أساليب الإقناع والإغراء لن تكون فعالة.

مثال: العلاقة بين أمريكا وروسيا، أو بين أمريكا والصين.

الحالة الخامسة: يتعاظم الخطر، وتصبح القوة العسكرية هي الوسيلة الأكثر تأثيرًا في حسم العلاقة والتأثير في سلوك الدولة المنافسة.

ويجدر التنبه إلىٰ أنه ليس لكل الدول القدرة علىٰ تطبيق هذه الأساليب في علاقاتها مع كل الدولة، فقد تكون دولة ما قادرة علىٰ تنفيذ كل الأساليب مع دول محددة، وقد تكون قادرة فقط علىٰ تطبيق أساليب محدودة في أي دولة، لذلك يحدث أحيانًا أن تضطر بعض الدول في التركيز علىٰ أساليب محددة، ليس لأنها الأكثر تأثيرًا، ولكن لأن قوته القومية لا تسمح لها بأكثر من ذلك.

المصلحة القومية عابرة للأنظمة والحكام والزمن:

المصلحة القومية هي الأساس الدائم الذي ترتفع فوقه السياسات الخارجية للدول مهما تغيرت أجهزتها القيادية الحاكمة أو اختلفت نماذج معتقداتها المذهبية.

الصراع علىٰ القوة -من حيث امتلاكها واستخدامها بالمعنىٰ السابق- هو الركيزة التي تستند إليها المصلحة القومية، وهذه حقيقة ثابتة تتجاوز المعتقدات الفردية والمذهبيات والأحزاب السياسية وأشخاص الحكام في الدول الرأسمالية والاشتراكية، إلخ.

لعل من الأمثلة الواضحة علىٰ ذلك، والمرتبطة بمنطقتنا العربية، هو الأطماع الإيرانية في البحرين، والتي ظلت مستمرة علىٰ مدار عقود طويلة بغض النظر عمن يحكم في طهران.

وسوف نخصص فصلًا كاملًا في هذا الكتاب لبيان تطور هذه الظاهرة واستمراريتها، كنموذج علىٰ ارتباط بعض الصراعات بأسباب عابرة للزمن.

هذا الثبات في صياغة المصلحة القومية، يظهر حتىٰ عند المقارنة بين دولتين متشابهتين في الفكر والعقيدة والثقافة، خاصة في أساليب التعامل مع الدول الضعيفة.

من أمثلة ذلك: التطابق الواضح بين سياسات الدول الغربية في طريقة تعاملها مع الدول العربية علىٰ صعيد الاستعمار أو الاحتلال، قديمًا وحديثًا.

فلو قارنَّا بين «أمريكا» و«بريطانيا» في احتلالهما العراق في فترتين زمنيتين مختلفتين، سنجد أنه يوجد تطابق شبه تام في الأساليب والوسائل المتبعة، رغم أن احتلال بريطانيا للعراق، كان قبل الاحتلال الأمريكي بنحو ٨٧ عامًا تقريبًا، حيث دخلت القوات البريطانية العراق عام ١٩١٦م، ثم احتلت بغداد عام ١٩١٧م، إلا أن الغزو الأمريكي للعراق عام ٢٠٠٣م اتبع الخطوات والأساليب نفسها، والمقارنة هنا ذات دلالة لكون أمريكا وبريطانيا متوافقتين بدرجة كبيرة في سياستهما وأساليبهما وثقافتهما السياسية.

ونستعرض من خلال هذا الجدول ملامح التوافق بين الاحتلالين:

م	الاحتلال البريطاني	الاحتلال الأمريكي
١	رفع شعار تحرير العراق، وخاطب «ستانلي مود» العراقيين قائلًا: إننا جئناكم محررين لا فاتحين.	عام ١٩٩٨م صدر قانون تحرير العراق، ثم كان الغزو نفسه تحت شعار التحرير.
٢	اعترض الاحتلال -وأيده الشيعة- محاولات الملك فيصل تأسيس جيش مستقل وفرض التجنيد الإجباري.	قام بريمر بحل الجيش العراقي مباشرة بصورة تامة، ولقي ذلك تأييدًا واسعًا من الشيعة.
٣	كلفت الحكومة السير «بيرسي كوكس» تشكيل حكومة وطنية عراقية ومجلس شورى وعقد مؤتمر وطني لجمع أطياف العراق.	كلفت الإدارة بول بريمر بتشكيل مجلس للحكم من الأطياف العراقية، ثم شكلت حكومة مؤقتة ثم برلمان منتخب.
٤	تعاون الاحتلال مع الشيعة وأبدى احترامه للمراجع وبخاصة «كاظم اليزدي» وشيخ الشريعة، وأرسل أحد قيادات ثورة العشرين «الشهرستاني» خطابًا إلى «كوكس» يلتزم بالطاعة، وحمَّل الحاكم السابق «ويلسون» مسؤولية اندلاع الثورة.	دخل كثير من قيادات الشيعة مع الدبابات الأمريكية، تعاون المراجع مع الاحتلال وبخاصة السيستاني والتزموا عدم المقاومة، بعد رحيل بريمر اتهمته قيادات شيعية بالتسبب في الأزمات الحادثة.
٥	التركيز على شيوخ العشائر الذين تعرض نفوذهم للانحسار، سعى الاحتلال إلى تنشئة طبقة حاكمة محلية ترتكز على العشائر، وكلفهم بمهام أمنية، بعد عام ١٩٤١م تعامل الاحتلال مع العشائر على أنها بديل للجيش.	سعى الاحتلال إلى التركيز على شيوخ العشائر -خاصة من السنة-، أسس مجالس الصحوة العشائرية لقيام بمهام أمنية، فازداد نفوذ الشيوخ ذوي الصلة بالاحتلال، وانتشرت المجالس في أغلب المناطق السنية بموازاة للجيش والشرطة.

٦	لجأ الاحتلال إلى تزوير الاستفتاءات والانتخابات، خاصة أول استفتاء بعد ثورة العشرين حول شكل النظام السياسي.	انتخابات السنوات الأولى يُعتقد بتزويرها، خاصة يناير ٢٠٠٥م والتي قال عنها ضابط أمريكي إنها زُوِّرت بنسبة ٥٠٠٪ خاصة في الموصل من قبل الأمريكيين تحديدًا.
٧	الاحتفاظ بقواعد عسكرية، مع وجود مستشار في كل وزارة.	أُسِست عدة قواعد. يوجد مستشارون أمريكيون في الوزارات.
٨	كان هناك ١٠ آلاف سجين، وكان التعذيب شائعًا.	عشرات الآلاف من السجناء، والتعذيب ممنهج.
٩	الصحافة خاضعة للرقابة.	في أثناء الحرب طبقت الإدارة نظام «الموافقة على النصوص»، وخضعت جميع المواد المتعلقة بها للرقابة في الولايات المتحدة.
١٠	أبعد الاحتلال الأفندية والضباط الشريفيين -نسبة إلى ارتباطهم بجيش الشريف حسين- فتحولوا إلى المعارضة والتمرد، ومارسوا الدعاية المضادة على المقاهي وأماكن التجمع، فلجأ البريطانيون إلى محاولة استيعابهم وتوظيفهم في الحكومة.	أبعد الاحتلالُ العسكريين والبعثيين، وقد شاركت أعداد منهم في المقاومة وأصبحوا مصدرًا للإزعاج، حاول الاحتلال استيعابهم من خلال قانون العدالة والمساءلة، وإعادة بعضهم إلى وظائفهم القديمة في الجيش والحكومة.
١١	عام ١٩٢٠م حذر رئيس الوزراء البريطاني «ديفيد لويد جورج» من أن انسحاب الجيش البريطاني سيؤدي لحرب أهلية.	أكد عديد من المسؤولين الأمريكيين أن انسحابهم المفاجئ سينتج عنه حرب أهلية.
١٢	استقر الاحتلال المباشر الشامل عام ١٩١٩م، بدأ الانتداب عام ١٩٢١م وأُقِر من خلال معاهدة ١٩٢٢م، ثم اعتُمِد عام ١٩٢٤م لمدة أربع سنوات.	اعتمد الاحتلال على قرار من الأمم المتحدة، أعيدت السيادة ظاهريًا في يونيو ٢٠٠٤م مع بقاء الاحتلال، تجديد بقاء الاحتلال سنوات متتالية، رَفَضَ بعض العراقيين الاتفاقية الأمنية طويلة المدى لأنها تمهد لفترة انتداب أمريكي على العراق.

يتبين من خلال دراسة الجدول السابق عدة نتائج:

١- هناك توافق عجيب بين الاحتلالين خاصة في مجال إعادة تشكيل النظام السياسي.

٢- التعامل مع العشائر متشابه في الحالتين.

٣- الاحترام المتبادل بين قادة الاحتلال ومراجع الشيعة في النجف.

٤- التشابه بين وضع العراق تحت «الانتداب» البريطاني، وبين توقيع اتفاقية أمنية بعيدة المدىٰ مع العراق كغطاء لإعادة انتشار القوات.

هل الأصل في العلاقات الدولية: الصراع أم التعاون؟

هذه قضية معقدة، البعض يفترض أن الصراع وليس التعاون هو الطابع المميز للعلاقات الدولية، وهؤلاء ينطلقون من الأمر الواقع، ومن كون العلاقات التقليدية أو الروتينية لا يمكن عدُّها معيارًا للحكم، وإنما السلوكيات الخلافية هي الأشد وضوحًا وتأثيرًا في مشهد العلاقات الدولية.

فأغلب دول العالم تربطهم علاقات دبلوماسية، ويوجد بينهم اتفاقات ومعاهدات وعلاقات متبادلة في مجالات عديدة، لكن هذا لا يمنع من وجود مساحة للصراع في العلاقات الثنائية بين أغلب الدول، بحيث يصعب افتراض وجود دولتين ليس بينهما درجة من درجات النزاع، بغض النظر عن حجمه أو حدته أو مظاهره.

مرد ذلك إلىٰ أن هدف البقاء هو محور المصلحة القومية والسياسة الخارجية لأي دولة، وهذا الهدف في تفصيلاته من السهل أن يتعارض مع «هدف بقاء» أي

دولة أخرىٰ مرتبطة أو مجاورة للدولة الأولىٰ.

الأصل أن الدول تستمد مقدرتها علىٰ البقاء من قوتها الذاتية، فإن كانت دولة ضعيفة أو لا تملك قوة كافية، أو تواجه خطرًا من دولة أقوىٰ منها، فإنها تطلب الحماية التي يتيحها لها الآخرون، فتنشأ منظمات واتحادات وتحالفات وائتلافات إقليمية ودولية لإتاحة هذه الحماية، سواء بصوة جماعية، أو للدول غير القادرة علىٰ حماية نفسها.

لكن في عالم السياسة لا توجد خدمة دون مقابل، ولا حماية دون ثمن.

فعندما تطلب الدولة «س» -مثلًا- الحماية من الدولة «ص» لأن قوتها غير كافٍ، فهي تفترض أنها تحقق مصلحتها القومية بهذه الطريقة. لكن الدولة «ص» لها مصلحة قومية خاصة بها، وتقديمها الحماية للدولة «س» من المنطقي أن يكون انطلاقًا من مصلحتها القومية، إذًا السؤال هو: هل تتطابق المصلحة القومية للدولتين «س» و«ص»، الدولة الحامية والطالبة للحماية؟

مستحيل طبعًا أن يحدث هذا التطابق، وإنما يكون هناك نوع من المقايضة، حيث تتنازل الدولة «س» عن جزء من مصلحتها من أجل الحصول علىٰ الحماية من الدولة «ص». لكن لا توجد معايير أو قواعد تضبط ذلك، لذا كثيرًا ما يحدث أن الدول الضعيفة التي تعتمد علىٰ غيرها من الدول الكبرىٰ في حمايتها، تنزلق تدريجيًّا لتصبح أداة طيعة لتلك الدول، فتنخرط في صراعات وربما حروب تتضاد غالبًا مع مصلحتها القومية، في حين هي في الأساس اختارت هذا الطريق لتحقيق المصلحة.

لذلك يحدث في حالات عديدة بعد مرور سنوات علىٰ هذا التعاقد الثنائي بين «س» و«ص»، أن نجد عند التأمل في وضع الدولة «س» حالة تنافر واضحة بين مصلحتها القومية وبين تصرفاتها علىٰ الساحتين الإقليمية والدولية.

نستعرض هنا بعض أمثلة للدول أو القوميات التي تطلب حماية من آخرين، وكيف يتطور الأمر معهم للتورط في صراعات تتعارض مع مصلحتهم القومية.

الأمثلة تتناول تأثير طلب الحماية علىٰ مستويات متعددة:

- مستوىٰ القوىٰ السياسية والقبائل والعشائر.
- مستوىٰ المنظمات وجماعات المقاومة.
- مستوىٰ القوميات والأعراق والطوائف.
- مستوىٰ الدول.

١ - مستوىٰ القوىٰ السياسية والقبائل والعشائر:

في مطلع القرن العشرين كان «الشريف حسين» يخطط لإنشاء دولة عربية كبرىٰ بمساعدة البريطانيين وفي حمايتهم، في مقابل ذلك تعهد بالثورة ضد العثمانيين، وانطلق يحشد القبائل ويخاطب الشعوب العربية وهو يمني نفسه بتأسيس دولته الموعودة علىٰ كامل الشرق العربي، إلا أن شيئًا من ذلك لم يحدث، فقد كان البريطانيون معروفين بإطلاق الوعود البراقة، واستنزاف حلفائهم -أو تابعيهم- ثم الإخلال بالوعود في نهاية الأمر، لأنه في السياسة لا أحد يدفع مقابل خدمة تم الحصول عليها بالفعل.

كانت المحصلة دخول «الشريف حسين» ومعه أعداد كبيرة من القبائل والعشائر والقوىٰ السياسية العربية، في صراعات ومعارك لا طائل من ورائها.

المراسلات بين الشريف حسين والمسؤولين البريطانيين حول هذه القضايا منشورة ضمن الوثائق البريطانية، والرجوع إليها متيسر، لكن ما يهمنا هو أن نتعرف

إلىٰ الكيفية التي ترىٰ بها بريطانيا مصلحتها القومية باستغلال وتوظيف «الشريف» وثورته العربية لتحقيق أهدافها، بغض النظر عن توافقها مع أهداف العرب.

يمكن التعرف إلىٰ خلاصة دقيقة لهذه الرؤية من خلال «تقدير موقف» أعده مدير الاستخبارات العسكرية البريطانية في مصر -فبراير ١٩١٦م- ولأهميته فقد بعثه السير «هنري مكماهون» المعتمد البريطاني في مصر مرفقًا في رسالة خاصة إلىٰ وزير الخارجية في لندن، السير «إدوارد جري».

كتب «مكماهون» يقول: «أتشرف بأن أرسل وأقدم لاطلاعكم مذكرة بعنوان «سياسات مكة» -يقصد في عهد الشريف حسين- قَدَّمها إلىٰ مديرُ الاستخبارات. إن المذكرة تبدو عرضًا واضحًا وبارعًا لوضع الشريف حسين والموقف الذي اتخذه في علاقاته مع الدول المختلفة في شبه الجزيرة العربية».

نعرض فيما يأتي مقتطفات من أهم ما ورد في تقرير مدير الاستخبارات، مما يتعلق بموضوع المصلحة القومية، وحجم التباين بين مصلحة بريطانيا والمصلحة القومية للعرب كما يراها «الشريف حسين» بوصفه رمزًا سياسيًّا مؤثرًا في ذلك الوقت.

يقول مدير الاستخبارات عن الشريف حسين: «إن نشاطه يبدو مفيدًا لنا، لأنه يتماشىٰ مع أهدافنا الآنية، وهي تفتيت الكتلة الإسلامية ودحر الإمبراطورية العثمانية وتمزيقها، ولأن الدولة التي سيؤسسها لتخلف الأتراك ستكون عديمة الضرر لنا، كما كانت تركيا قبل أن تصبح أداة بيد الألمان. إن العرب هم أقل استقرارًا من الأتراك، وإذا عولج أمرهم بصورة صحيحة فإنهم يبقون في حالة من الفسيفساء السياسية، مجموعة دويلات صغيرة يغار بعضها من بعض، غير قادرة علىٰ التماسك، ومع ذلك مستعدة دائمًا للتجمع ضد قوة خارجية. إن البديل لهذا

يبدو السيطرة والاستعمار من قبل دولة أوروبية غيرنا، ما سيصطدم حتمًا بمصالحنا الحالية في الشرق الأدنىٰ».

ثم يقول بعبارة محددة عن حجم التباين بين الرؤيتين: «من الواضح أن هدفه -أي الشريف حسين- من وراء هذا كله بطبيعة الحال أن يحل هو محل الحكومة التركية في الحجاز يومًا ما، وإذا تمكنا فقط أن ندبر جعل هذا التغيير السياسي عنيفًا -يقصد تصادميًّا مع القوىٰ العربية الأخرىٰ- فسنكون قد ألغينا خطر الإسلام، بجعله منقسمًا علىٰ نفسه، في داخله، والإسلام سيكون قليل الخطر»[1].

نذكر فقرتين إضافيتين من هذه المراسلات، لإعطاء فكرة للقارئ عن بعض أنواع الدعم التي كان يتلقاها «الشريف حسين»، وكيف كان يطلبها من المسؤول البريطاني، والفقرة الأخرىٰ عن الطريقة التي كان يُخاطب بها الشريف حسين.

في إحدىٰ رسائله إلىٰ «مكماهون» ذكر «الشريف حسين» ضمن طلباته ما يأتي: «بقي علينا ما نحتاج إليه والحالة هذه، هو:

أولًا: مبلغ خمسين ألف جنيه ذهبًا لمشاهرة القوات المجندة، مما ضرورته تغني عن بيانه. فالرجاء إحضارها بوجه السرعة الممكنة.

ثانيًا: إحضار عشرين ألف كيس أرز وخمسة عشر ألف دقيق وثلاثة آلاف شعير ومائة وخمسين كيس بن قهوة، ومثلها سكر ومقدار خمسة آلاف بندقية من الطراز الجديد، إلخ»[2].

---

(١) نجدة فتحي صفوة، الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، دار الساقي، بيروت ١٩٩٦م، ج٢ ص١١٩-١٢٠.

(٢) المرجع السابق ج٢ ص١٢١.

وفي خطاب أرسله «مكماهون» إلىٰ «الشريف حسين» بتاريخ مارس ١٩١٦م، قال في مقدمة الخطاب: «إلىٰ ساحة ذلك المقام الرفيع ذي الحسب الطاهر والنسب الفاخر، قبلة الإسلام والمسلمين، معدن الشرف وطيب المحتد، سلالة مهبط الوحي المحمدي الشريف ابن الشريف صاحب الدولة السيد الشريف حسين بن علي أمير مكة المعظم زاده الله رفعة وعلاء. آمين. بعد ما يليق بمقام الأمير الخطير من التجلة والاحتشام وتقديم خالص التحية والسلام وشرح عوامل الألفة وحسن التفاهم والمودة الممزوجة بالمحبة القلبية، ارفع إلىٰ دولة الأمير المعظم أننا تلقينا، إلخ»(١).

التأمل في هذه الديباجة المطولة الممتلئة بألفاظ التفخيم والتبجيل، تكشف عن دراسة معمقة من البريطانيين للذهنية والنفسية العربية، وتخيل أن الرجل الذي يكتب كل هذا الاحترام والتفخيم، هو نفسه الرجل الذي كان مكلفًا بالتلاعب بـ«الشريف حسين».

مثال آخر للتلاعب بالقوىٰ السياسية التي تطلب الحماية من دول كبرىٰ دون إدراك للعواقب:

في الربع الأول من القرن العشرين، تحديدًا في عام ١٩١٤م، كانت بريطانيا قد احتلت البصرة، وبدأت في التواصل مع بعض الرموز والتجمعات السياسية العربية -التي كانت تتحرك في سياق ثورة «الشريف حسين»- لتحفيزهم إلىٰ الثورة ضد والي العراق من قِبل الدولة العثمانية.

كانت رؤية هذه التجمعات السياسية أن طلب المساعدة من بريطانيا يصب في مصلحة أهدافهم القومية التحررية.

---

(١) المرجع السابق ج٢ ص١٢٩-١٣٠.

في المقابل كانت بريطانيا علىٰ استعداد للتجاوب معهم شكليًا، من أجل تحقيق مصلحتها القومية كما تراها هي..

في تقرير رسمي كتبه السياسي البريطاني المعروف وقتها «بيرسي كوكس» -الذي كان له دور كبير في رسم سياسات بلاده في المنطقة العربية- يتبين مستوىٰ التناقض بين الرؤيتين العربية والبريطانية، وكيف يتلاعب البريطانيون بمن يقدمون لهم دعمًا مزعومًا ووعودًا مستقبلية مغرية.

يقول «كوكس»: «قابلت نوري السعيد، بدا لي ضابطًا حالمًا له ميول اشتراكية، إنه شاب في حوالي الخامسة والعشرين سنة من العمر، وهو يعاني مرضًا في الصدر، وبدا لي أوروبيًا في مظهره، وقد حدثني عن المشروع العربي الذي يشارك فيه هو ورفاق له، أبرزهم عزيز المصري الذي تعرفونه من القاهرة، وقال إن هدفهم هو تحقيق أهداف الأمة العربية بصفة عامة، وأبدىٰ لي موافقته علىٰ قيامنا باحتلال البصرة إذا كان ذلك بداية لتشجيع عمل عربي يحقق تحرير العرب الذين يريدون أن يحتفظوا بعلاقات ودية معنا. وقال إنه يستطيع أن يساعد في سحب كل الضباط العرب الذين يخدمون في جيش جاويد باها -والي بغداد- كما أنه يستطيع مع عدد منهم أن يحصلوا علىٰ ولاء كثيرين من قادة القبائل في وادي الفرات للتعاون معهم، وإنه بالتنسيق بين الضباط وشيوخ القبائل فإن قيادة الثورة العربية سوف تستطيع أن تشد إليها أحلام الشعوب العربية الراغبة في الاستقلال.

من جانبي؛ فإنني أنظر إلىٰ هذه الأفكار والمشروعات بشك كبير، وأراها خيالية وغير عملية، ولست أعتقد أنه سيكون في استطاعة الضباط والشيوخ أن يتعاونوا معًا، إن تصورات الضباط العرب، بمن فيهم نوري السعيد، أن احتلالنا

للبصرة هو مقدمة لتحرير العرب جموحٌ إلىٰ خيال سقيم، فنحن نزلنا هناك لتأمين الهند، وهذا يتأتىٰ بضم العراق إلىٰ ممتلكات التاج البريطاني»[1].

حصيلة هذا التواصل كان تحول «نوري السعيد» إلىٰ رجل بريطانيا الأول في العراق، وظل كذلك طيلة توليه أكبر المناصب في السلطة، بدءًا من وزارة الدفاع وانتهاء برئاسة الحكومة.

٢- مستوىٰ المنظمات وجماعات المقاومة:

لا يختلف كثيرًا حال «منظمة التحرير الفلسطينية» -بوصفها حاملة لواء القضية الفلسطينية- فيكفي عند تحليل النزاعات السياسية أو العسكرية التي خاضتها علىٰ مدار تاريخها التوصل إلىٰ تساؤل مرير، وهو: ما علاقة كل ذلك بالمصلحة القومية للشعب الفلسطيني؟

من الأمثلة التي توضح مدىٰ الاضطراب في تصور المصلحة القومية، ذلك الصراع العسكري الذي اندلع بين القوات التابعة للمنظمة، وبين الجيش الأردني في سبتمبر ١٩٧٠م، والذي اصطلح علىٰ تسميته بـ«أيلول الأسود».

كان واضحًا أن الأزمة تتسع إلىٰ مستوىٰ صراع إقليمي، فسوريا تدعم المنظمة وبدأت في حشد قواتها علىٰ الحدود الأردنية، كما أن العراق كان جاهزًا للتدخل أيضًا، ومصر -عبد الناصر- كانت تدعم مجموعات المقاومة.

كشفت وثائق أمريكية نشرت عام ٢٠٠٩م تضمنت محاضر وجلسات ومحادثات هاتفية بين مسؤولين أمريكيين وإسرائيليين، أن الأردن في خضم هذا التصعيد طلب من واشنطن -عن طريق السفير الأمريكي- التدخل العسكري

---

(١) المفاوضات السرية، مرجع سابق ج١ ص٩١.

الفوري برًّا وجوًّا، كما طلب أن يتدخل سلاح الجو «الإسرائيلي» لمهاجمة المدرعات السورية التي اقتحمت الحدود الشمالية للأردن.

ملخص الحالة هنا هو: «طلب حماية» من دولة ضعيفة موجه إلىٰ: دولة قوية إقليميًّا، وأخرىٰ عظمىٰ.

من وجهة نظر الدولتين اللتين طُلِب منهما الحماية، كان الوضع كالآتي: أشارت المحاضر التاريخية إلىٰ أن الرئيس الأمريكي «ريتشارد نيكسون» وافق علىٰ تقديم الحماية العسكرية، وطلب أن تُصدِر «إسرائيل» بيانًا بالتزامن مع تدخلها لحماية الأردن تؤكد فيه خلوها من دوافع احتلال الأرض وضمها، ولكن لا مانع لدىٰ نيكسون من سيطرة إسرائيل علىٰ الأرض إن تغيرت الأوضاع في الأردن، وأكد «نيكسون» أن واشنطن ستقبل ذلك بتفهم[1].

الجدير بالذكر أن هذه الأحداث كانت بعد ٣ سنوات فقط من هزيمة ١٩٦٧م واستيلاء الكيان الصهيوني علىٰ أراضٍ عربية في ٣ دول.

الطريقة التي حُلت بها الأزمة تكشف عن جانب من طريقة التفكير العربية في ذلك الوقت، حيث تثور النزاعات بصورة حادة، ثم تتلاشىٰ.

فقد انشغل العرب بالأزمة لدرجة انعقاد مؤتمر قمة خاص لمناقشتها، الطريف في الأمر كان الطريقة التي جُلِب بها ياسر عرفات من الأردن إلىٰ القاهرة ليحضر المؤتمر.

كان «عرفات» يقود معركته من جبل عمان مع ميلشياته تحت حصار محكم من الجيش الأردني.

---

(١) هآرتس تكشف وثائق أيلول الأسود، الجزيرة، ١٩/ ٩/ ٢٠٠٩م.

أرسل مؤتمر القمة وفدًا إلىٰ عمان برئاسة الرئيس السوداني «جعفر نميري»، ليلتقي مع الأطراف المتصارعة، وفي هذا السياق ذهب الوفد لمقابلة «عرفات» بتصريح من «الملك حسين» لأجل تجاوز الحصار، وهناك ارتدىٰ «عرفات» عباءة أحد أعضاء الوفد الكويتي وعقاله، وخرج مع الوفد العربي دون أن يشعر أحد، وركب معهم الطائرة إلىٰ القاهرة، ثم انضم إليهم «الملك حسين» لاحقًا، وجرىٰ تهدئة الأزمة وتشكلت لجنة عليا لمتابعتها[1]. وتوقفت المعارك في يوليو ١٩٧١م.

٣- مستوىٰ القوميات والأعراق والطوائف:

نذكر مثالين من العراق: الأكراد والشيعة.

الأكراد من أبرز القوميات العابرة للدول التي أدمنت -تقريبًا- الوقوع في فخ الخداع السياسي الغربي، بصورة متكررة.

لم يتخلَّ الأكراد أبدًا عن حلمهم بإقامة دولة كردية في شمال العراق، أو دولة تجمع كل الأكراد، فقط كانوا يتدرجون وينتظرون الوقت المناسب. الثابت الوحيد بالنسبة لهم كان: تجنب إغضاب «الأخ الكبير» أي: الولايات المتحدة، حتىٰ وإن تأخر حلم الدولة.

إن استعداد الأحزاب الكردية للسير حذاء الحليف الغربي -الأمريكي- غير محدود، وهو أمر تاريخي، فعندما فر «مصطفىٰ البارزاني» -والد مسعود البارزاني- من السليمانية في شهر تموز/ يوليو ١٩٣٤م علىٰ إثر ثورته ضد الإنجليز، أعاد

(١) محمد حسنين هيكل، المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل، سلام الأوهام، أوسلو ما قبلها وما بعدها، ج٣، دار الشروق، القاهرة، الطبعة السابعة، نوفمبر ٢٠٠١م ص٢٤-٢٥.

حساباته، وأرسل إلىٰ السفير البريطاني السير «كيناهان كورنواليس» وعدًا لافتًا بإطاعته: «مهما تكن أوامرك»[1].

وعندما أمر الرئيس الأسبق «ريتشارد نيكسون» عام ١٩٧٣م الـ«سي آي إيه» أن تدفع لـ«البارزاني الأب» ١٦ مليون دولار علىٰ ثلاث سنوات دعمًا له ضد صدام، صرح «البارزاني» لصحيفة «واشنطن بوست» بعدها مباشرة أنه مستعد فور إعادة آبار النفط في كركوك إلىٰ «أصحابها الشرعيين»، أن يسلم الثروة النفطية إلىٰ الأمريكيين، وقال: «نحن مستعدون لفعل ما يتوافق والسياسة الأمريكية في هذه المنطقة إذا حمتنا أمريكا من الذئاب، وإذا كان الدعم قويًّا بما يكفي فباستطاعتنا السيطرة علىٰ حقول كركوك وإعطاؤها لشركة أمريكية لتشغلها»[2].

لكن الوزن النسبي للأكراد في السياسة الخارجية الأمريكية كان متفاوتًا بحسب الظرف السياسي، كما أنهم ورقة سياسية يمكن الحصول عليها بأثمان بخسة، لأنه ليس لديهم خيارات أخرىٰ، وهم لا يحاولون البحث عنها أساسًا حتىٰ لو وجدت، وعندما سُئل موظف أمريكي في أواسط تسعينيات القرن الماضي عن مأساة الأكراد أجاب قائلًا: «لدينا سمكات أكبر لنقليها، والأكراد ليسوا سمكة كبيرة جدًّا»[3].

فإقامة القواعد العسكرية -كمثال- هدف تقدم من أجله الدولة التي تريدها تنازلات للدولة التي ستقام القاعدة علىٰ أرضها. لكن الأكراد عكسوا المعادلة، فكانوا يلحون علىٰ ذلك ويقدمون هم التنازلات، وطالب جلال الطالباني واشنطن

(١) عراق المستقبل، مرجع سابق ص١٦١.
(٢) السابق ص١٦٤.
(٣) السابق ص١٥٣.

أن تقيم قاعدتين في شمال العراق، وبالفعل بدأ العمل فيهما، واحدة قرب أربيل والثانية قرب السليمانية(١).

بالنسبة للشيعة في العراق:

بعد حرب الخليج الثانية وتراجع «صدام حسين» مهزومًا من الكويت، تعرض النظام العراقي لاضطراب وتدهور كبير بسبب الحصار والقصف الشديد الذي تعرض له من جراء الحرب، شجع ذلك الشيعة في جنوب العراق علىٰ الثورة ضد حكم البعث، وكان من أهم أسباب ثورتهم تلقيهم تحفيزًا وتشجيعًا مباشرًا من واشنطن، والرئيس «جورج بوش» -الأب-.

انطلقت أحداث ما تصفه الأدبيات الشيعية بـ«الانتفاضة الشعبانية» عام ١٩٩١م، وكانوا يتخيلون دعمًا أمريكيًا مرتقبًا، لكن «بوش الأب» خذلهم وتركهم لجيش «صدام»، لأنه علىٰ ما يبدو كان لديه «سمكات أكبر ليقليها».

يقول أحد الثوار الشيعة وقتها لصحيفة «نيويورك تايمز» متحسرًا: «بوش قال إننا ينبغي أن نثور علىٰ صدام، وها نحن ثرنا علىٰ صدام، ولكن أين بوش؟ أين هو؟ فالكويت دمره صدام، والعراق دمرته قوات الحلفاء، ولكن صدامًا ما زال علىٰ كرسيه»(٢).

٤- مستوىٰ الدول:

تعاني الدول الصغيرة دومًا افتقارها إلىٰ حماية الدول الكبرىٰ، خاصة إذا كانت في إقليم معادٍ لها، يعج بالنزاعات والحروب.

---

(١) صحيفة الزمان ١٦/ ١٠/ ٢٠٠٦م.

(٢) إسحق نقاش، شيعة العراق، دار المدى، بيروت ص٥٠٦.

كان قادة الكيان الصهيوني يدركون جيدًا منذ تأسيسه أنه لا بد لهم من التواصل والتعاون مع الدول الكبرىٰ لضمان حمايتهم في حالة اندلاع حرب شاملة مع الدول العربية.

في مقدمة الدول الداعمة بالطبع، الولايات المتحدة، لكن هذه الحماية والرعاية الأمريكية لا بد لها من ثمن ومقابل، حتىٰ وإن بدا للعيان أن «إسرائيل» هي من تملك نفوذًا علىٰ واشنطن وليس العكس، لأنه في نهاية الأمر مقاييس القوة هي التي تحكم علىٰ الأرض.

في فترة الستينيات من القرن الماضي، كانت «إسرائيل» تسعىٰ بقوة لإقامة علاقات دبلوماسية قوية مع الصين، التي كانت مؤيدة للقضية العربية في ذلك الوقت، وتدعم منظمة التحرير بالسلاح والمال.

تروي «جولدا مائير» قبسًا من المحاولات «الإسرائيلية» للتواصل مع المسؤولين الصينيين في بعض المحافل الدبلوماسية، وكيف جاء الرد واضحًا من بكين، تقول: «لم أيأس، كان صديقي الاشتراكي الإيطالي بترونيني مدعوًّا لزيارة الصين، طلبت إليه أن يتحدث مع الصينيين عن إسرائيل، وقد فعل الرجل ذلك فعلًا؛ محاولًا شرح ماهية إسرائيل، لكن المسؤولين الصينيين كانوا لا يولون الأمر اهتمامًا. وبالطبع وصفونا بأننا دمية في يد الولايات المتحدة، بل قال له أحدهم: لو أن كل مجموعة من ثلاثة ملايين أنشأت لها دولة؛ فلك أن تتصور كيف سيكون العالم»[1].

---

(١) جولدا مائير، اعترافات جولدا مائير، مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٧٩م ص٢٥٢-٢٥٣.

القاعدة هنا: أنه لا مجال للدول الصغيرة التي تعيش في وسط إقليمي أو دولي مناوئ، سوىٰ أن تلجأ لطلب الحماية.

وهذا سيكون قطعًا علىٰ حساب مصلحتها القومية، وغالبًا سيكون عنصرًا لتحفيز النزاعات وليس لاحتوائها.

القيم، الثقة، الأخلاق vs المصلحة القومية:

عدم الثقة هو المناخ السائد في العلاقات الدولية، السبب في ذلك هو أنه ما دام ليس في مقدور أي دولة أن تسيطر علىٰ تصرفات الآخرين، فإنها تصبح غير متأكدة مما سيكون عليه سلوكهم إزاءها، وعليها باستمرار أن تتوقع الأسوأ، ولكي تستطيع أن تحمي مصلحتها القومية فإنها يجب أن تتنافس مع الآخرين، وأن تعمل علىٰ مقاومة أي تهديد يصدر من خصومها، وعليه فإنه كلما توافر للدولة رصيد كافٍ من إمكانات القوة أمكنها أن تحقق هذا الهدف بلا صعوبة(١).

وهكذا يمكن أن تصبح للدولة علىٰ صعيد علاقاتها الدولية ٣ مواقف فيما يتعلق بالقوة:

الحالة الأولىٰ: أن تسعىٰ لامتلاك مزيد من موارد القوة.

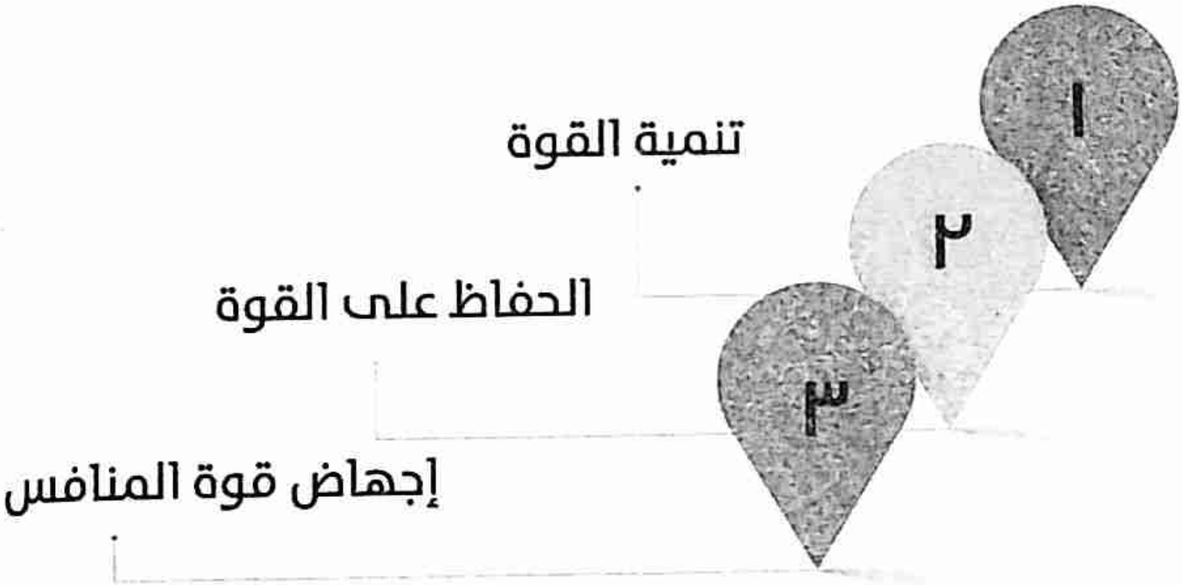
الحالة الثانية: أن تحافظ علىٰ ما لديها من موارد.

الحالة الثالثة: أن تقلص ما لدىٰ منافسيها من موارد القوة.

---

(١) العلاقات السياسية الدولية، مرجع سابق ص٢٣١.

الدولة والقوة



في ظل هذه الوضعية ينظر كثير من علماء السياسة إلىٰ المبادئ الأخلاقية علىٰ أنها لا قيمة لها إلا إذا استُغِلت ووُظِّفت دعائيًا، أو إذا ما توافقت مع القوة القومية ولم تمثل عبئًا عليها أو عائقًا في طريق تنميتها وتدعيمها[١].

وإذا اختفت الأخلاق، وخفتت القيم في العلاقات الدولية، فإن المناخ يصبح مواتيًا لتفجر صراعات جديدة وتفاقم صراعات قائمة، إذ يصبح من السهل علىٰ دولة ما لمجرد أنها تسعىٰ إلىٰ تحصيل بعض المكاسب، أن تشعل صراعًا داميًا دون نظر إلىٰ ما يترتب عنه من خسائر للآخرين، ما دام أنها ستحقق مصالحها.

الشواهد علىٰ ما سبق لا يمكن حصرها، فهي تطبيقات يومية في ساحة العلاقات الدولية، والكلام هنا ليس في سياق ما يجب أن يكون في عالم السياسة، بل ما هو كائن بالفعل.

---

(١) السابق ص٢٣١.

مع ذلك تكثر الأخطاء والسقطات من سياسيين وحكام يغفلون عن هذه الحقائق، فتكون العاقبة بالنسبة لهم في بعض الأحيان كارثية.

عندما أعلن آخر رئيس سوفيتي -ميخائيل جورباتشوف- عن سياستي: البيريسترويكا -إعادة الهيكلة والإصلاح- الجلاسنوست -الشفافية- احتفىٰ به الغرب وقدمته وسائل الإعلام، وصار رمزًا مؤثرًا، وتعاظم حضوره في الساحة الدولية، وفي غمار هذا الصخب تلقىٰ «جورباتشوف» العديد من النصائح من قادة غربيين، لكي ينهض ببلاده ويتخلص من الميراث الشيوعي المرير. استجاب الرئيس السوفيتي وانفتح علىٰ الغرب والعالم، فكانت النتيجة أزمات سياسية متلاحقة وتدهور اقتصادي، انتهىٰ بسقوطه، وتسلم «بوريس يلتسين» الحكم بدلًا منه، منهيًا نظام القطبين، ليصبح العالم أحادي القطب.

«إدوارد شيفرنادزة» رئيس جورجيا الأسبق، الذي كان وزيرًا للخارجية في عهد «جورباتشوف»، اعترف أنه أدىٰ دورًا في تفكيك الاتحاد السوفيتي لصالح واشنطن عندما كان وزيرًا، كما أنه استجاب لمطالب الأمريكيين في أثناء رئاسته لجورجيا، فسمح لهم بإقامة قاعدة عسكرية، واستقدم مستشارين عسكريين أمريكيين، مع ذلك أيدوا الثورة الوردية التي اندلعت ضد عام ٢٠٠٣م وأسقطت حكمه، وكان يظن أن واشنطن ستقف في صفه(١).

«**محمد رضا بهلوي**» شاه إيران الأخير، كان حليفًا قويًا للولايات المتحدة، وكذلك لـ«إسرائيل» لكن مع تقلص فائدته وتضاؤل وزنه النسبي في سياق الأزمات الداخلية، تخلت عنه واشنطن في لحظة، وتركته يسقط، بل ساعدت في ذلك.

---

(١) الأهرام ٣١/ ٣/ ٢٠٠٩م.

ينقل الصحفي المصري «أنيس منصور» واقعة صادمة تكشف مشاعر الشاه في أيامه الأخيرة في أثناء إقامته في مصر بدعوة من الرئيس الأسبق «أنور السادات»، وقد سجلها بصوته.

كان «منصور» مقربًا من «السادات» ما سمح له أن يلتقي مع الشاه، ويحمل رسالة منه إلىٰ الرئيس المصري، يقول «منصور»: «لم ينسَ شاه إيران هذا الموقف الكريم للرئيس السادات، ومن أجل ذلك كان الحديث الخاص الذي سجله بصوته وكلفني أن أعطيه للرئيس السادات، وفي هذا الحديث يقول: إن أحدًا لم يخدم الأمريكان في هذه المنطقة كما فعلت أنا، ولكن الأمريكان لا عندهم مبدأ ولا خلق، فعندما كنت أرقص مع زوجة الرئيس كارتر وهو يرقص مع زوجتي، ويهمس في أذن زوجتي ويقول لها: إيران جزيرة الأمان؛ كان مدير المخابرات المركزية في انتظار الخميني في طهران.. أخي السادات لا تثق بهم، فإذا قبلوك اليوم قتلوك غدًا، احترس منهم، إن موقفهم مني درس يجب ألا ينساه أحد».

عندما احتلت أمريكا العراق، قالت للعراقيين سنجعل بلادكم أمنًا وأمانًا، ونموذجًا للحرية والديمقراطية في الشرق الأوسط، لكن لم يكن هذا ما تريده أمريكا، كان هذا ما تقوله، وشتان بين الأمرين.

بعد سنوات من الغزو، حققت أمريكا كثيرًا من أهدافها، ولم يتحقق للعراقيين شيء، مع ذلك كانت واشنطن تهنئ العراقيين علىٰ ما تحقق من إنجازات، يسمعونها في كلام الأمريكيين دون أن يجدوا لها أثرًا في بلادهم.

ذهب نائب الرئيس الأسبق -ديك تشيني- ليزور العراق في منتصف مارس ٢٠٠٨م، وينقل إلىٰ كل المسؤولين العراقيين شكر الرئيس «بوش» ويتحدث لهم عن ذلك «التطور المذهل في الأمن».

في اليوم نفسه، قُتِل أكثر من ٦٠ عراقيًا في هجمات بالقنابل، واستعان «تشيني» لكي يتنقل داخل «المنطقة الخضراء» الحصينة بحراسة مشددة، مع ذلك سقطت قذيفتا هاون في أثناء وجوده فيها.

بعد أن غادر العراق بأيام قليلة، قتلت مروحية أمريكية من طراز أباتشي ستة أشخاص اشتُبِه في قيامهم بأنشطة مشبوهة، ليتبين لاحقًا أنهم ينتمون إلىٰ أحد مجالس الصحوة التي شكلها الأمريكيون في المناطق السنية ويقومون بدفع رواتب أفرادها.

وفي ٢٤ مارس قُتل ٥١ عراقيًا وأصيب ١٢٢ في عمليات مختلفة.

وكانت «مشرحة» بغداد تستقبل ١٥ جثة يوميًا من ضحايا التفجيرات في ذلك الوقت،

وفي البصرة كان ٤٠ حزبًا ومجموعة وميلشيا تتقاتل علىٰ النفوذ والنفط، فاضطرت حكومة المالكي إلىٰ فرض حظر للتجوال ليلًا، بعد أن تعرضت مقرات الشرطة والداخلية للقصف بالصواريخ[1].

في وسط كل هذه الفوضىٰ، كان «تشيني» يتحدث عن «التطور المذهل في الأمن».

(١) صحيفة الخبر ١٧/ ٣/ ٢٠٠٨م.

الفصل الرابع

سباق التسلح

ما احتمالات نشوب حرب عالمية ثالثة؟

بعض الدراسات السياسية تؤكد أن حدوث مثل هذه الحروب يكاد يكون مستحيلًا في العصر الحالي، لسببين رئيسين:

الأول: الرادع النووي الذي يجعل من تورط الدول الكبرىٰ في حروب مباشرة، نذير خطر، إذ قد تنزلق الأمور بصورة تراجيدية لتصل إلىٰ مستوىٰ استخدام السلاح النووي.

يوجد في العالم حاليًّا تسع دول تمتلك أسلحة نووية، وهي[1]:

م	الدولة	عدد الرؤوس النووية	عدد التجارب النووية
١	روسيا	٧٠٠٠	٧١٥ منذ ١٩٤٩م
٢	الولايات المتحدة	٦٨٠٠	١٠٥٤ منذ ١٩٤٥م
٣	فرنسا	٣٠٠	٢١٠ منذ ١٩٦٠م
٤	الصين	٢٧٠	٤٥ منذ ١٩٦٤م
٥	بريطانيا	٢١٥	٤٥ منذ ١٩٥٢م
٦	باكستان	١٤٠	٦ منذ ١٩٩٨م
٧	الهند	١٣٠	٦ منذ ١٩٧٤م
٨	إسرائيل	٨٠	١ منذ ١٩٩٧م (غير مؤكدة)
٩	كوريا الشمالية	٢٠	٦ منذ ٢٠٠٦م
المجموع		١٤٩٥٥	٢٠٨٨

(١) يوجد اختلاف في المصادر بالنسبة لعدد الصواريخ وعدد التجارب، لكنها فروقات محدودة.

تمتلك الدول مجتمعة ١٥ ألف سلاح نووي، بما فيها الأسلحة التي تنتظر التفكيك، وكان العدد قد بلغ ٧٠ ألف في الثمانينيات بحسب إحصاء معهد ستوكهولم الدولي لبحوث السلام.

في عام ١٩٤٧م أسس فريق من العملاء -دورية نشرة علماء الذرة- مشروعًا بعنوان «عقارب ساعة القيامة»[1]. تشير الساعة الافتراضية إلىٰ منتصف الليل بوصفه وقت النهاية إذا اندلعت حرب نووية، ووظيفة الساعة حساب احتمالات نشوب حرب نووية، وتقديرها بالدقائق، فكلما تفجرت أزمة بين دولتين نوويتين، يتقلص عدد الدقائق التي تفصلنا عن منتصف الليل.

عند تأسيس الساعة كانت تشير إلىٰ سبع دقائق قبل منتصف الليل، ثم تغيرت ٢٠ مرة خلال العقود الماضية، بحيث تراوحت من دقيقتين إلىٰ ١٧ دقيقة بحسب الأزمات.

في يناير ٢٠١٨م ضُبِطت الساعة عند دقيقتين فقط مع تصاعد النزاع بين أمريكا وكوريا الشمالية والتهديد باستخدام الأسلحة النووية.

مع ذلك لا يعتقد كثير من الخبراء أن الحرب النووية أمر محتمل، فقد ترسخت قناعة لدىٰ الدول الكبرىٰ أنه حتىٰ الحرب التقليدية بينهم لن يكون فيها رابح، وأن الجميع سيتحمل خسائر كارثية، إذ تثبت الدراسات أن الحروب الحديثة -بسبب التطور الهائل في قدرات التدمير- تقتل ٩٠٪ من المدنيين، مقارنة بـ١٠٪ فقط من العسكريين.

لذلك علىٰ مدىٰ أكثر من ٤٠ عامًا من الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي -ومع العداء الشديد بين الدولتين- لم تحدث مواجهة عسكرية

---

(١) بي بي سي، عقارب ساعة القيامة على بعد دقيقتين من النهاية، ١٦/ ١/ ٢٠١٨م.

حقيقية مباشرة، نووية أو تقليدية، مع اقترابهما من حالة الخطر في الحربين الكورية والفيتنامية.

إجمالًا، يُلاحظ في العقود الماضية أن الصراعات بين الدول الكبرىٰ تترجم إلىٰ: صراعات عسكرية بين دول العالم الثالث، وحروب أهلية هنا أو هناك، ونزاعات اقتصادية. ولا تدخل الدول الكبرىٰ -غالبًا- في حروب عسكرية إلا في مواجهة دول ضعيفة نسبيًّا -كما في حالة أمريكا وفيتنام، أو أمريكا وأفغانستان- أو في إطار تحالف دولي، كما حدث في حرب الخليج الثانية.

الثاني: العولمة بمختلف مجالاتها، خاصة الاقتصادية، وهي تعني أن العلاقات الاقتصادية بين دول العالم أصبحت مترابطة ومعقدة للدرجة التي تجعل من أي حرب مباشرة بين الدول الكبرىٰ، خسارة للجميع دون رابح.

علىٰ سبيل المثال، فإنه رغم الحرب التجارية بين أمريكا والصين، فإن عددًا كبيرًا من الشركات الأمريكية لا تزال تصنع منتجاتها في الصين، كما أن شركات مثل بوينج، تستحوذ الصين بمفردها علىٰ ٣٠٪ من إجمالي وارداتها لمختلف دول العالم، وهو ما أسهم في إتاحة ١٥٠ ألف وظيفة في أمريكا. شركة آبل أيضًا، تستحوذ الصين علىٰ ٢٥٪ من الدخل التشغيلي الإجمالي لها(١).

ويبلغ عدد المشاريع الاستثمارية الأمريكية في الصين حتىٰ عام ٢٠١٠م ٥٩ ألف مشروع، بإجمالي استثمارات تتجاوز ٧٠ مليار دولار، في المقابل فإن المنتجات الصينية تمثل حوالي ٧٥٪ من منتجات السوق الأمريكية، وهي سلع لا بديل لها من حيث التناسب بين السعر والجودة، وتوجد شركات صينية في أمريكا توظف عشرات الآلاف من الأمريكيين، مثل مجموعة «هاير» الصينية،

(١) روسيا اليوم ٢١/ ٧/ ٢٠١٧م.

التي تعمل في ولاية كارولينا الجنوبية منذ عام ١٩٩٩م -مدينة كامدن- وبحسب الإحصاءات فإن المجموعة الصينية وفرت للمدينة آلاف الوظائف، بحيث إن أسرة من كل عشر أسر في المدينة لديها موظف يعمل في «هاير»، ويبلغ إنتاجها السنوي ٢٠ مليونًا من الأجهزة المنزلية[١].

عندما تبلغ العلاقات الاقتصادية بين الدول الكبرىٰ هذه الدرجة من التعقيد، يصبح من العسير التورط في صراعات عسكرية مباشرة، أو تصعيد النزاعات في مجالات أخرىٰ إلىٰ نقطة اللاعودة.

بالرغم مما سبق، فإن إستراتيجيات الدفاع والأمن القومي للدول الكبرىٰ تضع دائمًا احتمالات الحرب في الحسبان، بل إن إستراتيجية الدفاع والأمن الأمريكية الحديثة أدرجت روسيا والصين كمصدر للخطر.

تتحسب الدول الكبرىٰ لاحتمالات وقوع اضطرابات مفاجئة في النظام الدولي، أو تدهور في الاقتصاد العالمي، أو اختلال مفاجئ في موازين القوة، يمكن أن يحفز بعض الأطراف للدخول في صراعات، لذلك تحرص علىٰ إبقاء التوازن العسكري بينها في حالة مستقرة، وهذا لا يعني الثبات بطبيعة الحال، وإنما يعني سباقًا شرسًا للتسلح.

إذًا يمكن اختزال التصعيد العسكري المحتمل بين الدول الكبرىٰ في مسارين أساسيين:

الأول: الصراعات غير المباشرة علىٰ أرض دولة ثالثة.

الثاني: سباق التسلح.

---

(١) موقع صحيفة الشعب الصينية ١٧/ ١/ ٢٠١١م.

سيكون التركيز في هذا الفصل علىٰ «سباق التسلح» كمدخل لتفسير الصراعات الدولية.

كيف يؤدي «سباق التسلح» إلى صراعات بين الدول؟

ينظر كثير من علماء السياسة إلىٰ «سباق التسلح» بوصفه أحد الأسباب الرئيسة للصراعات الدولية، للأسباب الآتية(١):

١- **الثورة التكنولوجية** تتسبب في إحداث فراغات في نظم الأمن المعمول بها، ما قد يحفز بعض الأطراف إلىٰ المبادرة بشن حروب وقائية مانعة، أو حروب إحباط لوقف تداعي الآثار الناجمة عن الاختلال في توزيع القوة بين أطراف متفوقة، وأخرىٰ باتت مهددة.

وقد يحدث العكس، بمعنىٰ أن الأطراف التي أحرزت تفوقًا قد تبادر إلىٰ شن الحرب قبل أن تفقد تفوقها في مواجهة خصومها.

لا يمكن بطبيعة الحال أن تندلع الحرب لمجرد اختلال في توازن القوة بين دولتين أو أكثر، إذ توجد عوامل أخرىٰ قد تحفز وقوع الحرب، أو تمنعها، لكن حتىٰ إن لم تتصاعد الأمور لمستوىٰ الحرب، فإن اختلال معادلة القوة ينشئ حالة من التوتر الذي ينعكس علىٰ الأوضاع الإقليمية والدولية بحسب قوة وحجم الدولتين.

٢- **التفوق العسكري يحفز الدولة المتفوقة** إلىٰ استعراض القوة والسعي لتفعيلها في المنازعات الدولية التي ربما يكون حلها بالطرق الدبلوماسية أقرب. كما أن مجرد التلويح بالقوة في أي صورة من صور التهديد يؤدي إلىٰ تصعيد الصراعات وتسخينها بدلًا من تهدئتها.

---

(١) العلاقات السياسية الدولية، مرجع سابق ص٢٣٣،٢٣٢،٢٣١ بتصرف.

وقد تضمنت «إستراتيجية الأمن القومي الأمريكي» التي أعلنتها إدارة الرئيس «ترامب» في ٢٠١٧م محورًا رئيسًا هو: «الحفاظ علىٰ السلام من خلال إظهار القوة»، أي أن استعراض القوة في مواقف ومواطن معينة، من وجهة النظر الأمريكية سيؤدي إلىٰ تقليص النزاعات وليس تكثيرها، ومن النقاط المذكورة ضمن هذا المحور: «الحرص علىٰ الحفاظ علىٰ توازن القوىٰ لصالح الولايات المتحدة في المناطق الرئيسة من العالم: الهند والمحيط الهادي وأوروبا والشرق الأوسط»(١).

علىٰ الصعيد العربي، فلا شك أن اختلال ميزان القوة بين العراق والكويت، هو الذي شجع «نظام صدام حسين» علىٰ القيام بخطوة الغزو الحمقاء.

مثال آخر: الحرص الشديد والمبكر للكيان الصهيوني علىٰ امتلاك السلاح النووي منذ الستينيات بمساعدة فرنسية وتمويل ألماني، هدفه إنشاء معادلة توازن قوة مع الدول العربية تعطي للإسرائيليين عنصر تفوق وردع، فهو إظهار وامتلاك للقوة من أجل إيقاف أي حروب تحرير مستقبلية.

٣- **سباق التسلح يولد مناخًا من الشك** لأنه يقوم أساسًا علىٰ السرية، وكذلك يولد نوعًا من عدم التيقن بسبب التغير المستمر والمحتمل في موازين القوىٰ، وهذا يعرقل حل النزاعات. ومن جهة أخرىٰ فإن هذه الوضعية تتيح لبعض الدول الكبرىٰ التي لها مصلحة في تعزيز مناخ التوتر في منطقة ما، أن تبقي حالة «عدم اليقين» قائمة.

ولا شك أن المنطقة العربية مستهدفة بإثارة الحروب والأزمات بصورة مستمرة، لاستنزاف مواردها وإمكاناتها ولإجهاض أي عملية تنمية حقيقية، وقد

---

(١) أبرز ملامح إستراتيجية ترامب الجديدة للأمن القومي، موقع الحرة، ١٨/ ١٢/ ٢٠١٧م.

كشف البنك الدولي أن التكلفة العامة للحروب والنزاعات المسلحة التي شهدتها الدول العربية منذ عام ٢٠١٠م حتىٰ عام ٢٠١٨م تبلغ نحو ٩٠٠ مليار دولار، وهي تشمل تكلفة الدمار وفرص النمو الضائعة.. وقال النائب الأول رئيس مجموعة البنك إن هذا الرقم شديد التحفظ وكحد أدنىٰ[١].

تقديم المعلومات المربكة عن تسليح بعض الدول أو تحركاتها العسكرية في نظام إقليمي متوتر، إحدىٰ الوسائل المتبعة لإرباك السياسات الخارجية للدول الأخرىٰ في الإقليم، المثال الأقرب لذلك: الغموض حول مدىٰ قرب إيران من امتلاك السلاح النووي، هذه القضية ظلت منذ سنوات نقطة تسخين مستمرة، دون أن تتبين حقيقتها بوضوح إلا بعد توقيع الاتفاق النووي. فقد أعلنت أجهزة الاستخبارات الأمريكية والإسرائيلية عن قرب اكتمال البرنامج النووي الإيراني عام ١٩٩٤م ثم ١٩٩٦م ثم ٢٠٠٠م ثم ٢٠٠٦م ثم ٢٠١١م و٢٠١٢م[٢].

٤- **سباق التسلح يولد دوامة من النفقات الباهظة تغرق فيها الدولة**، ما يؤدي إلىٰ حالة من الاستنزاف الاقتصادي المؤثرة سلبًا في المجتمع بحرمانه من تطلعاته في مجالات حياتية أكثر أهمية.

هذه الحالة تولد بدورها ضغوطًا للسعي للتخلص من البعض القوىٰ الدولية التي تتسبب في سباق التسلح لإنهاء حالة الاستنزاف، وقد يحدث ذلك إما بالتصعيد للإنهاء السريع، أو باللجوء إلىٰ الطرق السلمية.

لكن في هذه النقطة تحديدًا ترد افتراضات أخرىٰ تتعلق بكون الصراع -أو الحرب- تحقق مصالح عديدة لأطراف داخل الدولة نفسها.

---

(١) روسيا اليوم ١٢/٣/٢٠١٩م.

(٢) صنع العدو، مرجع سابق ص٥٤.

حيث تسعىٰ مجموعات المصالح المستفيدة من سباق التسلح إلىٰ إبقاء حالة النزاع مستمرة وساخنة من خلال الضغط علىٰ أجهزة صنع السياسة الخارجية، لكي تضمن استمرار مصالحها والمكاسب التي تجنيها من هذه الصراعات، وليس بالضرورة أن تكون هذه المجموعات المصلحية موجودة في إحدىٰ دول الصراع، بل يمكن أن تسعىٰ لتسخين الصراعات في مناطق أخرىٰ.

وتطرح هنا نظرية مهمة لعالم الاجتماع الأمريكي «رايت ميلز»، يقول فيها[1]: إنه منذ الحرب العالمية الثانية، فإن الذي يسيطر علىٰ الولايات المتحدة تحالف قوي جدًّا من رجال الصناعة والعسكريين بوسائله الخاصة التي من أهمها السيطرة شبه الكاملة علىٰ أدوات الاتصال الجماهيري.

يعمل هذا المحور أو تلك النخبة علىٰ إتاحة الأسباب التي تساعد في تهيئة مناخ اللامبالاة لدىٰ المواطن الأمريكي حتىٰ لا يكون في وضع يمكنه من مقاومة هذا التسلط أو الوقوف علىٰ أخطاره بالنسبة لمستقبل الديمقراطية في أمريكا.

وتقول هذه النظرية: إن الخط المتشدد في السياسة الخارجية الأمريكية يرتبط في أساسه بالمصالح الذاتية لتلك النخبة التي وإن كانت تمثل أقلية ضئيلة من المجتمع الأمريكي إلا أنها تحاول أن تحقق أقصىٰ استفادة مادية وأدبية ممكنة من وراء استمرار أوضاع التوتر والصراع في أنحاء متفرقة من العالم.

ويقول «ميلز»: إن سطوة هذه النخبة تكاد تكون عامة وشاملة، إذ تمتد إلىٰ كل القرارات التي يمكن وصفها بأنها مهمة وحيوية، وعلىٰ الأخص في أمور الرخاء والكساد والحرب والسلام، علىٰ أن «ميلز» لا يدعي أن كل واحد من تلك القرارات المهمة يتخذ بصورة مباشرة في نطاق تلك النخبة، ولكنه يقول إن البدائل

---

(١) العلاقات السياسية الدولية، مرجع سابق ص٢٤٣-٢٤٤.

والخيارات السياسية المطروحة والتي تختار هذه النخبة من بينها، تكون عادة قد تحددت من خلال النفوذ الضخم الذي تمارسه علىٰ كل المؤسسات السياسية والتشريعية الكبرىٰ ذات الصلة بموضوع تلك القرارات.

وبحسب هذه النظرية فإن الخطر الذي يتهدد السلام العالمي ويعد بمنزلة القوة الكبرىٰ المحركة للصراعات والتوترات الدولية، هو: مجموعات المصالح المختلفة المستفيدة من ظروف الصراع، والتي تشكل قوة ضاغطة لا يستهان بها علىٰ أخطر مراكز اتخاذ القرارات داخل النظام السياسي.

وفي هذا يتحدث «بيار كونيسا» عن حيوية «صنع العدو»، للدول الكبرىٰ، لكي تظل الماكينة الاقتصادية تهدر في أعلىٰ مستوياتها، فيقول: «هل العدو ضرورة؟ لاحظ أحد أفضل المحللين الفرنسيين -الجنرال إيريك دو لا ميزونوف- بتهكم: كان لدىٰ العدو السوفيتي كل مزايا العدو الجيد، فهو صلب، ثابت، ومتماسك. كان يشبهنا عسكريًّا، فهو مبني وفق النموذج الكلاوزفيتزىٰ الأكثر نقاءً، مثير للقلق بالطبع لكنه معروف ويمكن توقع خطواته. إن غيابه يخرق تماسكنا ويجعل قوتنا غير مجدية».

يتابع «كونيسا» موضحًا: «فالانكسار الذىٰ نجم عن زوال الاتحاد السوفيتي أفقد أحد مفاتيح شرح الحروب جدواه: لقد استُخدمت ثنائية القطب فعليًّا من أجل تحليل كل النزاعات تقريبًا خلال ما يقارب الخمسين سنة. وكانت الأزمات التي سادت منذ نهاية الشيوعية كلها محلية -يوغوسلافيا، الصومال، تيمور، رواندا، كونغو، هايتي، أفغانستان- وتستحق النوابضُ التي تحركها تفسيرات إقليمية»[1].

---

(١) صنع العدو، مرجع سابق ص٢٣.

الفصل الخامس

تطبيقات عملية: صراع واحد وأسباب متعددة

«لماذا قامت أمريكا بغزو العراق؟»

سنحاول في هذا الفصل تحليل وتحديد الأسباب التي دفعت إدارة الرئيس الأمريكي «جورج بوش» الابن، إلىٰ اتخاذ قرار غزو العراق.

تميل كثير من الكتابات السياسية العربية التي تناولت هذه القضية إلىٰ النظرة الأحادية التي تفترض أن قرار الغزو له سبب رئيس واحد، أو ربما سببان علىٰ الأكثر.

هذا التناول الأحـادي يعطي نتائج غير حقيقية، فالأزمات والصراعات السياسية في الوقت الحالي تكتنفها متغيرات كثيرة لدرجة أنه في بعض الحالات يصعب تحديد الأسباب الحقيقية التي أنتجت صراعًا هنا أو هناك، لذلك تبقىٰ المنهجية العلمية هي المخلص من هذا الارتباك التحليلي، بمعنىٰ أنه لكي نفهم أسباب غزو العراق، لا بد أن نحلل هذا القرار باستخدام مداخل متعددة لتفسير الصراع، بدلًا من مدخل واحد فقط.

بعيدًا عن الرغبة الدعائية المعلنة من إدارة «بوش» في «تحرير العراق»[1]، هناك أسباب كثيرة للغزو، **يمكن تقسيمها إلىٰ ٣ مجموعات:**

فأولًا: هناك المصالح العامة للدولة وطموحاتها العالمية.

وثانيًا: هناك المصالح المرتبطة بالقوىٰ الاقتصادية الكبرىٰ المتمثلة في الشركات متعددة الجنسيات والمجمع الصناعي العسكري.

---

(١) هذا هو اسم القانون الذي أصدره الرئيس الأمريكي الديمقراطي بيل كلينتون عام ١٩٩٨م، وأقر فيه تقديم مساعدات للمعارضة العراقية تشمل الدعم المالي والعسكري من أجل إسقاط نظام صدام حسين، إلا أن كل الجهود فشلت لاحقًا، لكن لم يمنع ذلك من كون القانون أحد الأسس التي انطلقت منها إدارة بوش لاحقًا لغزو العراق.

وثالثًا: هناك المصالح الخاصة للشخصيات الفاعلة في الإدارة.

جميع هؤلاء كانت لهم مصالح أوجبت غزو العراق وأنتجت هذا القرار، ونستعرض باختصار مصالح كل فئة علىٰ حدة.

١- المصالح العامة للدولة أو إستراتيجية الأمن القومي الأمريكي:

قبل انتخاب «جورج بوش» رئيسًا للولايات المتحدة، قام ثلاثة مسؤولين من العيار الثقيل، هم:

«ديك تشيني» -نائب الرئيس لاحقًا-، و«دونالد رامسفيلد» -أصبح وزيرًا للدفاع-، و«پول ولفويتز» -أصبح مساعدًا لوزير الدفاع-، بكتابة مذكرة تحت عنوان «إعادة بناء القدرات الدفاعية للولايات المتحدة» في أيلول ٢٠٠٠م، ونبهت المذكرة إلىٰ أنه بالرغم من الخلافات مع نظام صدام حسين والذي يستدعي وجودًا أمريكيًّا في منطقة الخليج العربي فإن أهمية وأسباب الوجود الأمريكي في المنطقة تفوق إشكالية وجود صدام حسين في السلطة[١].

في سبتمبر عام ٢٠٠٢م ذكرت وثيقة «إستراتيجية الأمن القومي للولايات المتحدة» التي أعلنتها الإدارة، أن أمريكا لن تسمح بظهور أي منافس محتمل في سعيها إلىٰ الإبقاء علىٰ الفجوة الكبيرة بينها وبين الدول الأخرىٰ.

احتلال العراق يعني جعل بحر قزوين في متناول الولايات المتحدة وبضمنه نفط إيران، بحيث يمكن أن تبسط نفوذها من دارفور إلىٰ غرب إفريقيا، ومن تيمور الشرقية إلىٰ الخليج العربي، وتتمكن من الهيمنة علىٰ

---

(١) سلام إبراهيم عطوف كبة، مقال: المؤسسة العسكرية في العراق الجديد، موقع عراق الغد، ٢-٧-٢٠٠٧م.

احتياجات الصين النفطية، ومن ضمن تلك الخطة سرعة التدخل لحماية أمن «إسرائيل»، الذي هو هدف أساسي في الإستراتيجية الأمريكية منذ ٦٠ عامًا تقريبًا[1].

بغزو العراق كانت حكومة بوش تأمل أيضًا في جعل العراق نظامًا عميلًا لأمريكا ومواليًا للغرب مكبلًا باتفاقات دفاعية وأمنية، وبقواعد يمكن استخدامها لتخويف الدول المجاورة واحتوائها، لا سيَّما سوريا وإيران[2]، هذه القواعد يجب أن تظل قائمة لعقود قادمة، حتىٰ تضمن استخراج النفط والتحكم في تصديره.

يمكن إضافة مصالح أخرىٰ للسياسة الأمريكية في غزو العراق، منها ترسيخ استحقاق الولايات المتحدة بمبدأ شن الحرب الاستباقية متىٰ ما عدَّته لازمًا ضد أي دولة، دون أن يكون هناك أي التزام بالعودة إلىٰ الأمم المتحدة، وأيضًا تندرج عملية غزو العراق ضمن الإطار العام للحرب ضد الإرهاب، ونسبت صحيفة نيويورك تايمز إلىٰ أحد صقور إدارة «بوش» -لم تذكر اسمه- القول: «بوضع جيشنا في العراق فإننا نستطيع أن نضرب مثالًا للدول الأخرىٰ: إذا تعاونتم مع الإرهابيين أو هددتمونا بأي طريقة، أو حتىٰ إذا نظرتم إلينا شزرًا، فإن هذا يمكن أن يحدث لكم»[3].

---

(١) د. عبد الحسين شعبان، مقال: النزيف العراقي المستمر، ٨-٤-٢٠٠٧م، موقع التجديد العربي.

(٢) آنتوني آرنوف، العراق منطق الانسحاب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص٨٧-١٠٧.

(٣) السابق ص٢٨-٢٩.

٢- مصالح القوى الاقتصادية:

كان الرئيس الأمريكي السابق «بيل كلينتون» يضع في مقر حملته الانتخابية لافتة تحمل شعارًا يقول: «إنه الاقتصاد يا غبي».

يقول الباحث الأمريكي «جيف سيمونز» -مؤلف كتاب «عراق المستقبل، السياسة الأمريكية في إعادة تشكيل الشرق الأوسط»-: «يجب تبني كل فرضية بأن العراق تعاد هيكلته كقاعدة للسيطرة علىٰ نفط الشرق الأوسط من أجل زيادة أرباح الشركات الأمريكية»(١).

ضمن عملية إعادة الهيكلة للنظام العراقي ليتوافق مع مصالح الشركات الأمريكية، أُعيد تشكيل المؤسسات السياسية والاقتصادية في عراق ما بعد الحرب، بما يتفق مع مطالب هيئات مثل منظمة التجارة العالمية وفرعها منظمة الاتفاقية العامة للتجارة والخدمات.

ومن الأهداف الرئيسة لمنظمة الاتفاقية العامة للتجارة، ضمان حرية وصول رأس المال الخاص من دون عوائق إلىٰ الخدمات العامة في كل أرجاء العالم، ما يعني أنه ستصبح استثمارات القطاع العام في حالات كثيرة غير قانونية، وستدار الخدمات العامة بهدف الربح للقطاع الخاص وليس لتأمين احتياجات الناس في المجتمع، وستكون نتائج مثل هذه الإجراءات في عراق ما بعد الحرب: تسليم جميع المؤسسات التي تمولها الدولة إلىٰ شركات صديقة للولايات المتحدة، ومن ثم لن تعود للشعب العراقي حصة في عائدات نفطه، وسيزداد اختراق الشركات الأمريكية العالمية بنسبة كبيرة، ولن تخدم نتائج كهذه الديمقراطية العراقية علىٰ

---

(١) عراق المستقبل ص٩٨.

الإطلاق أو حقوق الإنسان أو الرفاه الاجتماعي للشعب العراقي[1].

من القرارات المبكرة التي أصدرها الكونجرس؛ قرار جرىٰ التصويت عليه في ٣ إبريل ٢٠٠٣م -أي قبل الغزو بأيام قليلة- يحظر أن تذهب أي أموال علىٰ الإطلاق من العقود في العراق إلىٰ شركات تنتمي إلىٰ الدول التي عارضت الحرب في مجلس الأمن الدولي، وهي: فرنسا وألمانيا وروسيا وسوريا[2]، تحول ذلك إلىٰ واقع بعد الغزو، فقد مُنِحت أكثر من ١٥٠ شركة أمريكية عقودًا تبلغ قيمتها أكثر من ٥٠ مليار دولار، أي أكثر من ضعفي الناتج المحلي العراقي في ذلك الوقت[3]، واستحوذت «هاليبرتون» وحدها علىٰ ١١ مليار دولار، وجميع هذه الشركات مسؤولة أمام الحكومة الأمريكية وليس العراقية[4].

في واقع الأمر فإن المصالح الاقتصادية للشركات لا تؤدي دورًا كبيرًا في نهب ثروات العراق فقط، بل في رسم النظام السياسي وشكله المستقبلي أيضًا، وهذا يوضح إلىٰ مدىٰ بعيد لماذا تحالفت واشنطن مع القوىٰ السياسية الشيعية في العراق، إن رغبة هؤلاء الفائقة في تحقيق استقلال ذاتي في الجنوب -سواء في ظل حكومة مركزية أو تقسيم فعلي- كانت بمنزلة الوقود الذي أشعل الأحداث في الوجهة التي يريدها البيت الأبيض، ومن المعروف أن أفضل فترات التعاقدات

---

(١) السابق ص٩٧.

(٢) السابق ص٢٥.

(٣) تختلف التقديرات حول الناتج المحلي الإجمالي للعراق في سنوات ما قبل الغزو بسبب تضارب البيانات الرسمية وعدم توافرها بشفافية، وبصفة عامة تتراوح تقديرات الناتج الإجمالي لعام ٢٠٠٢م من ١٤,٨ مليار دولار إلى ٢٦,١ مليار دولار.
بحث: الاقتصاد العراقي، التحديات والخيارات.. مجموعة باحثين، مركز صنع السياسات للدراسات الدولية والإستراتيجية، ٢٠١٨/٨/١١م.

(٤) العراق، منطق الانسحاب، ص٣٥.

والترتيبات الاقتصادية تكون في مرحلة ما قبل النصر، ومن ضمن هذه الترتيبات إقرار قانون النفط الجديد الذي هو بمنزلة عقد تمليك النفط العراقي إلىٰ الشركات الأمريكية. كان الثمن هو النص علىٰ الفيدرالية في الدستور العراقي الذي وضع ملامحه أستاذ القانون في جامعة هارفارد، اليهودي «نوح فيلدمان»، الذي صاغ أيضًا الدستور الأفغاني.

عندما دخل الجيش الأمريكي إلىٰ بغداد، اصطف طابور من دبابات «إم ١ أبرامز» أمام المبنىٰ الإسمنتي المكون من ١٠ طوابق لوزارة النفط العراقية الذي يبعد بضعة كيلومترات عن مركز بغداد، وتجنب سلاح الجو الأمريكي بقدر المستطاع إسقاط قنابل علىٰ هذا المبنىٰ مثلما فعل بوزارة التخطيط.

وعلىٰ عكس المستشفيات والمتاحف والمكتبة الوطنية، فقد وُضِعت وزارة النفط تحت الحراسة لحمايتها من أعمال السلب والنهب، فالبناية تحتوي علىٰ الكنز الأكبر للأمة: خرائط التنقيب عن حقول النفط وبيانات حقول الأنابيب والعقود، فقد كان مقررًا أن شركات نفط أمريكية كبرىٰ مثل «هاليبرتون» والشركات التابعة لها مثل شركة «كي بي آر» (كيلوج براون أند وروت) وغيرها ستحصل علىٰ العقود والعراق يدفع[1].

أثار إصرار وزير الدفاع الأمريكي السابق «دونالد رامسفيلد» علىٰ تنفيذ عملية غزو العراق بعدد قليل نسبيًّا من القوات البرية دهشة كثيرين وحنقهم أيضًا، خاصة بين الجنرالات الأمريكيين الذين كان بعضهم يطالب بتجهيز جيش عداده ٤٠٠ ألف جندي، لكن إصرار «رامسفيلد» تكشف سره لاحقًا.

.(١) السجل الأسود للنفط ص١٣١ .

في عام ١٩٩١م عهد «ديك تشيني» إلىٰ شركة «براون آند روت» -التابعة للشركة الأم هاليبرتون التي عمل تشيني مديرًا تنفيذيًا لها في الفترة ١٩٩٥-٢٠٠٠م- بإجراء دراسة بتكلفة ٩ ملايين دولار لمعرفة كيف يمكن للجيوش الخاصة في المستقبل أن تستبدل جيش الولايات المتحدة الأمريكية[١].

كان ذلك مشروعًا استشرافيًا تبناه «ديك تشيني»، وقد تمكن من وضعه قيد التنفيذ عندما تسلم منصب نائب الرئيس، فتم تخفيض عدد الجنود الرسميين إلىٰ أقصىٰ حد ممكن، نتيجة ذلك أصبح عدد الجنود المرتزقة العاملين في العراق في الأعوام التالية للغزو أكثر من ٦٠٠٠٠ مرتزقًا ينتمون إلىٰ أكثر من ٦٠ شركة خاصة، وتتوق هذه الشركات لأن تحظىٰ برضا البنتاجون بوصفهم شركاء محترمين[٢].

كما صدر في عام ٢٠٠٤م مرسوم رقم ١٤ يحمي هؤلاء المرتزقة من المثول أمام القضاء العراقي، أي أنهم محصنون من الملاحقة القانونية.

لكي تظل هذه الشركات تعمل في إطار «الشراكة المحترمة» مع البنتاجون، لا بد من تهيئة البيئة الملائمة لها في العراق، هذا يعني الدوران في حلقة مفرغة، ففي حين تعمل سلطات الاحتلال علىٰ تدعيم النظام السياسي سعيًا للاستقرار في العراق، فإن مصلحة «الشركاء المحترمين» للبنتاجون ألا يحدث استقرار، «وفي الحقيقة عندما تأتي هاليبرتون إلىٰ دولة ما، فإنه أمر مؤكد أن تحدث المتاعب بعد وصولها، وإحدىٰ أبشع قصص هرولة شركة هاليبرتون في العالم، تجيء من نيجيريا»[٣].

---

(١) السابق ص٢١٤.

(٢) السابق ص٢٠٧.

(٣) ديك تشيني، رئيس أمريكا الفعلي، مرجع سابق ص١٣٤.

لم يكن لأي من هذه الأهداف علاقة بالديمقراطية مطلقًا، بل إن «ديك تشيني» نفسه يقول: «إن الله لم يضع النفط والغاز في دول الأنظمة الديمقراطية الصديقة للولايات المتحدة»[١]، إذًا يجب أن تظل هذه الدول بعيدة عن أي ديمقراطية حقيقية، وهنا تظهر خبرة نائب الرئيس الذي اعترف «بوش» في مناظرة تلفزيونية أمام منافسه في الانتخابات الرئاسية «آل جور» بأن «تشيني» يمتلك خبرة عريقة في بناء الدول، فقال: «إن نائب الرئيس وأنا نختلف حول استخدام الجنود، فهو يؤمن ببناء الدول، لكنني سأكون حريصًا جدًّا إزاء استخدام جنودنا كبناة دول»[٢].

لقد وضع «تشيني» حلًّا لهذه المشكلة من خلال تبنيه لـ«خصخصة» أكبر جزء ممكن من العمل العسكري الأمريكي[٣]، وكان العراق هو مكان التجربة الأولىٰ. إن التعاون بين شركات النفط وشركات المجندين الدولية ينتشر في جميع أرجاء الكرة الأرضية، وبعد غزو العراق واجه هذا الفرع من الشركات ازدهارًا لم يشهده من قبل.

للمقارنة: بعد حرب الخليج عام ١٩٩١م كان عدد مستخدمي إحدىٰ الشركات العسكرية الخاصة ١٠٠ مجند، أما اليوم فإن نسبتهم في العراق هي ١٠:١ والاتجاه في صعود متواصل.

وحتىٰ نشاط الاستخبارات تمت خصخصة قدر كبير منه في العراق، لذلك يقول «باول لومباردي» رئيس الشركة الحربية الخاصة «داين كورب»: «يستطيع

(١) السابق ص١٣٤.

(٢) السابق ص١٧٤.

(٣) بدأت هذه النزعة لدى تشيني مبكرًا، فعندما كان وزيرًا للدفاع من سنة ١٩٨٩-١٩٩٣م قام في أول سنة بتقليص ميزانية الدفاع وخفض عدد الجنود من ٢,٢ مليون جندي إلى ١,٦ مليون جندي، انظر السجل الأسود ص٢١٣.

الجيش (الأمريكي) أن يحارب من دوننا لكن بصعوبة، وكوننا مدمجين في كل العمليات تقريبًا فإن استثناءنا من الأمر غير ممكن تقريبًا»[1].

إن استحواذ العراق علىٰ «تشيني» كان يعود إلىٰ عملية العقرب، علىٰ الأقل، وهي خطة وضعها مكتبه في البنتاجون، واتصفت بعبارة: لا تخبروا «باول» -وزير الخارجية في ذلك الوقت- أو أي شخص آخر، وهدفها اجتياح العراق والقضاء علىٰ صدام حسين كجزء من حرب الخليج الأولىٰ عام ١٩٩١م[2].

ذكر مسؤول فرنسي يعمل في وزارة الداخلية، وهو مختص بشؤون الشرق الأوسط، في محاضرة له عقدت في المعهد الدبلوماسي بوزارة الخارجية البلغارية، أنه «كان قبل الإطاحة بصدام حسين ينتظر دوره في مكتب نائب الرئيس الأمريكي تشيني للاجتماع به، حينما خرج مودعًا وفدًا من سياسيي العراق الشيعة المعممين قائلًا لهم إنهم: أمل الولايات المتحدة في إقامة الديمقراطية في العراق»[3].

كان ذلك وعد «تشيني» بإقامة دولة مستقلة ديمقراطية للشيعة في العراق، ويذكر الصحفي الأمريكي المخضرم «سيمور هيرش» أن مسؤولين أمريكيين كبارًا عدُّوا قيام حكومة شيعية في العراق قد يؤمن التوازن الموالي لأمريكا مع المتطرفين من السنة[4].

بخصوص «ديك تشيني» تتلخص الإجابة في عبارة واحدة «إنه الاقتصاد يا غبي».

---

(١) السجل الأسود ص٢١٧-٢١٨.

(٢) ديك تشيني، مرجع سابق، ص١٧٩.

(٣) محمد خلف، جريدة بابل، مقال: ماذا تريد إيران من العراق؟ ٧-٤-٢٠٠٧م.

(٤) السابق.

٣- المصالح الخاصة للشخصيات الفاعلة في الإدارة الأمريكية:

كانا «جورج بوش» -الأب والابن- يمارسان نوعًا من «المزاح» أحيانًا عندما يقفان معًا أمام وسائل الإعلام، فيتبادلان الكلام: «أترك لك الكلام يا رقم ٤١، أستغفر الله، الكلام لك يا رقم ٤٣»[١]، والمقصود طبعًا هو رقم الترتيب في قائمة رؤساء أمريكا.

جرت العادة في الولايات المتحدة أن كثيرًا من الرؤساء -والمسؤولين الكبار- يدخلون في مجالس إدارات شركات صناعة الأسلحة بحيث يكون لهم نفوذ على حكوماتهم الشارية للأسلحة، وهو ما يكافِئون عليه بسخاء.

كان الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش -الابن- أحد المستفيدين الأرفع مكانة من هذه الوضعية، فهو شغل منذ عام ١٩٩٠م -بعد رحلة في قطاع النفط انتهت بإخفاق- عضوية مجلس إدارة شركة فرعية لمجموعة «كارلايل» الاستثمارية التي تمتلك حوالي ٢٠ شركة فرعية[٢]، «كان القصد من تعيينه تقديم معروف لـ«دادي» أي جورج بوش الأب، أو الاستثمار في مستقبل رجل الأعمال الخائب عاثر الحظ في حال أصبح له مستقبل مهني في السياسة»[٣][٤].

---

(١) إريك لوران، حرب آل بوش، أسرار النزاع التي لا يمكن الاعتراف بها، دار الخيال، بيروت، ص٧.

(٢) هي مجموعة أمريكية مهمة، غير أن طبيعة أعمالها خارج الولايات المتحدة، تبقى طي الكتمان، ومن غير الممكن أبدًا الحصول على معلومات حول المبالغ التي يحصل عليها رؤساء هذه الشركة، أو المشاريع الخاصة التي يديرونها، انظر الدور الإسرائيلي في حرب الأمريكية على العراق، ص٤٥.

(٣) السجل الأسود ص٢٠٧.

(٤) عُقِد الاجتماع السنوي لمستثمري مجموعة كارلايل في فندق رتز -كارلتون في واشنطن العاصمة في ١١-٩-٢٠٠١م، وهو موعد مريب، وحضر الاجتماع بوش الأب، وبيكر، وفرانك كارلوتشي، ومؤسسة المجموعة ديفيد روبنشتاين، انظر السجل الأسود ص٢١٢.

تحققت التوقعات، وحقق «بوش» الابن نصرًا سياسيًا وتسلم البيت الأبيض، كان ذلك فتحًا لمجموعة «كارلايل»، والتي تضم في عضوية مجلس إدارتها أشخاصًا مثل: «جورج بوش» الأب، و«فرانك كارلوتشي» وزير الدفاع الأمريكي الأسبق، و«جون ميجر» رئيس الوزراء البريطاني الأسبق، و«جيمس بيكر» وزير الخارجية الأمريكي الأسبق(١)، وسفراء ومسؤولين سابقين من وكالة المخابرات الأمريكية(٢).

توصف وزارة الدفاع الأمريكية أحيانًا بأنها «شركة البنتاجون» بسبب العلاقات الضخمة والمصالح المشتركة بين مسؤوليها والشركات الأمريكية الكبرىٰ، مثل «كارلايل»، التي تعدُّ تاسع قوة مالية لتصنيع العتاد العسكري في الولايات المتحدة، وهي تنتج دبابات وصواريخ وأجنحة طائرات وتجهيزات أخرىٰ(٣)، وهو ما جعل «لاري كليمان» رئيس مؤسسة حقوقية غير حكومية يعدُّ وجود «جورج بوش» في إدارة الشركة يمثل «نزاعًا صريحًا علىٰ المنافع، فأي حكومة أو مستثمر أجنبي يسعىٰ إلىٰ نيل الحظوة لدىٰ إدارة بوش سوف يدخل في صفقات مع كارلايل»(٤).

لا يمكن أبدًا تخيل أن الحرب في العراق -مقرونًا بها العملية السياسية والأوضاع المتوترة- هي تطورات غير محسوبة، لأن هذا الجيش من الشركات والمسؤولين يحتاج إلىٰ بيئة ساخنة مشتعلة علىٰ الدوام لتمرير مصالحهما المعقدة، ولعل شخصية «ديك تشيني» تعطي مثالًا واضحًا من خلال التفكيك الآتي لتطوره المهني:

---

(١) ترأس بيكر مجموعة دراسة العراق التي شكلها جورج بوش، وهو ما يشير إلى مستوى النزاهة المتوقعة في إصدار التوصيات والقرارات!

(٢) الدور الإسرائيلي في الحرب الأمريكية على العراق، مرجع سابق ص٤٥-٤٦.

(٣) حرب آل بوش ص٧٢-٧٣.

(٤) السابق ص٧٤.

١. بصفته وزيرًا للدفاع، قاد الحرب الأولىٰ ضد العراق.

٢. ثم ساعد العراق بصفته مديرًا تنفيذيًا لـ«هاليبرتون» في إعادة بناء الصناعة النفطية العراقية رغم الحظر المفروض عليه أمريكيًا.

٣. ثم بصفته نائبًا لرئيس أمريكا جرد حربًا ثانية ضد العراق[1].

٤. ثم بدأ لاحقًا يوزع العقود علىٰ «هاليبرتون» وشركاتها الفرعية.

مثال آخر يكشف أهمية البعد الشخصي في اتخاذ قرارات تعزز البيئة الصراعية من أجل تحقيق مكاسب خاصة، هو شركة «ديليغنس» للخدمات الأمنية، أنشأها «ويليام ويبستر» وهو مدير سابق للسي آي إيه، والإف بي آي، ويديرها موظفون من الوكالة أيضًا ومن المخابرات البريطانية، والرجل الذي تولىٰ إدارتها بعد احتلال العراق، كان «ويتلي برونز» الذي شغل منصب رئيس محطة السي آي إيه في بغداد سابقًا[2]، تضم الشركة في عضوية مجلسها الاستشاري الأعلىٰ مسؤولين سابقين في الحكومتين الأمريكية والبريطانية.

مثال آخر: «جاي جارنر»، أول حاكم أمريكي للعراق، كان مشرفًا من قبل علىٰ عملية «بروفايد كومفورت» عام ١٩٩١م لتأمين الحماية للأكراد، وعمل رئيسًا لشركة «كولمان» التي تنتج الأنظمة الصاروخية، وهي وثيقة الصلة بالبنتاجون وإسرائيل أيضًا، ويعدُّه المراقبون رجل «تشيني» و«رامسفيلد»، وكانت مهمته الرئيسة توزيع العقود الجديدة علىٰ الشركات الأمريكية، لإعادة إعمار البُنىٰ التي دمرها الجيش الأمريكي لحسابهم[3].

---

(١) السجل الأسود ص٢١٥.

(٢) الدور الإسرائيلي ص٤٦.

(٣) عراق المستقبل ص١٠٢-١٠٣-١٠٦.

هذه المصالح المعقدة لكل من: الولايات المتحدة، والشركات متعددة الجنسيات، والمسؤولين الكبار، تتفق على شيء واحد جوهري لتمرير مصالحها، وهو:

١. يجب أن يتفجر صراع واسع النطاق.

٢. متعاظم الخسائر بالنسبة للطرف المقابل.

٣. مستمر لأطول فترة زمنية ممكنة.

لذلك بقي العراق مهترئًا مهلهلًا مليئًا بالثقوب حتى يسهل تمرير هذه المصالح.

إذًا بحسب هذا التفكيك لأسباب غزو العراق، نصل إلى قناعة بأن تحليل أي صراع دولي لا بد أن يأخذ في الحسبان تعدد المداخل المستخدمة في هذا التحليل، فلا يوجد صراعات في الوقت الحالي تتفجر أو تتصاعد لسبب واحد أو تفسير أحادي، فقد يكون الصراع واحدًا لكن أسبابه متعددة وعوامل استمراره أو إنهائه كثيرة ومتشعبة.

كيف يؤثر تعدد العوامل والأسباب في إدارة الصراع؟

إذا كانت العوامل -المباشرة وغير المباشرة- المؤثرة في اتخاذ قرار الدخول في حرب بالعراق، والقرارات التالية المتعلقة بإدارة هذه الحرب، متشعبة ومتعددة، فإن القناعات التي تولدها هذه العوامل، تتعدد وتتشعب بدورها، ولكن على نحو يختلف باختلاف الأوزان النسبية لكل عامل من هذه العوامل، بحسب رؤية المسؤول أو القيادي داخل الإدارة الأمريكية، وبما يجعل من الحديث عن توافق داخل الإدارة حول قرار الغزو وتفصيلاته، محض خيال.

رغم وجود خلاف سابق حول الذهاب إلىٰ العراق أصلًا، فإن الخلاف الأهم هو الذي وقع داخل الإدارة الأمريكية فيما يتعلق بإدارة مرحلة ما بعد الغزو، والذي يكشف بدقة عن وجود تشوش في بناء الرؤية السياسية المتعلقة بأصل القرار.

التأمل في المتابعات العربية للشأن الأمريكي يكشف عن وجود إفراط في تحديد الثوابت الأمريكية لـلإدارات المختلفة، فقد قضىٰ عدد كبير من مفكري ومثقفي الأمة -خاصة الإسلاميين- وقتًا طويلًا في تأكيد ووصف العداء الأمريكي، وتعزيز ثقافة المؤامرة، وقد تطلب ذلك منهم إلغاء أو تهميش الفروقات بين الإدارات الأمريكية، رغم أهميتها ومحوريتها. إذ يوجد قدر كبير من الفروقات بين هذه الإدارات، وهي تمتد لتشمل الآليات والتكتيك والأهداف القريبة والأولويات والتوقيتات، وهذه الفروقات لها تأثير كبير في الأحداث، فقد يكون هناك توافق إستراتيجي في الأهداف بين إدارتين، لكن الاختلاف بينهما في المتغيرات السابقة يمكن أن يحدث فارقًا كبيرًا علىٰ الأرض.

تعاني الذهنية العربية -الإسلامية- ما يمكن تسميته «عقدة هيرتزل» الذي تكلم عن الدولة الصهيونية قبل تأسيسها بخمسين أو ستين عامًا فوقع ما تكلم به، وبذلك فكل مخطط يدبر للأمة يتحول إلىٰ خطر قادم.

هذه الرؤية تجعلنا نعطي كل مخطط لدىٰ الأعداء القدر نفسه من الأهمية الإستراتيجية. إن الاطلاع الانتقائي علىٰ عناصر ومفردات الخطاب الأمريكي المتعلق بالأمة دون تحليل أوزانها النسبية يضر بالوعي العام، ولا ينبغي أن يتحول كل مثقفي الأمة وكتابها إلىٰ نموذج «منذر القوم».. وكفىٰ... علىٰ الأقل يجب أن نوازن بين نموذجين: الإنذار والإرشاد.

هذه التوجهات السابقة -الأيديولوجية والاقتصادية والشخصية المتعلقة بقرار غزو العراق- أشعلت صراعًا داخل إدارة الرئيس «بوش» حول كل ما يتعلق بعراق ما بعد الحرب.

بدأ ذلك بآلية وطبيعة التعاون بين الإدارة والمعارضة العراقية -وهي شيعية بالأساس- يقول «رند رحيم فرانك» المدير التنفيذي لمؤسسة العراق -المعنية بالديمقراطية وحقوق الإنسان-: «إن النزاعات بين دوائر الحكومة الأمريكية ضار جدًّا بالعراق، وأفضل طريقة لجمع شمل جماعات المعارضة العراقية هي إنهاء الخلافات داخل الحكومة الأمريكية، ينبغي أن تكون هناك سياسة واحدة إزاء العراق وليس خمس أو ست سياسات»[1]، وذكرت صحيفة واشنطن بوست وقتها أن إدارة بوش منقسمة علىٰ نفسها حول اختيار مجموعات المعارضة التي ستحصل علىٰ دعم أمريكي[2].

حدثت في ذلك الوقت أيضًا توترات بين البنتاجون الذي يتلقىٰ معلومات استخباراتية من المؤتمر الوطني، ووكالة الاستخبارات المركزية التي تتلقىٰ معلومات من مصادر أخرىٰ في المعارضة الشيعية، وبدا أن صراعًا داخليًّا في واشنطن أخذ يبعث برسائل مربكة إلىٰ مجموعات المعارضة، وقال بعض الصحفيين في تعليقاتهم: إن «ازدواجية التفكير المشوش» لواشنطن، لا تساعد في محاولات العراقيين إسقاط نظام صدام[3].

اشتعل الخلاف أيضًا حول تعيين «جارنر» حاكمًا للعراق بعد الغزو، وازدادت حدة الخلافات حول من سيعاونه، فرشحت الخارجية أشخاصًا اعترض عليهم

(١) عراق المستقبل، سابق ص١٠٥.
(٢) السابق ص١١٧.
(٣) السابق ص١١٨.

البنتاجون، واقترح «رامسفيلد» اسم «جيمس وولسي» المدير السابق للسي آي إيه، كما ساند البنتاجون دورًا فعالًا لـ«أحمد الجلبي» بعد الغزو، وهو ما اعترضت عليه الخارجية التي كانت لا تثق بـ«الجلبي»، وتكافح لمنع وزارة الدفاع من تعيينه زعيمًا مؤقتًا للعراق(١)، وذكرت نشرة «بترو إستراتيجي» في فبراير ٢٠٠٣م أن هناك صراعًا داخل الإدارة الأمريكية بين البنتاجون والخارجية حول من يسيطر علىٰ النفط العراقي بعد الحرب، حيث يرىٰ البنتاجون ضرورة سيطرته علىٰ القطاع النفطي، في حين تريد الخارجية إدارته من خلال الشركة الوطنية العراقية(٢).

بلغت الأزمة الداخلية حد الذهاب إلىٰ الغزو دون تصور واضح وشامل لمرحلة ما بعد الحرب، كتب المفكر «نيل آرتشرسون» يقول: «إنه أمر لا يصدق، أصبحت الدبابات الأمريكية في منتصف الطريق إلىٰ بغداد وليس هناك اتفاق بعد علىٰ كيفية إدارة نظام الاحتلال العسكري، ناهيك ببرنامج لإعادة إعمار الدولة العراقية»(٣)، يؤكد بول بريمر هذه الفرضية، إذ يحكي في كتابه أنه قرأ بعد فترة من وصوله إلىٰ بغداد «دراسة لوزارة الخارجية بشأن مستقبل العراق، تزعم بأنها قدمت خطة كاملة لأنشطة ما بعد النزاع في البلد، وقد شارك كروكر(٤)

---

(١) السابق ص١٠٤-١٠٥- ١٢٩.

(٢) أحمد منصور، قصة سقوط بغداد، الحقيقة بالوثائق، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ص٦٧.

(٣) عراق المستقبل ص١٤٤.

(٤) السفير الأمريكي في بغداد «رايان ك. كروكر»، كان يعمل في ذلك الحين نائب مساعد وزير الخارجية الأمريكي لشؤون الشرق الأدنى، وبعد الغزو شارك في فريق الحكم الإداري ضمن مكتب إعادة الإعمار بقيادة الجنرال جاي جارنر، وقد عمل أواخر السبعينيات بسفارة واشنطن في بغداد، كما عمل سفيرا في سوريا والكويت ولبنان، وهو يتحدث العربية بطلاقة، انظر عام قضيته في العراق ص٣٧.

مشاركة فعالة في الدراسة، لذا سألته إذا كانت تقدم خطة عملية للعراق ما بعد الحرب. فأجابني: إنها لا تقدم خطة إطلاقًا، وإنها تهدف إلىٰ إشراك العراقيين الأمريكيين في التفكير بمستقبل بلدهم بعد الإطاحة بصدام، وأشار كروكر: «لم تكن تهدف البتة إلىٰ تشكيل خطة لما بعد الحرب»، يعلق بريمر بعد ذلك بالقول: «وعندما أتيحت لي الفرصة لقراءة الدراسة المكونة من خمسة مجلدات، وافقته الرأي»[١].

مع مرور الوقت تبين المأزق الذي تواجهه أمريكا في العراق والمتمثل في تباطؤ تنفيذ مخططاتها، وبدأ صقور الإدارة يتساقطون واحدًا تلو الآخر: «دونالد رامسفيلد»، «بول وولفويتز»، «كارل روف»، «دوجلاس فايث»، «ريتشارد بيرل»، «جون بولتون»، «سكوتر ليبي»، والذي بقي صامدًا حتىٰ النهاية هو «ديك تشيني»، الذي كان يدير السياسة الخارجية وتحديدًا أزمة العراق بصورة شبه مطلقة.

من جهة أخرىٰ، بدأ عدد كبير من المنشقين عن الإدارة في مهاجمتها، مثل «بول أونيل» وزير المالية، و«ريتشارد كلارك» المسؤول البارز في البيت الأبيض، و«جورج تينيت» مدير المخابرات، وحتىٰ «سكوت ماكليلان» الناطق الرسمي باسم البيت الأبيض.

وكل من هؤلاء ألف كتابًا يفضح فيه خفايا العملية السياسية في العراق، وكتب «كينيث أدلمان» مقالًا لاذعًا في «واشنطن بوست» نوفمبر ٢٠٠٦م وصف فيه مجمل «فريق الأمن القومي» وخاصة «بول بريمر» و«جورج تينيت» بأنهم «عاجزون» وقال: «من البديهي أن الرئيس يتحمل المسؤولية في النهاية»[٢].

---

(١) بول بريمر، عام قضيته في العراق، النضال لبناء غد مرجو، دار الكتاب العربي، بيروت ص٣٨.
(٢) انظر مقال الطاهر الأسود، كاتب تونسي: الإدارة النيومحافِظة والمسألة الإيرانية، ميدل إيست أون لاين ١٧-٢-٢٠٠٧م.

نشرت مجلة «فانيتي فاير» مقالًا للكاتب «ديفيد روز» كان عنوانه الساخر (Neo Culpa) دلالة على «نهاية مرحلة». تضمن المقال سلسلة من التصريحات لسبعة من رموز المحافظين الجدد الأكثر بروزًا في مجال الكتابة والتحليل، والذين شغلوا مواقع استشارية في الإدارة الحالية: «ريتشارد بيرل»، «دايفيد فروم»، «كينيث أدلمان»، «إيليوت كوهين»، «مايكل ليدين»، «فرانك جافني»، «مايكل روبن»، وهي تصريحات تُحمِّل فشل المشروع الأمريكي في العراق على أكتاف وزارة الدفاع وحتى على عاتق الرئيس نفسه.

يذكر «ديفيد روز» تعليقين متناقضين عن غزو العراق، لـ«ريتشارد بيرل» -رئيس اللجنة الاستشارية لمجلس سياسات الدفاع في البنتاجون، وأحد رموز المحافظين الجدد-.

التعليق الأول على مشارف الغزو، يقول: «أتذكر أني كنت جالسًا مع ريتشارد بيرل في جناح في فندق جروسفينور -لندن- حيث كان يلقي محاضرة عن أهمية ضمان النصر في العراق، قال بيرل: العراق مرشح جيد للإصلاح الديمقراطي.. لن تكون وستمنستر بين عشية وضحاها، لكن الديمقراطيات العظيمة في العالم لم تحقق البنية الكاملة والغنية للحكم الديمقراطي بين عشية وضحاها. لدى العراقيين فرصة جيدة للنجاح».

التعليق الثاني، كان في منزل «بيرل» نفسه حيث التقاه «ديفيد روز»، في أكتوبر عام ٢٠٠٦م، وكان أسوأ شهر بالنسبة للخسائر الأمريكية في العراق، ألقى بيرل باللائمة على الرئيس «بوش» نفسه، وقال: «عملية السياسة لم تكن أقل من كارثية.. لم تتخذ القرارات التي كان ينبغي أن تتخذ.. لم تُصنع في الوقت المناسب.. الاختلافات نوقشت إلى ما لا نهاية.. لكن في نهاية اليوم يجب أن يتحمل الرئيس

المسؤولية.. أعتقد أنه حُمِل للاعتقاد بأن الأمور تسير بشكل هادف ومتماسك أكثر مما كانت عليه في الواقع. أعتقد أنه لم يدرك عمق النزاعات في الأسفل.. لا أعتقد أنه أدرك مدى المعارضة أو عدم الولاء داخل إدارته»[١].

الأمر الجدير بالملاحظة هنا، أن الحديث عن فشل أمريكي في العراق يتمحور غالبًا حول المستوى الأول من المصالح التي أشرنا إليها سابقًا، أي المتعلقة بالمصلحة القومية الأمريكية، أما المستويان الآخران المتعلقان بمصالح الشركات والأشخاص فقد تحققت فيهما إنجازات عظيمة، وفي كثير من الأحيان يكون تحقق المصالح في هذين الجانبين هو المعيار الأكثر حفاوة في واشنطن.

خلاصة هذا الفصل أنه توجد عوامل ومتغيرات كثيرة تتفاعل لتفرز في النهاية قرارًا بإنشاء صراع جديد أو المشاركة في صراع قائم، هذا التفاعل يتم بطرق مختلفة، وبأوزان نسبية متفاوتة، تعطي نتائج مختلفة في كل مرة، لذلك إن أردنا تحليل أسباب صراع محدد لنعلم كيف بدأ أو تصاعد، لا بد من النظر في هذه المتغيرات كلها، وليس بعضها، وكذلك معرفة الطريقة التي تتفاعل بها في بيئة اتخاذ القرار، وليس في عقل المحلل أو الباحث أو القارئ.

---

(1) David Rose. Neo Culpa. 5/12/2007. http://www.vanityfair.com/news/2007/01/neocons200701.

الفصل السادس

«قال لنا المسيح أن نحمل سيفًا»

الدين والصراعات

الدين له دور كبير في السياسة والصراعات السياسية، هذه حقيقة لا يملك أحد أن يجادل بشأنها.

لكن تأثير الدين في السياسة طرأت عليه تطورات وتغيرات كثيرة -صعودًا وهبوطًا- خاصة في القرنين الأخيرين.

قبل مئات السنين كانت الخلافات الدينية تسهم بالدور الأكبر في تفجر النزاعات والحروب، لكن مع تطور الحضارة الإنسانية تراجع دور الدين كسبب معلن، مع بقائه كأحد الدوافع الرئيسة التي تُعلن أحيانًا وتُضمر أحيانًا أخرىٰ.

يظهر ذلك بوضوح في التغيرات التي طرأت علىٰ الحملات العسكرية التي يقودها الغرب ضد العالم الإسلامي، فهي في البدء كانت «حملات صليبية» ترفع شعار الصليب لتجذب المتطوعين والداعمين، لكن في قرون تالية، تطورت إلىٰ «استعمار»، و«استنزاف» للثروات، ترفع شعارات المال والاقتصاد والثراء، وتستبطن الدين.

لعل السبب الأبرز في هذا التغير هو الصدام المتفجر في أوروبا بين الكنيسة والدولة، الذي نتجت عنه موجات حادة من العلمانية أقصت الدين عن عالم السياسة بدرجات متفاوتة في الدول التي تنتمي للحضارة الغربية.

كانت معاهدة وستفاليا ١٦٤٨م التي أنهت حرب الثلاثين عامًا الدينية بين الدول الأوروبية، هي العامل الأكثر تأثيرًا في إبعاد الدين عن مجال العلاقات الدولية من الناحية العملية.

علىٰ المستوىٰ النظري، أدىٰ ظهور المنهج السلوكي في النصف الأول من القرن العشرين إلىٰ ما يشبه «الهوس» بالمناهج الكمية التي سيطرت علىٰ مجال العلاقات الدولية منذ الخمسينيات، فتركز الاهتمام علىٰ دراسة وتحليل متغيرات قابلة للقياس مثل القدرات العسكرية والاقتصادية، في حين عُدَّت القيم والثقافة والدين عناصر غير قابلة للقياس الدقيق.

فقد أدىٰ استخدام هذا المنهج في دراسة الظاهرة السياسية إلىٰ تبني أنصاره مهمة تحويل هذا المجال إلىٰ علم متحرر من القيم Value Free مركِّزًا علىٰ السلوك الفعلي للظاهرة السياسية انطلاقًا من حقيقة أن الفرد هو وحدة التحليل الأساسية، وعليه فإن إدخال أي نوع من الأحكام القيمية في التحليل السياسي سيؤدي إلىٰ إعاقة الموضوعية العلمية المنشودة(١).

كما برزت المدرسة الواقعية في علم السياسة التي أهملت النظر إلىٰ الدين كمتغير رئيس في تحليل وتفسير العلاقات الدولية، واستخدمت بدلًا من ذلك مفاهيم المصلحة والقوة.

بدأ الاهتمام بالدين في مجال العلاقات الدولية يزداد باطِّراد منذ سبعينيات القرن الماضي، وبصفة أساسية بعد انتهاء الحرب الباردة بدءًا من حقبة التسعينيات، نتيجة لأسباب متفاوتة، لكن قبل استعراض هذه الأسباب **لا بد من التفرقة بين أمرين:**

الأول: تنامي الاهتمام بدراسة الدين وانعكاساته السياسية تأثرًا ببعض الأحداث والتطورات العالمية.

---

(١) د طلال محمود ضاحي، د سرحان العتيبي، مقدمة في التحليل السياسي القياسي، جامعة الملك سعود، الرياض، ٢٠٠٤م، ص٥-٦.

الأمر الثاني: هو حجم الدين كمتغير أساسي في وضع السياسة الخارجية للدولة، وتأثيره في النزاعات بين الدول.

فهناك فرق كبير بين أن تهتم -دولة معينة- بدراسة تنامي حضور الدين في ساحة علاقاتها الدولية لدىٰ الآخرين، وبين أن يصبح دين الدولة ذاتها عاملًا مؤثرًا في صياغتها هي لسياساتها الخارجية.

يمكن أن يتوضح الفرق بالمقارنة بين:

- الرئيس الأمريكي الأسبق جورج بوش -الابن-.
- والرئيس السابق باراك أوباما.

فالأول ينتمي للحزب الجمهوري، وكان للدين تأثير زائد في سياسته الخارجية، فهو أحد أكثر الرؤساء الأمريكيين استشهادًا بالنصوص الدينية لتبرير مواقفه وسياساته(١)، كما أن البرنامج السياسي للحزب الجمهوري عام ٢٠٠٦م في ولاية تكساس -والتي بالمناسبة كان جورج بوش يشغل منصب حاكمها في الفترة من ١٩٩٥م إلىٰ ٢٠٠٠م- كان ينص علىٰ أن أحد أهدافه هو: «تبديد أسطورة فصل الدين عن الدولة»(٢).

أما الرئيس الثاني -أوباما- فينتمي للحزب الديمقراطي، وبمجرد دخوله البيت الأبيض -يناير ٢٠٠٩م- أعلن عن تأسيس مجلس استشاري لشؤون الأديان، يضم ٢٥ خبيرًا علمانيًّا ودينيًّا من مختلف الديانات، بهدف تحليل دور الدين في السياسة الخارجية لتجنب الصدام مع أصحاب الديانات الأخرىٰ،

---

(١) أمريكا أرض الدنيا والدين أيضًا، محمد المنشاوي، صحيفة الشروق ٥/ ٧/ ٢٠٠٩م.

(٢) العلاقة بين الدولة والدين في الولايات المتحدة، ريا ميارسكوف، باحثة في معهد الأمن الدولي، بواشنطن، الجزيرة.

كما حدث في عهد سلفه جورج بوش الابن، فهو كان يهتم بدراسة حجم الدين لدى الآخرين، دون أن يتعمد إعطاء الدين مساحة تأثير بارزة في سياساته الخارجية.

لكن في جميع الأحوال فإنه توجد خطوط لا يمكن تجاوزها فيما يتعلق بالتأثير الإجمالي للدين، هذه الخطوط تنبع أساسًا من الثوابت الثقافية والحضارية والتاريخية، ومن توجهات الناخب الأمريكي وتفضيلاته واختياراته، ولا يملك الرئيس الأمريكي أيًا كان حزبه أو فكره أن ينقضها أو يتجاوزها، لأنها أصبحت من مرتكزات المصلحة القومية للدولة.

وبحسب إحصاءات منتصف الثمانينيات إلى منتصف التسعينيات -وهي الفترة التي أعقبت سقوط الاتحاد السوفيتي- كانت التركيبة -والتوجهات- الدينية للمجتمع الأمريكي تكشف عن تنامٍ في مستويات التدين -وفق المقاييس الغربية- فقد كان ٢٥٪ من الأمريكيين يعرفون أنفسهم بوصفهم كاثوليك، و٢٦٪ بروتستانت محافظين، و٢٩٪ بروتستانت متحررين، و٢,٥٪ يهودًا.

لذلك لا تصدر من أي رئيس أمريكي تصريحات تنتقد الدين أو تنتقص من المتدينين، بل يصدر بعضهم تصريحات إيجابية تجاه الدين رغم صعوبة التصديق باقتناعه بفحواها، فالرئيس السابق «بيل كلينتون» رغم أنه لم يكن متدينًا، كان يقول: إن «أي محاولة للنأي بالدين عن الحياة العامة، ما هي إلا محاولة فاشلة»، بل يقول في معرض انتقاده لمن يستغلون الإيمان لتعزيز سلطتهم: «هل يعني ذلك أن على صناع السياسات محاولة النأي بالدين عن الحياة العامة؟ الجواب على ذلك: لا مدوية.. فلا ينبغي لنا ألا نقوم بذلك فحسب، بل إننا لن نفلح إذا حاولنا،

فالمعتقدات الدينية، إذا كانت راسخة، لا يمكن ارتداؤها وخلعها كما نرتدي ونخلع الثياب، إننا نحملها معنا أنىٰ ذهبنا»[1].

بالعودة إلىٰ أسباب تنامي حضور الدين في مجال العلاقات الدولية منذ السبعينيات، فقد شهدت العقود الخمسة الماضية أحداثًا تاريخية دفعت بالدين إلىٰ أعلىٰ قائمة العوامل المؤثرة في العلاقات بين الدول،

من أبرز هذه الأحداث:

١. الثورة الإيرانية ١٩٧٨م، وسيطرة رجال الدين علىٰ الحكم.

٢. الحرب الأفغانية، بمختلف مراحلها، بدءًا بمقاومة الاحتلال السوفيتي، وانتهاء بالحرب الأهلية.

٣. حروب التطهير العرقي التي تعرض لها المسلمون في أوروبا: البوسنة والهرسك، كوسوفو.

٤. الحرب الشيشانية.

٥. سقوط الاتحاد السوفيتي وبروز دور الكنيسة الأرثوذكسية في روسيا والكنيسة الكاثوليكية في بولندا.

٦. حروب الخليج المتتابعة وما تضمنته من أبعاد دينية.

٧. بروز الحركات والجماعات الدينية الإسلامية المسلحة، وتنامي تأثيرها وتحول بعضها إلىٰ منظمات عابرة للدول.

---

(١) مادلين أولبرايت، الجبروت والجبار، تأملات في السلطة والدين والشؤون الدولية، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ٢٠٠٧م، ص١١-١٢.

٨. أحداث ١١ سبتمبر ٢٠١١م، وما تبعها من تحول الحرب على الإرهاب إلى غاية موحدة لأغلب دول العالم.

٩. بروز التيار الأصولي المسيحي -الأنجليكاني- في أمريكا، والذي يقدر عدد أتباعه بنحو ٧٠ مليون شخص، وظهور تيار المحافظين الجدد وتوجهاته اليمينية.

١٠. ازدياد الصراعات الأهلية الداخلية على أساس ديني أو عرقي أو طائفي.

يضاف إلى كل ما سبق تنامي ظاهرة الحركات الدينية الإسلامية التي ارتبطت نشأتها بدرجة كبيرة بالاعتراض على: الإمبريالية الغربية وتمدد الثقافة الغربية في المجتمعات الإسلامية، والدور الذي لعبته أمريكا وأوروبا في تقليص مساحة ونفوذ الإسلام في العالم الإسلامي.

يصف الأكاديمي الأمريكي -جورج ويجل- تنامي دور الدين في العقود الخمسة الماضية بالقول: «إن نزع العلمانية عن العالم، هو إحدى الحقائق السائدة في أواخر القرن العشرين».

تتوقع بعض دراسات العلاقات الدولية أن تضخُّم دور وتأثير الحركات الدينية العابرة للدولة، سيؤدي إلى إضعاف تدريجي لدور الدولة القومية، وهذا سينتج عنه ازدياد الفرصة لنشأة صراعات جديدة أو تفاقم صراعات قائمة وتحولها إلى صراعات خارجة عن السيطرة أو غير قابلة للحل.

في المقابل، لا يمكن التغافل عن أسباب أخرى لها أثر مضاد، أي أنها تعمل على تقليص دور الدين وتأثيره في مجال العلاقات بين الدول.

من أبرز هذه الأسباب أو التطورات:

التطور الأول: الزيادة الهائلة في عدد السكان، والتي نتج عنها فوضىٰ عارمة وندرة في الموارد وتضارب حاد في المصالح بين مختلف الدول، حتىٰ الحلفاء.

هذه الفوضىٰ أوجدت عشرات الدوافع لتنامي الصراعات وتصاعدها بين مختلف الفاعلين الدوليين.

فالعالم الذي انطلقت في رحابه أولىٰ الحملات الصليبية مطلع القرن الحادي عشر الميلادي، كان تعداده ٣٢٠ مليون نسمة[1].

وفي عام ١٦٠٠ لم يزِد تعداد سكان العالم علىٰ ٥٠٠ مليون نسمة.

وعندما اندلعت الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩م، كان تعداد سكان العالم ٢,٥ مليار نسمة.

وعندما اغتصبت «إسرائيل» المسجد الأقصىٰ واحتلت القدس عام ١٩٦٧م، كان سكان العالم ٣,٥ مليارات نسمة.

في حين يبلغ التعداد العالمي حاليًّا (٢٥/ ٢/ ٢٠١٩م) ٧,٧١٤,٥٧٦,٩٢٣ نسمة.

أكثر من نصف هذه المليارات الهائلة، لم يولدوا إلا بعد عام ١٩٨٠م، وترتبط ذكرياتهم وثقافاتهم بدرجة كبيرة بالسنوات الأربعين الماضية، وما جرىٰ فيها من أحداث وتطورات.

٤١,٦٪ من سكان الأرض ولدوا بعد عام ١٩٩٥م.

٢٥٪ من سكان الأرض ولدوا بعد عام ٢٠٠٥م[2].

---

(1) www.worldmeters.info.
(2) www.cia.gov.

التأمل في خارطة نمو عدد السكان يعطي نتائج مذهلة بالفعل.

استغرق البشر تاريخهم كله حتىٰ عام ١٨٠٠م لكي يبلغوا المليار الأول، في حين لم يستغرق المليار الثاني إلا ١٣٠ عامًا فقط، أما المليار الثالث فقد استغرق ٣٠ عامًا، والمليار الرابع ١٥ عامًا، والمليار الخامس ١٣ عامًا، والمليار السادس ١٢ عامًا، والمليار السابع ١٢ عامًا.

التوزيع الديني لسكان العالم يتبين من الجدول الآتي[(١)]:

الدين	النسبة السكانية	التقسيم الطائفي - الجغرافي
المسيحيون	٣١,٥٪	٥٠٪ كاثوليك، ٣٧٪ بروتستانت، ١٢ أرثوذكس، ١٪ آخرون
المسلمون	٢٣,٢٪	٨٧-٩٠٪ سنة، ١٠-١٣٪ شيعة
بدون: الذين لا ينتسبون لأي دين، الملحدون، اللاأدريون	١٦٪	-
هندوس	١٥٪	٩٤٪ يعيشون في الهند
بوذيون	٧٪	نصفهم يعيشون في الصين
الديانات الشعبية أو الوثنية	٦٪	-
أخرى: البهائية، الزرادشتية، السيخ، إلخ	١٪	-
يهود	٠,٢٪	٨٠٪ يعيشون في أمريكا، فلسطين

(1) www.pewforum.org.

التطور الثاني: تواكبت هذه القفزة السكانية الهائلة مع تطور آخر بالغ التأثير في مجال التواصل الإنساني بين مختلف البشر بغض النظر عن دينهم أو عرقهم أو لغتهم أو ثقافتهم.

قبل سبعين عامًا فقط، كانت الفترة الزمنية بين كتابة الرسالة ووقت صولها، أو بين وقوع الحدث ومعرفة الناس به، تمتد إلىٰ أيام، وأحيانًا أسابيع وشهور، الآن أصبحت هذه الفترة الزمنية = صفر تقريبًا.

وسائل النقل الفورية للمعلومات أصبحت طاقتها علىٰ النقل تتجاوز بكثير قدرة الناس علىٰ الكتابة والتدوين، شجعهم ذلك علىٰ التوسع في نقل كل ما يتعلق بحياتهم ومشكلاتهم وأفراحهم وأحزانهم عبر هذه الوسائل بصورة فورية علىٰ مدار الساعة، فتمددت الثقافة المشتركة بين البشر إلىٰ حدود لم يعرفها الإنسان من قبل.

٥٧٪ من سكان العالم متصلون بالإنترنت، ٤٥٪ يستخدمون مواقع التواصل الاجتماعي، وأكثر المواقع التي تصفحها المستخدمون عام ٢٠١٨م كانت: جوجل، يوتيوب، فيسبوك، علىٰ الترتيب.

وهذه أرقام الرسائل والنصوص والزيارات المتداولة علىٰ أبرز مواقع التواصل، في الثانية الواحدة:

(إذا أردت معرفة هذه الأرقام في اليوم الواحد، يمكنك أن تضربه في ٨٦٤٠٠)

- ٨٣٩٢ تغريدة علىٰ موقع تويتر.
- ٩٠٠ صورة يتم تحميلها علىٰ موقع إنستجرام.
- ٣٦٦١ مكالمة عبر سكايب.

- ٦٨٨٣٥ جيجابايت من البيانات تم تداولها عبر الإنترنت.

- ٧٢٨٠٤ عملية بحث علىٰ جوجل.

- ٧٧٦٨١ مشاهدة علىٰ يوتيوب.

- ٢٧٧٥٦١٩ رسالة إلكترونية[1].

تذكر بعض دراسات الاتصال أن سلسلة التواصل بين أي شخصين في العالم في الوقت الحالي لا يتجاوز عدد أفرادها تسعة أشخاص، أي أن السلسلة التي تربط بين فلاح يحرث أرضه بقرية نائية في الصين، وبين الرئيس الأمريكي «ترامب» -كمثال- لن تتجاوز تسعة أشخاص.

هذا الارتفاع الهائل في مستويات التواصل الإنساني وتنامي آثار العولمة أحدث أثرين متناقضين:

الأول: تقلصت بدرجة ملحوظة الفروقات الثقافية بين البشر، وبرزت معالم ثقافة عالمية مشتركة نتج عنها خفوت -ظاهري- لمستويات التعصب الديني لدىٰ كثير من المجتمعات.

الأثر الثاني: في الوقت نفسه -وبصورة مدهشة- أدت العولمة وتنامي وسائل التواصل إلىٰ ازدهار التيارات الدينية -علىٰ مستوىٰ العالم- التي تعزز من التمايز الديني والحضاري القائم علىٰ التمسك بالهوية الدينية والثقافية.

لذا تفترض بعض الدراسات أن بروز التيارات الدينية نتيجة للعولمة ونقيض لها في الوقت نفسه.

---

(1) www.internetlivestats.com.

فإذا كانت العولمة تنادي -ونجحت بدرجة كبيرة- في تفكيك الأيديولوجيات والهويات المحلية والخصوصيات الثقافية، وتدعو إلىٰ تنميط العالم بثقافة موحدة تنطلق من مبادئ ومفاهيم مشتركة، وتتعامل مع كل شيء بحسب قيمته السوقية أو الاقتصادية، فإنها بذلك تكون قد أحدثت صدمة كبرىٰ لدىٰ المتمسكين بالهوية الدينية والثقافية، وهو ما دفعهم إلىٰ القيام بردود فعل تمثلت في ظهور التيارات والاتجاهات الدينية وتبلورها في شكل كيانات وأفعال وبأحجام لم تكن موجودة من قبل.

في المقابل، فإن هذه التيارات التي نتجت عن العولمة كنقيض لها، استفادت بدرجة كبيرة من الأدوات التي وفرتها العولمة لتعزيز التواصل وتقوية الأواصر وامتلاك قدرة زائدة علىٰ نشر الأفكار وتعميق الروابط التنظيمية والثقافية لدىٰ المؤيدين والداعمين والمنتمين[1].

الدين في السياسة الخارجية للدول الغربية:

يهتم هذا الفصل بالأساس بحجم متغير الدين في العلاقات الدولية للدول الغربية، وفي سياساتها الخارجية، خاصة تجاه دول العالم الإسلامي.

السؤال الجوهري هنا هو: قياسًا علىٰ ما سبق عرضه وبيانه، فهل يمكن القول بأن الدول الغربية تنطلق في سياستها الخارجية تجاه العالم الإسلامي من منطلقات دينية واضحة دون التباس أو غموض؟

الإجابة هي: لا ونعم في الوقت نفسه.

يحتاج الأمر إلىٰ تفصيل..

---

(١) بشير الشريف أحمد، البعد الديني في العلاقات الدولية، رسالة ماجستير، جامعة الخرطوم ٢٠١٠، ص٣٨-٣٩، بتصرف.

لم يختفِ تأثير الدين في السياسة الخارجية للدول الغربية -رغم تقلص نفوذ الكنيسة بدرجة كبيرة منذ القرن الثامن عشر- وإنما جرت عليه بعض التعديلات والتطويرات.

فالدين في السياسة الخارجية المعاصرة ليس مطلقًا أو منفردًا بالتأثير، فهو مجرد مكون ضمن مكونات متعددة بالصورة التي استعرضناها في فصل سابق، فليس في كل حالات التأثير يعمل الدين بصورة منفردة مجردة، فهو يؤثر غالبًا في سياقات ثقافية وحضارية مركبة، وفي حالات قليلة يبرز كمؤثر مستقل بارز للعيان.

من جهة أخرىٰ فإن تأثير الدين لا يتمدد إلىٰ كل مجالات السياسة، فالنظام السياسي الغربي بصفة عامة، نظام علماني.

ومن جهة ثالثة، فإن تأثير الدين لا يبرز بالدرجة نفسها من القوة في المراحل المختلفة من الصراعات، فهو يبرز بقوة في مرحلة نشأة الصراع وتبلور دوافعه، لكنه يتراجع -نسبيًّا- في المراحل التالية من إدارة الصراع أو انتهائه.

هذه المعايير المحددة لتأثير الدين في السياسة الخارجية للدول الغربية، نفصلها كما يأتي:

أولًا: تعدد المتغيرات:

تعرفنا في فصل سابق إلىٰ منظومة المتغيرات التي ترتكز عليها عملية وضع السياسة الخارجية لأي دولة، وكيف أن الدين مجرد متغير يمارس تأثيره في سياق النسق العام للسياسة الخارجية.

وفي هذه الفقرة نستعرض مثالًا عمليًا يبين كيف أن قضية ذات جذور دينية، يمكن أن تكتنفها دوافع متعددة أخرىٰ غير الدين تؤثر في تطورها واستمرارها.

يتسم اليهود بقدرة كبيرة علىٰ تسويق قضاياهم عن طريق صياغتها كمنتج يرغب فيه الآخرون علىٰ اختلاف توجهاتهم، فكل قضية لها أكثر من صياغة بما يناسبُ مع الجهات المستهدفة، وبذلك يستطيعون أن يحشدوا طاقات وإمكانات هائلة لتحقيق غاياتهم، فإذا كانت لهم قضية ذات بعد ديني، فليس بالضرورة أن يكون الدين محركًا لكل أحد غيرهم للتفاعل مع هذه القضية.

في منتصف القرن التاسع عشر، كان مخطط إقامة الدولة اليهودية في فلسطين لا يزال في مرحلة الأفكار المتداولة التي تفتقر إلىٰ تشجيع أو تبني حقيقي من قيادات سياسية قادرة علىٰ اتخاذ القرار.

تزامن ذلك مع موجات هجرة يهودية متتابعة من شرق أوروبا إلىٰ غربها، رفض اليهود الجدد الاندماج في المجتمعات الجديدة ما تسبب في حدوث مشكلات كثيرة، وقد أزعج ذلك رجال الأعمال اليهود وفي مقدمتهم عائلة روتشيلد المعروفة، فبدؤوا يتبنون فكرة إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين بالترويج لمآسي اليهود وعذاباتهم في الأوساط الأوروبية، وخاصة لدىٰ السياسيين البريطانيين، سعيًا لتحويل موجات الهجرة من أوروبا إلىٰ المنطقة العربية.

كان اللورد البريطاني «شافتسبري» -أنتوني آشلي كوبر- أحد الداعمين لهذه القضية، فالتقىٰ مع رئيس الوزراء اللورد بالمرستون -هنري تيمبل- في يونيو ١٨٣٨م، وكتب في مذكراته يصف اللقاء، فقال: «أمس تناولت العشاء مع «بالمرستون»، ورحت بعد العشاء أحدثه عن مأساة اليهود وعذابهم، وكان يستمع إليَّ وعيناه نصف مغمضتين يمسك بيده كأس براندي يرشف منه ما بين وقت وآخر.

وعندما تركت حديث المأساة اليهودية ورحت أحدثه عن المصالح والمزايا التجارية والمالية التي تنتظر بريطانيا في الشرق؛ لمعت عيناه وتبدىٰ اهتمامه وترك كأس البراندي علىٰ المائدة بجانبه وراح يسمعني»[١].

لنقارن هنا بين موقفي كل من اللورد شافتسبري -وعائلة روتشيلد- واللورد بالمرستون:

الأول، كان صديقًا مقربًا لعائلة روتشيلد الثرية النافذة، التي كانت من أكبر الداعمين لليهود والصهيونية.

لم يكن الدافع الأساسي لهذه العائلة في قضية تهجير اليهود إلىٰ فلسطين، دافعًا دينيًّا، بل كان رغبة في إبعاد الإزعاج الذي تسببوا به إلىٰ منطقة نائية عن أوروبا.

في المقابل، لم يكن رئيس الوزراء البريطاني -وهو حليف لليهود أيضًا- متحمسًا لاتخاذ خطوات عملية في هذا الاتجاه انطلاقًا من الدافع الديني المتمثل في «مآسي» اليهود، في حين تحمس وتحفز عند الحديث عن مكاسب اقتصادية محتملة.

علىٰ هذه الشاكلة يمكن سرد عشرات الأمثلة من السياسة الخارجية الغربية، التي يبدو فيها العامل الديني مختلطًا بعوامل أخرىٰ محفزة، وبأوزان نسبية متفاوتة، ويندر أن نجد في السياسة المعاصرة قرارًا صدر انطلاقًا من البعد الديني فقط.

---

(١) المفاوضات السرية ج١، مرجع سابق ص٣٩.

ثانيًا: تعدد المجالات:

العلاقات بين الدول في الوقت الحالي متنوعة ومعقدة بدرجة كبيرة، فهناك علاقات سياسية واقتصادية وثقافية واجتماعية وعسكرية، إلخ، كما أن كل هذه المجالات تكتنفها نزاعات وصراعات تقتصر غالبًا علىٰ استخدام الأساليب والأدوات السلمية، لكنها تتجاوز أحيانًا إلىٰ مستوىٰ المواجهات العسكرية، ومن الصعب تصور حضور الدين كمتغير مؤثر في كل هذه المجالات بالدرجة نفسها، حتىٰ وإن كانت العلاقة بين دولتين محددتين لها إرث من الصراع الديني عبر التاريخ، فإنه من الصعب أن يمارس الدين الأثر نفسه في كل مجالات وصور العلاقة بينهما.

وعلىٰ الرغم من سهولة ملاحظة ثوابت محددة تميز علاقة الدول الغربية بالدول العربية والإسلامية، وهي ثوابت ذات جذور دينية دون ريب، فإن تفاصيل العلاقات وتعقيداتها وتشعبها تنشئ مناطق كثيرة في خريطة العلاقات -بعيدًا عن هذه الثوابت- تبهت فيها الخلفية الدينية وآثارها بدرجة كبيرة.

ثالثًا: تعدد المراحل:

الصراع عملية ديناميكية، لا يتولد فجأة، بل تكون له مقدمات ومؤشرات ويتطور في مستويات متتالية.

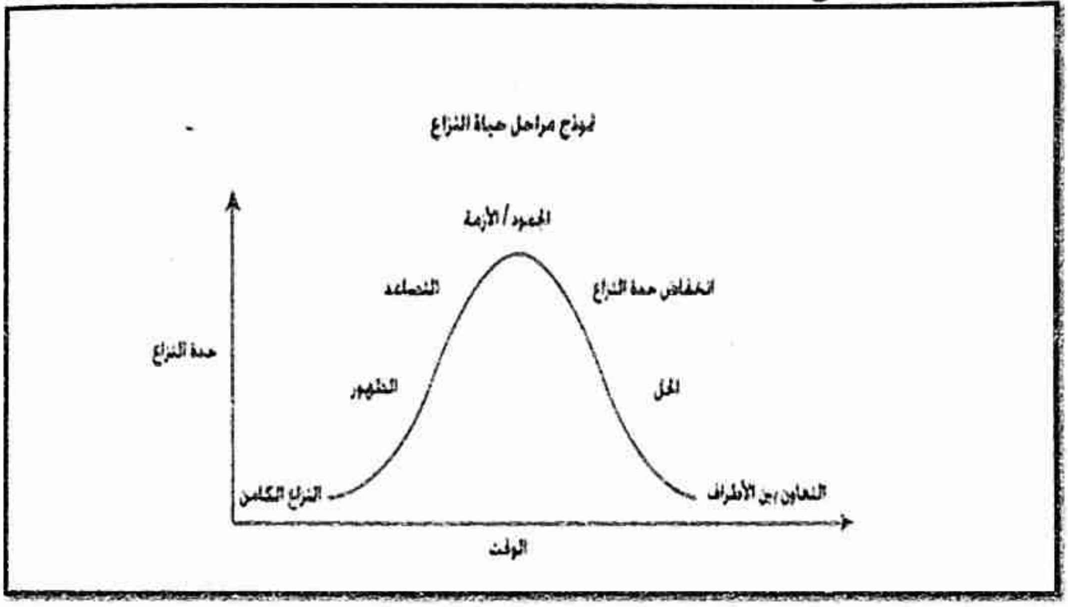
توجد دراسات ونماذج كثيرة تستعرض مراحل تطور الصراع، منها علىٰ سبيل المثال نموذج مؤسسة مواجهة الصراع البريطانية، والذي يقسم مراحل الصراع إلىٰ خمس مراحل، كما يتبين في الشكل الآتي:

نموذج مؤسسة مواجهة الصراع البريطانية RTC

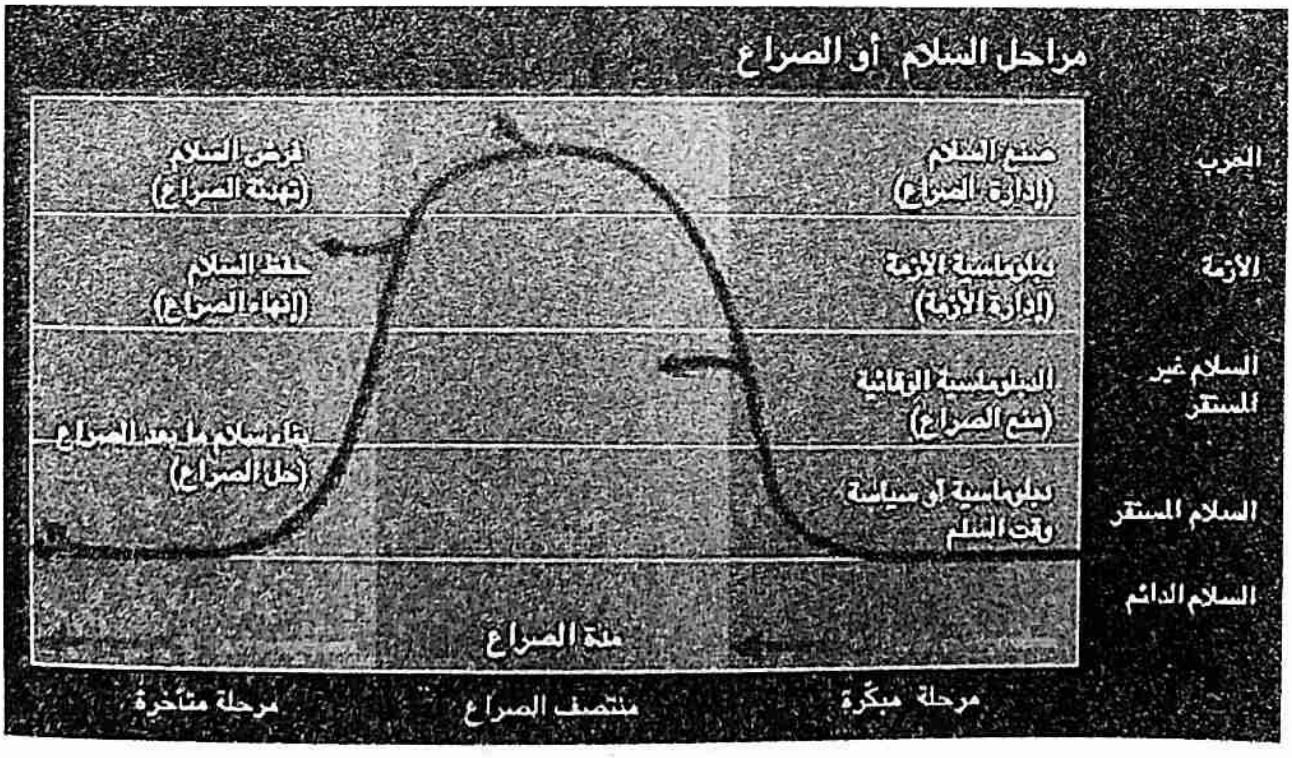
ويتكون من المراحل التالية:

١- مرحلة ما قبل الصراع. ٢- مرحلة المواجهة . ٣- مرحلة الأزمة . ٤- مرحلة نتائج

٥- مرحلة ما بعد الصراع



وهناك نموذج «مايكل لند- معهد السلام الأمريكي» الذي يقدم تفصيلًا أكثر لتعقيدات مراحل السلام والصراع، كما يظهر في الشكل المقابل[1].



(1) Online.usip.org.

عندما نبحث في تأثير الدين كمتغير في صراع ما، فإنه يصبح من الخطأ الافتراض بأن الدين يؤثر في الصراع بمختلف مراحله وتطوراته بالدرجة نفسها.

لتوضيح ذلك، فإنه يحدث في كثير من الأحيان أن يندلع الصراع لأسباب دينية أو بتأثير واضح للدين، ثم بعد ذلك في مراحل تالية من الصراع، يتنامىٰ تأثير متغيرات أخرىٰ مثل المصالح السياسية أو الاقتصادية أو حتىٰ الشخصية، ليستمر الصراع بخلفيته الدينية، لكن مع تناقضات حادة -أحيانًا- مع كونه دينيًّا، بحيث يحدث في بعض حالات الصراع أن يكون مشهده الأخير متناقضًا تمامًا مع مشهده الأول.

حرب الثلاثين عامًا في أوروبا، مثال واضح علىٰ ذلك.

اندلعت الحرب عام ١٦١٨م بسبب خلافات ونزاعات بين الكاثوليك والبروتستانت في الإمبراطورية الرومانية، وتحديدًا في بوهيميا وبراغ بالجمهورية التشيكية، تفجرت الحرب علىٰ إثر واقعة إلقاء البروتستانت لممثلي ولي عهد الملك من نافذة قلعة هارادشاني في براغ، ثم تتابعت في سلسلة من المعارك استمرت ثلاثين عامًا، حتىٰ انتهت بعقد صلح وستفاليا عام ١٦٤٨م.

تورط في الحرب حاكم الإمبراطورية، وآل هابسبورج -النمسا- وإسبانيا وفرنسا وهولندا والسويد والدنمارك وغيرها، وجرت وقائعها بدرجة كبيرة علىٰ الأراضي الألمانية، ونتج عنها مقتل ١,٨ مليون جندي، و٣,٢ مليون مدني.

في أثناء المعارك كان جنود أحد الطرفين يهتفون «يا قديسة مريم»، في حين يهتف جنود الطرف الآخر «الله معنا»، وكانت الجيوش تسرق وتنهب كل ما يقع في طريقها رغم أنها كانت تقاتل كما يفترض من أجل الدين.

في السنوات التالية لبدء الحرب، حدثت تحولات جذرية في الموقف الفرنسي، حيث بادر الكاردينال ريشليو- رئيس وزراء فرنسا- أن يقلص سلطة حلفائه الكاثوليك من آل هابسبورج، فقام بتمويل جيوش البروتستانت في الإمارات الألمانية والدنمارك والسويد وهولندا، وجاء في كتاب بعنوان «ليحي السلام» يتناول أحداث هذه الفترة، أنه في المرحلة الأخيرة من الحرب: «لم تعد حرب الأعوام الثلاثين نزاعًا بين فئات دينية، فقد تحوَّلت إلىٰ صراع سياسي من أجل السيادة في أوروبا»(١).

في المرحلة الأخيرة من الحرب من ١٦٣٥ - ١٦٤٨م أصبحت علمانية تمامًا، واختفىٰ طابعها الديني، فاتحدت فرنسا الكاثوليكية، مع السويد البروتستانتية، وجمهورية هولندا البروتستانتية، ضد ألمانيا اللوثرية والنمسا الكاثوليكية، وإسبانيا الكاثوليكية(٢).

مثال آخر:

لا خلاف في أن الدول الغربية في النصف الأول من القرن العشرين كانت تدعم الحركات الصهيونية بقوة وحماسة، كما أنها كانت تؤيد في المجمل اغتصاب فلسطين لصالح إقامة وطن قومي لليهود عليها، مع كونه مطلبًا ذا بعد ديني بالنسبة للغرب، لكن اقتصر ذلك فقط علىٰ الهدف والغاية، أما التنفيذ وأسلوبه وزمنه ومعوقاته، فهي قضايا بعيدة عن الدوافع الدينية، تجلىٰ ذلك بوضوح في السياسة التي تعاملت بها بريطانيا مع هذه القضية.

---

(1) https://wol.jw.org/ar/wol/d/r39/lp-a/2004205#h=12.

(٢) د. نغم محمد علي جواد، تأثيرات الديانة الكاثوليكية والبروتستانتية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر في العالم العربي، رسالة دكتوراة، جامعة سانت كليمنتس، بغداد ٢٠١٣م.

كان وزير الخارجية البريطاني «إرنست بيفن» يمارس ضغوطًا علىٰ الحركة الصهيونية المتعجلة لإعلان الدولة في فلسطين، ويحثهم علىٰ التذرع بالصبر، سبب ذلك هو تخوف «بيفن» من أن نشأة دولة يهودية في ذلك الوقت سيجعلها تتوجه بصورة مستقلة ناحية الولايات المتحدة بدلًا من بريطانيا، وهذا يعني أن لندن سوف تدق مسمارًا في نعش نفوذها بالمنطقة العربية بيدها.

يروي الزعيم الصهيوني «ناحوم جولدمان» في مذكراته التي صدرت تحت عنوان «المأزق اليهودي»، أنه في لقاء جمعه مع وزير الخارجية «بيفن» عام ١٩٤٦م، فوجئ به يوجه إليه سؤالًا مباشرًا: «ماذا تريدون بالضبط في فلسطين؟

رد «جولدمان»: نريد فلسطين نفسها.

قال «بيفن»: هل أفهم أنكم تريدون فلسطين كلها؟

هز «جولدمان» رأسه إيجابًا.

قال «بيفن»: هل تريد من الحكومة البريطانية أن تتنازل عن أهم منطقة إستراتيجية في العالم لدولة يهودية؟

رد «جولدمان»: سيدي وزير الخارجية.. ولم لا؟

ابتسم «بيفن»، وقال: لكن العهد القديم لا يقول ذلك.. وقد قرأت التوراة ولم أجد فيها ما يشير إلىٰ حق اليهود في امتلاك كل فلسطين.

رد «جولدمان»: وأنا أيضًا قرأت التوراة ولم أجد فيها ما يدل علىٰ أن الحكومة البريطانية لها الحق في امتلاك كل فلسطين[1].

---

(١) المفاوضات السرية ج١، مرجع سابق ص٢٠٨.

هذه المعايير الثلاثة المحددة لتأثير الدين في السياسة الخارجية وفي الصراعات الدولية، تنبع أهمية فهمها واستيعابها من خطأ متكرر يقع فيه بعض المتحمسين والمهتمين بالعمل الإسلامي، وهو نزعتهم المتعجلة لوصف كل المؤامرات أو الاعتداءات أو التجاوزات بحق المسلمين أو الدول والحقوق الإسلامية، بأنها دينية أو صليبية، إلخ، وهذا الإطلاق يشوش الرؤية ويقلص القدرة علىٰ رؤية الواقع علىٰ حقيقته، ومن ثم يؤثر سلبًا في إمكانية معالجته والتعامل معه بكفاءة وفاعلية، كما يضعف القدرة علىٰ ممارسة دور فعال في إدارة الصراع أو التحكم فيه أو حتىٰ التأثير في مجرياته أو حدته أو حجمه، فالقراءة الخاطئة تؤدي إلىٰ تصورات مشوشة وحلول مرتبكة.

«صدام حضارات» أم «صدام أديان»؟

هذا التراجع في تأثير الدين في المراحل التالية من دورة الصراع، له أسباب متعددة، أهمها أن الديانتين المسيحية واليهودية بصفة عامة لهما محتوىٰ سياسي ضعيف نسبيًّا، فهما لا تقدمان رؤية واضحة، أو مبادئ شاملة، فلا يوجد نموذج لـ«الدولة المسيحية» تسعىٰ الدول الغربية إلىٰ إقراره وتطبيقه، فهي دول علمانية بالأساس، والنموذج الذي تروج له هو نموذج ديمقراطي رأسمالي، لا ينطلق من التوراة أو الإنجيل، بل من تراكمات عديدة تتضمن الفكر الإغريقي والفكر الروماني والفكر المسيحي، ثم من تداعيات الثورة الصناعية وإبعاد الكنيسة عن الحياة السياسية.

فالدين يقود الغرب لتحديد أخطر الأعداء علىٰ المدىٰ المتوسط والبعيد، ثم يحفزهم للدخول في الصراعات، لكنه ينزوي جانبًا ليترك إدارة المعارك والصراعات لمفاهيم وأفكار وأدوات مستمدة من أطر معرفية أخرىٰ.

في المقابل فإن الإسلام كدين للبشرية جمعاء، يتضمن رؤىٰ سياسية واضحة وقواعد ومبادئ شاملة، والأخطر أن الإسلام يقدم نموذجًا للدولة الإسلامية، يقوم علىٰ نشر الدعوة والتمدد خارج الإطار الجغرافي، وهو نموذج لم ترفضه المجتمعات الإسلامية -وإن غفلت عنه- ولم تعلن عليه الحرب كما حدث مع الكنيسة في الغرب.

لذا يبدو تأثير البعد الديني الغربي في أحيان كثيرة، مماثلًا للتأثير العرقي أو القومي، ولا ريب أن «صمويل هنتنجتون» كان دقيقًا -وعبقريًا- في كتابه «صدام الحضارات» بتناوله الصراعات التاريخية -المستمرة- بين شعوب العالم، من خلال البعد الحضاري لا الديني، فالحضارة كمفهوم، أشمل من الدين، علىٰ الأقل في الحضارات غير الإسلامية.

ورغم محاولة «هنتنجتون» أن يبدو حياديًا موضوعيًا في كتابه، لكن الكتاب في مجمله عبارة عن سردية للتحديات التي تواجه الحضارة الغربية في طريق الاحتفاظ بقوتها وسيطرتها علىٰ النظام العالمي.

والمفارقة هنا تبدو جلية، إذ يبدو الغرب في أوج قوتهم بسبب تخليهم عمليًا عن مقومات حضارتهم الأصلية التي قسمتهم علىٰ هذا النحو -كاثوليك، بروتستانت- في حين يبدو المسلمون في أوج ضعفهم بسبب تخليهم عن مقومات حضارتهم الكامنة في الإسلام.

وتزداد حدة الصراع أو تقل بحسب اقتراب المسلمين أو بعدهم عن مقومات حضارتهم الأصيلة، لذلك يقول الله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة:٢١٧]، فتوقف الصراع أو خفوته أو تصعيده مرتهن بالبقاء علىٰ الإسلام والتمسك به.

(إن وجود الإسلام في الأرض هو بذاته غيظ ورعب لأعداء هذا الدين، ولأعداء الجماعة المسلمة في كل حين.

إن الإسلام بذاته يؤذيهم ويغيظهم ويخيفهم. فهو من القوة ومن المتانة بحيث يخشاه كل مبطل، ويرهبه كل باغٍ، ويكرهه كل مفسد.

إنه حرب بذاته وبما فيه من حق أبلج، ومن منهج قويم، ومن نظام سليم.

إنه بهذا كله حرب علىٰ الباطل والبغي والفساد. ومن ثم لا يطيقه المبطلون البغاة المفسدون.

ومن ثم يرصدون لأهله ليفتنوهم عنه، ويردوهم كفارًا في صورة من صور الكفر الكثيرة.

ذلك أنهم لا يأمنون علىٰ باطلهم وبغيهم وفسادهم، وفي الأرض جماعة مسلمة تؤمن بهذا الدين، وتتبع هذا المنهج، وتعيش بهذا النظام).

ولا يستبعد أن يكون دافع هنتنجتون لهذا التنظير «الحضاري» للصراع إدراكه لطبيعة تأثير الدين في الشخصية الغربية، ومحاولة منه لتفكيك إشكالية جوهرية، وهي كيف ينخرط الـ«لا ديني» الغربي في صراعات ذات جذور دينية، تجعله يصطف بالحماسة نفسها برفقة مواطنه الغارق في انتماءات وتصورات دينية؟

الحل هو توسيع إطار النظر والمعالجة، باستبدال الحضارة بالدين، فهو صراع بين حضارات بالمفهوم الشامل لمصطلح «حضارة»، وليس مجرد صراع ديني بين التيارات والمجتمعات والمؤسسات الدينية علىٰ الجانبين.

ما سبق لا يتعارض مع كون الدين ليس هو المعيار الوحيد للتقسيم الحضاري -بحسب هنتنجتون- لكنه يبقىٰ المحدد الأول للهوية، وتبقىٰ الهوية هي المحدد

الأول لصياغة العلاقات الإنسانية، وإمكانية تطويرها وترسيخها بين البشر، هذه حقيقة تبقىٰ ثابتة متجذرة علىٰ الدوام، حتىٰ وإن طرأ عليها حالات أو أوقات تشذ عن القاعدة.

يقتبس هنتنجتون من رواية «البحيرة الميتة - Dead Lagoon 1994 للكاتب البريطاني: مايكل ديبدن» عبارات ذات دلالة تؤكد المعنىٰ السابق، وردت علىٰ لسان إحدىٰ شخصيات الرواية، عن حتمية الصراع علىٰ أساس هوياتي أو ثقافي أو حضاري: «لا يمكن أن يكون هناك أصدقاء حقيقيون دون أعداء حقيقيين. إن لم نكره ما ليس نحن، فلن يمكننا أن نحب ما هو نحن. تلك هي الحقائق القديمة التي نعيد اكتشافها بألم بعد قرن أو أكثر من النفاق العاطفي، والذين ينكرونها إنما ينكرون عائلتهم وتراثهم وثقافتهم وميلادهم.. إنهم ينكرون ذواتهم نفسها.. هؤلاء لن يُغفر لهم ببساطة»[1].

يقسم «هنتنجتون» العالم إلىٰ تسع حضارات، هي:

١. الحضارة الغربية، وتضم الكاثوليك والبروتستانت.

٢. الحضارة الإسلامية.

٣. حضارة أمريكا اللاتينية.

٤. الحضارة الإفريقية.

٥. الحضارة الأرثوذكسية، وتتمثل في روسيا تحديدًا وبعض دول شرق أوروبا.

٦. الحضارة الصينية.

٧. الحضارة الهندية.

٨. الحضارة البوذية.

٩. الحضارة اليابانية.

---

(١) صدام الحضارات، مرجع سابق ص٣٦-٣٧.

يقول «هنتنجتون»: «فالناس يعرفون أنفسهم من خلال النسب والدين واللغة والتاريخ والقيم والعادات والمؤسسات الاجتماعية، ويتطابقون مع الجماعات الثقافية: قبائل، جماعات إثنية، مجتمعات دينية، أمم. ومع الحضارات على المستوى الأكبر»[1].

مع ذلك يلاحظ في التقسيم الحضاري أن العامل المشترك الأبرز بين الدول الممثلة لكل حضارة، ليس اللغة أو الثقافة، وإنما الدين، وذلك حقيقي في أغلب الحضارات، مثل: الحضارة الغربية (كاثوليك- بروتستانت)، والأرثوذكسية، والإسلامية، والبوذية.

فأغلب تلك الحضارات تضم مجموعات كبيرة من الدول مختلفة في لغاتها وثقافاتها وتاريخها، لكنها متفقة في انتماءاتها الدينية، على الأقل بالمفهوم العام للانتماء.

فعلى سبيل المثال، الحضارة الغربية التي عد «هنتنجتون» أنها تتكون من الكاثوليك والبروتستانت، لهم لغات مختلفة: الإنجليزية والإيطالية والفرنسية والألمانية والإسبانية والبرتغالية واليونانية، إلخ، وهم كذلك أعراق مختلفة، وثقافاتهم بينها تباينات كثيرة، وبينهم حروب تاريخية مدمرة قتلت ملايين البشر، والعامل المشترك الأبرز الذي يجمعهم في هذا النسق الحضاري، هو الانتماء الديني.

في السياق نفسه، فإن الحضارة الإسلامية كذلك اكتسبت هذه التسمية على أساس ديني، أما الشعوب الإسلامية فلا يوجد ما يجمع بينها حقيقة إلا الدين، فهم منتشرون على مساحة جغرافية هائلة، أعراقهم تشمل أغلب البشر تقريبًا، يتكلمون عشرات اللغات، ثقافاتهم -خارج السياق الديني- متباينة بدرجة كبيرة.

---

(١) السابق ص٣٩.

إذًا بعبارة مختصرة يمكن القول إن ما تحدث عنه «هنتنجتون»، يستحق أن يطلق عليه «صدام الأديان» وليس صدام الحضارات. علىٰ الأقل في الجزء الأكبر.

يعترف «هنتنجتون» بوضوح في مواضع متفرقة من كتابه أن الدين المسيحي هو المكون الرئيس للحضارة الغربية، بل يؤكد أن «تآكل المسيحية» هو الخطر الأكبر الذي يتهدد الحضارة الغربية.

يقول في سياق مقارن بين أوروبا وأمريكا فيما يتعلق بخطر تشوه واضطراب الهوية والثقافة الغربية، وأن ذلك مؤشر سلبي فيما يتعلق بمستقبل الحضارة: «في أوروبا، فإن ضعف المسيحية التي هي المكون الرئيس للحضارة الغربية قد يقلل من شأن تلك الحضارة. تدهور نسبة الأوربيين الذين يظهرون إيمانهم بالدين أو يحافظون علىٰ الممارسات ويشاركون في الأنشطة الدينية. هذه التوجهات لا تعكس عداء للدين بقدر ما تعكس عدم اكتراث به، ورغم ذلك فإن المفاهيم والقيم والممارسات المسيحية متغلغلة في الحضارة الأوروبية. يقول أحد السويديين: ربما كان السويديون أكثر الناس تدينًا في أوروبا، ولكنك لن تفهم هذا البلد أبدًا إلا إذا أدركت أن مؤسساتنا وممارساتنا وأسرنا وسياساتنا وأساليب حياتنا كلها متأثرة بتراثنا اللوثري».

ثم يقول عن الولايات المتحدة: «الأمريكيون علىٰ عكس الأوروبيين، أكثريتهم يؤمنون بالله ويعتقدون أنهم شعب متدين، كما يترددون علىٰ الكنائس بأعداد كبيرة، وبينما لا يوجد دليل علىٰ يقظة دينية في أمريكا منذ منتصف الثمانينيات، بدا العقد التالي وكأنه يشهد نشاطًا دينيًّا واسعًا.. تآكل المسيحية بين الأوروبيين من المرجح أن يكون -علىٰ أسوأ افتراض- هو الخطر البعيد المدىٰ علىٰ صحة الحضارة الغربية»[1].

---

(١) صدام الحضارات ص٤٩٣.

ربما يكون «صدام حضارات» بالنسبة للغرب، نظرًا للبون الشاسع بين نطاق حضارتهم وبين دينهم من حيث المضمون والمحتوىٰ، مقارنة بالحالة الإسلامية، فالمسلمون يكاد يتطابق نطاقهم الحضاري -كما يجب أن يكون- مع دينهم من حيث المحتوىٰ والمضمون، لذلك كانت العلمانية عند الغرب ليست -حرفيًا- تنحية الدين عن الحياة والدولة، وإنما تنحية الكنيسة. لكن في بلاد الإسلام، لن تتحقق العلمانية إلا بتنحية الدين نفسه من الحياة، إذ لا يوجد لديهم مسجد أو مؤسسة دينية حاكمة أو مسيطرة باسم الدين.

رغم ما سبقت الإشارة إليه من أن الدين ليس متغيرًا وحيدًا فيما يتعلق بصياغة السياسة الغربية تجاه الدول الإسلامية، إلا أن القدر الذي يؤثر به مهما كان حجمه، كافٍ لإثارة نزاعات وصراعات مستمرة، لضمان التحكم والسيطرة في مجريات الصدام الحضاري، فهو بمنزلة «الدليل» الذي يتركز دوره في فرز وتحديد الأصدقاء والأعـداء، والتمييز بينهم، وكما سبق بيانه، فإن متغير الدين في السياسة الغربية يتمحور في تصنيف الأعداء، وتحديد اتجاهاتهم، في حين تُدار الصراعات مع هؤلاء الأعداء بعد ذلك في سياق لا يتطابق مع الدين بالضرورة. وهنا نقطة بالغة الأهمية:

كثيرون لا يستطيعون رؤية الصدام الحضاري، أو يسعون لإثباته أو نفيه من خلال متابعة الأحداث والتطورات السياسية اليومية أو الأسبوعية أو حتىٰ الشهرية، وهذا مسلك ذو اتجاه واحد مغلق، فتصادم الحضارات لا يمكن قراءته إلا من خلال منظور رأسي مرتفع يتجاوز السنوات وربما العقود، حتىٰ يمكن ملاحظة التغيرات والتطورات وتحليلها.

فقادة وزعماء الدول الممثلة لكل حضارة، لا ينطلقون بالضرورة في كل قراراتهم وخياراتهم السياسية اليومية من مفاهيم هذا الصراع ومقتضياته.

لذلك فإن المتابعة الدقيقة اللحظية تشوش الرؤية وربما تعطي نتائج مضادة، أما المتابعة الفوقية العابرة للسنوات فتتيح بسهولة رؤية أنماط الصدام الحضاري واتجاهاته وتطوراته.

ومع أن أغلب القادة الغربيين يحرصون على أن يبتعدوا في تصريحاتهم العلنية عن هذا السياق الصدامي الحضاري، إلا أن بعض الإشارات التي تصدر من ساسة غربيين هنا أو هناك، تكفي لكي تثبت استحضارهم لهذا الصدام وارتباطهم بمعطياته ومقتضياته، ومن ذلك التصريح الذي أدلى به رئيس الوزراء الإسباني الأسبق «خوسيه إزنار»[1]، إذ يقول: «حين تسقط إسرائيل، تسقط معها الحضارة الغربية».

فما هو مصدر الخطر الذي يتهدد إسرائيل؟ وما هو الرابط الذي يجعل بقاء الحضارة الغربية مرتهن ببقاء إسرائيل؟

الإجابة معروفة قطعًا.. هذا التصريح صدر من «إزنار» بعد تركه منصبه الحكومي بسنوات، حيث تخلص من قيود العمل الرسمي ليعبر عما يجيش في صدور عشرات من أقرانه في مختلف الدول التي تمثل الحضارة الغربية.

تطبيقات على تأثير الدين في العلاقات والصراعات الدولية:

ربما تكون صورة الدين في السياسة الخارجية للدول الغربية قد توضحت بدرجة أكبر، لكن يبقى السؤال عن التطبيق العملي لما سبق، أو كيف يمكن أن نلمس حجم الدين في السياسة الخارجية الغربية؟

نستعرض فيما يأتي عددًا من السياقات المختلفة التي تبرز بعض الجوانب

(١) المصري اليوم ١/ ٧/ ٢٠١٠م.

التطبيقية لمتغير الدين وأثره في السياسة الخارجية للدول الغربية، مع التوسع في ذكر بعض الأمثلة والشواهد من دول غير غربية.

١- السياق الأيديولوجي:

التراث «البيوريتاني -الكالفني» أحد المحددات الرئيسة التي أسهمت في صياغة الأيديولوجية السياسية الأمريكية، هذا التراث المستمد من الدفعات الأولىٰ من المستوطنين البروتستانت الذين قدموا من أوروبا هربًا من الاضطهاد الديني وبحثًا عن مكان يمارسون فيه شعائرهم الدينية بحرية.

وصل المهاجرون إلىٰ الساحل الشرقي للأرض الجديدة وشرعوا في تأسيس مستوطنات خاصة بهم، كان أولها في ماساشوستس، في حين أقام الرومان الكاثوليك في مستوطنة ماريلاند، واستقر أوائل طائفة الكويكرز في مستوطنة بنسلفانيا.

كان البيوريتانيون -الكالفنيون هم الأكثر تماسكًا من الناحية الاجتماعية، والأكثر تأثيرًا في المجتمع الأمريكي، فقد انتشرت أفكارهم إلىٰ مختلف فئات المجتمع عن طريق نظام المدارس الفعال الذي أقاموه.

من أهم المفاهيم التي نشرتها الطائفة هو إقرانها بين الإيمان بالله -بحسب المعتقد المسيحي- وبين الإيمان بقدرة الإنسان علىٰ تطوير نفسه وتوظيف الخصائص والقدرات التي منحها الله له، لذلك كان لهذه الطائفة جهد كبير في تأسس مجتمع ناجح وفعال[١].

---

(١) عبد الله جمعان محمد الغامدى، الأيديولوجية السياسية الأمريكية: محدداتها.. اتجاهاتها الرئيسة.. وتأثيرها على السياسة العامة، مجلة البيان، ١٠/ ٢١/ ٢٠١٤.

طائفة المسيحيين الإنجيليين -بروتستانت- هي إحدىٰ أكثر الطوائف المسيحية تأثيرًا في السياسات الخارجية لعدد من الدول الغربية في مقدمتها الولايات المتحدة، ويُوصف نائب الرئيس الأمريكي «مايك بنس» بأنه المسيحي الإنجيلي الأكثر شهرة في العالم، وهو يعرف نفسه وفق هذا الترتيب: مسيحي محافظ جمهوري، أي أن الانتماء الديني بالنسبة له يأتي في المقام الأول.

تشير بعض التقديرات إلىٰ أن هذه الطائفة يشكل أتباعها نحو ١٣٪ من تعداد المسيحيين في العالم، أي حوالي ٢٨٥ مليون شخص بحسب معهد Pew الأمريكي للاستطلاع، وهم يشكلون حوالي ربع سكان الولايات المتحدة، وهم الطائفة الأكثر تعاطفًا مع الكيان الصهيوني، وتقريبًا أغلب التبرعات التي تصل إلىٰ «إسرائيل» من أمريكا، تأتي عن طريق الإنجيليين، وتقدر تبرعاتهم السنوية بما يقرب من ٢٠٠ مليون دولار، وهي تتوجه بصفة أساسية إلىٰ التيارات والأحزاب اليمينية الأشد تطرفًا في «إسرائيل»، وتدعم تعزيز الأمن القومي «الإسرائيلي»، وحركات الاستيطان، ويعطون أولوية لما يسمونه «أرض إسرائيل الكبرىٰ»، ويتجنبون دعم أنشطة اليسار.

توصف الطائفة أيضا بأنها «المسيحية الصهيونية» لشدة دعمها للكيان، فهم يعتقدون أن إقامة الدولة اليهودية علىٰ كامل أرض فلسطين جزء ضروري من عملية الخلاص المسيحية التي ستتم في آخر الزمان، لذلك يرفضون تقسيم فلسطين، ويعارضون التسوية السياسية، ويدينون بعداء شديد تجاه الإسلام والمسلمين.

والحقيقة أن الارتباط بين «الآباء المؤسسين» للولايات المتحدة، وبين الذهنية الإسرائيلية، عميق للغاية، فقد قارنوا أنفسهم دون تحفظ بـ«الإسرائيليين

القدامىٰ»، كما تؤكد «مادلين أولبرايت»، لدرجة أن «بنجامين فرانكلين» اقترح أن يصور الخاتم العظيم لهذا البلد «الإسرائيليين» وهم يعبرون مياه البحر الأحمر المقسمة وموسىٰ -عليه السلام- رافعًا عصاه، في حين جنود فرعون علىٰ وشك أن يغرقوا. واقترح «توماس جيفرسون» أن يظهر الخاتم أبناء «إسرائيل» في التيه، «تقودهم غمامة في النهار، ولسان من لهب في المساء»[1].

يحظىٰ الإنجيليون بعناية كبيرة من الرئيس الحالي «دونالد ترامب»، بالنظر لتصويت ٨١٪ من أتباع الطائفة لصالحه في انتخابات الرئاسة عام ٢٠١٦م، ما دفعه لتعيين بعض أتباع الطائفية كمستشارين، إضافة إلىٰ استجابته لضغوطهم المطالبة بنقل السفارة الأمريكية إلىٰ مدينة القدس المحتلة.

النفوذ الذي تحظىٰ به هذه الطائفة في الدولة العبرية جدير بالملاحظة، فعلاقاتهم متشعبة ومعمقة مع كثير من الساسة الإسرائيليين، ولهم نفوذ واضح في أروقة الحكومة والكنيست، لدرجة أن قيادات الإنجيليين يرسمون جداول الأعمال السياسي لبعض نواب الكنيست، ويؤثرون في صياغة السياسة الخارجية للكيان الصهيوني.

مع ذلك فإن تغلغل هذه الطائفة يستفز بعض الفئات ورجال الدين في «إسرائيل» الذين يتهمون الإنجيليين بأن أجندتهم تتجاوز قضية دعم الدولة اليهودية، إلىٰ تهيئة المنطقة للمجيء الثاني للمسيح، حيث يعتقد بعض قادة الطائفة أنه سيتم القضاء علىٰ ثلثي اليهود في حرب «يأجوج ومأجوج»، لذلك كتب بعض الحاخامات محذرًا -شلومو أفينر-: «افهموا.. ليس هناك شيء يدعىٰ مسيحيون يحبون إسرائيل»، ويقول: «لسوء حظِّنا، فإنَّ المسيحيين لا

(١) مادلين أولبرايت، مرجع سابق ص٢٩.

يتركوننا وإنما يبحثون باستمرار عن طرق مبتكرة لإدخال دينهم في إسرائيل ... إنَّهم ينظِّمون شعائر مسيحية جماعية مفتوحة لليهود، في حائط المبكىٰ ... والمنظِّمون هم السفارة المسيحية في القدس، قساوسة، وعاظ مسيحيون، إنجيليون وحجاج ... ولذلك فإنَّنا ننضمُّ لدعوات الحاخامات الرئيسين بمنع أيِّ نشاط مشترك معهم»(١).

الدين إذًا يحتل مكانة بارزة في السياسة الأمريكية.

لكن كيفية اندماج الدين في مشروع سياسي وفق المفهوم والثقافة الأمريكية، عملية معقدة بعض الشيء، ويلجأ كثيرون عادة لأبسط وسائل التحليل، وهي إسقاط المصطلحات والمفاهيم الأجنبية -المتشابهة لفظًا- علىٰ الواقع المحلي، وهذا خطأ كبير.

في عبارة مختصرة، فإن الدين في السياسة الأمريكية يحتل مكانة مزدوجة تجعله محركًا للأحداث دون قيادتها، وأحيانًا كثيرة ما يختبئ وراءه السياسيون ليحركوا به الأحداث، كما يقول أحد الآباء المؤسسين لتيار المحافظين الجدد -ليو شتراوس- (المفكر اليهودي من أصل ألماني ١٨٩٩-١٩٧٣م): «علىٰ الحكام ألا يربطوا أنفسهم به ولكن أن يستخدموه».

كان عدد المنتمين لهذا التيار في إدارة جورج بوش الابن يقدر بنحو ٦٠ شخصًا، أغلبهم غير متدين بالمعنىٰ الحرفي، ولكنهم يتبنون مفهوم «شتروس» عن الدين أنه «كالغراء الذي يبقي المجتمع متماسكًا»(٢).

---

(١) موقع المصدر- يهودي- ٢١/ ٢/ ٢٠١٥م، ١٧/ ٨/ ٢٠١٦م/ ٢١/ ١/ ٢٠١٨م.

(٢) د. محمد العبيدي، مقال: استخدام اليمين المتطرف الأمريكي للدين في السيطرة على شيعة العراق العرب، ١٥-٢-٢٠٠٥م، صحيفة الحقائق.

بدأ وصول هذا التيار إلىٰ مستوىٰ النخبة الحاكمة في عهد الرئيس «رونالد ريجان» الذي حكم الولايات المتحدة فترتين متتاليتين، وكان وصوله للبيت الأبيض انتصارًا ساحقًا للمحافظين الجدد.

من المبادئ التي يتبناها هذا التيار أنه لكي يبقىٰ المجتمع متحدًا يجب أن يكون مهددًا من الخارج، وهنا يختلط الدين بالسياسة إلىٰ درجة كبيرة، فالتهديد الرئيس في ذلك العهد يأتي من الإسلام، وتحديدًا من المنطقة العربية، وهذا يتلاءم مع نزعة التدين، وقد نجح المحافظون الجدد في تطبيق هذا المفهوم للتحضير لحربهم ضد العراق.

في أحد استطلاعات الرأي بعد الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م مباشرة ذكر ٣٪ فقط بأن «صدام حسين» يمكن أن يكون الشخص الذي يقف وراء الهجمة، لكن مع حلول شهر يناير ٢٠٠٣م تغيرت اتجاهات الرأي العام بشكل دراماتيكي، ففي استطلاع أجرته دار «نايت ريدر» للنشر كان ٤٤٪ من الأمريكيين مقتنعين إما أن غالبية أو بعض مرتكبي أحداث ١١/ ٩ كانوا عراقيين[١].

نجحت إستراتيجية شتراوس في لصق «غراء» الدين بـ«صدام حسين» حتىٰ صار قتاله واجبًا دينيًا لدىٰ كثيرين.

«ستيفن إيغن فانك» هو أول أمريكي رافض للخدمة العسكرية لأن الحرب -علىٰ حدِّ قوله- «غير أخلاقية بسبب الخداع الذي مارسه زعماؤنا»، قال كاهن عسكري لـ«فانك»، وهو كاثوليكي: «قال لنا المسيح أن نحمل سيفًا»[٢]، جرد «جورج بوش» سيفه إذًا، وقاتل «صدام حسين» بالإنجيل.

---

(١) السجل الأسود ١١٦-١١٧.

(٢) عراق المستقبل، جيف سيمونز،ص ٢.

من سمات التدين الإنجيلي للسياسة الأمريكية، أن الرؤساء -المتدينين- يتحركون بناء على «إلهامات» إلهية للقيام بالمهام المقدسة، فعندما قرر الرئيس الأمريكي الأسبق «ويليام ماكينلي» غزو الفلبين نهاية القرن التاسع عشر، قال: «الحقيقة هي أنني لم أكن أريد الفيليبين، وعندما قدموا إلينا كهبة من الآلهة لم أكن أعرف ما الذي أفعله بهم.. كنت أذرع أرض البيت الأبيض كل ليلة حتى منتصف الليل.. ركعت على ركبتي ودعوت الله القدير أن ينير دربي ويهديني سواء السبيل.. وذات ليلة اهتديت إليها.. لم يتبقَّ لدينا سوى أن نأخذهم جميعًا ونرفع معنوياتهم ونحضرهم وننصرهم»(١).

وذكرت صحيفة هآرتس الإسرائيلية أن أحد القادة الفلسطينيين أخبر مراسلها أن الرئيس «بوش» قال له ذات مرة: «طلب مني الله أن أضرب القاعدة فضربتها، ثم أمرني بضرب صدام حسين وقد ضربته، وأنا الآن مصمم على حل مشكلة الشرق الأوسط»(٢).

تنقل «مادلين أولبرايت» -وزيرة الخارجية في عهد بيل كلينتون- في مذكراتها عن أحد المعلقين الأمريكيين يصف السياسة الخارجية لـ«جورج بوش»، بالقول إنها: «أكثر من استباقية، إنها متطاولة دينيًا، وليست أحادية فحسب، وإنما مسيحانية خطرة، وليست متعجرفة فحسب، وإنما تقف عند حدود الوثنية والكفر»(٣).

من النماذج المعبرة عن تأثير البعد والانتماء الديني الأيديولوجي في السياسة الخارجية، نموذج النائب الجمهوري في الكونجرس، «فرانك وولف».

---

(١) مادلين أولبرايت، مرجع سابق ص٣٢.

(٢) العراق منطق الانسحاب، ص١٢٧.

(٣) مادلين أولبرايت، مرجع سابق ص١٨.

«وولف» نائب مخضرم يوصف بأنه مهندس قوانين الشرق الأوسط، وهو نائب جمهوري عن إحدىٰ دوائر ولاية فرجينيا منذ يناير عام ١٩٨١م إلىٰ يناير عام ٢٠١٥م، أي ٣٤ عامًا متواصلة، وهو أطول النواب خدمة في الكونجرس عن الولاية، وتُعرف دائرته بأغلبية سكانها المحافظين المتدينين مسيحيًّا.

ولد «وولف» عام ١٩٣٩م بولاية بنسلفانيا، وهو مسيحي ينتمي إلىٰ طائفة «الكنيسة المشيخية الإنجيلية» التابعة لتعاليم «جون كالفن».

ويحتفظ وولف بعلاقة وثيقة مع أقباط المهجر المصريين، وقد تقدم في أثناء عمله بالكونجرس بعدد من القوانين المثيرة للجدل والتي لا تخفىٰ علاقتها بانتمائه الديني.

من هذه المشروعات، مشروع قانون يدين مصر بانتهاك حقوق الإنسان والأقليات، ويطالب الحكومة بكثير من الإصلاحات، والقانون في مجمله يركز علىٰ حالة الأقباط داخل مصر، وشرائح دينية هامشية مثل البهائيين والشيعة.

وقد دعم وولف غزو العراق منذ البداية، وتبنىٰ المطالبة بمنح الرئيس جورج بوش سلطة التدخل العسكري في العراق، كما أيد قانون «باتريوت» أي «الوطنية» والذي يفرض قيودًا علىٰ حرية المواطن الأمريكي بدعوىٰ محاربة الإرهاب، وهو ينادي دائمًا بضرورة التدخل في دارفور، وإنزال أقصىٰ عقوبات علىٰ السودان، وقد تبنىٰ قانون «معاقبة السودان» عام ٢٠٠٧م، كما تشارك مع السيناتور «أرلن سبكتر» في تقديم مشروع قانون «الاضطهاد الديني» عام ١٩٩٧م والذي نتج عنه تأسيس مكتب بالبيت الأبيض تحت مسمىٰ «مكتب مراقبة الاضطهاد الديني»، وينص نظام المكتب علىٰ فرض عقوبات فورية علىٰ أي حكومات تقوم بممارسة

اضطهاد ديني ضد الأقليات الدينية علىٰ أراضيها، أو حتىٰ إذا فشلت في حماية تلك الأقليات، وهي مسوغات واضحة للتدخل في شؤون الدول الأخرىٰ، وكانت السودان من الدول التي استهدفها المكتب(١).

وآخر قانون تبناه «وولف» وأُقِرّ عام ٢٠١٦م بعد مغادرته الكونجرس، هو قانون «فرانك وولف للحرية الدينية الدولية»، وهو تعديل لقانون الحريات الدينية الصادر عام ١٩٩٨م.

هذا القانون يطالب بتحديد ومعاقبة كل الحكومات الأجنبية التي تنتهك الحريات الدينية وفق تصورهم، حيث ستُعدُّ قائمة مراقبة خاصة من الدرجة الثانية للدول التي تعدُّها الإدارة الأمريكية مخالفة للحريات الدينية، وأي دولة تضاف إلىٰ قائمة المراقبة في تقريرين سنويين متتاليين لوزارة الخارجية، يجب وضعها علىٰ قائمة الدول التي تشكل تهديدًا خاصًّا(٢).

هذا نموذج لنائب واحد، تؤثر نشاطاته البرلمانية ذات الخلفية الدينية في تأجيج نزاعات سياسية تصل إلىٰ مستوىٰ الحرب أحيانًا في دول إسلامية: العراق، والسودان، ومصر.

٢- السياق الجماهيري.. التعبئة السياسية -الشرعية السياسية:

الدين بوصفه من أقوىٰ الروابط المجتمعية، فإنه يستخدم بوفرة للتعبئة السياسية، وللحصول علىٰ الشرعية، وللتحشيد للمشاريع الوطنية الكبرىٰ، وللحرب أو السلام، وحتىٰ لتحقيق مصالح جزئية سياسية أو غيرها.

---

(١) بتصرف عن تقرير واشنطن ٩-٨-٢٠٠٨م.

(٢) العربية نت ٢٧/ ١٢/ ٢٠١٦م.

هذا النهج التوظيفي للدين ليس قاصرًا علىٰ السياسة الغربية، بل تطبيقاته موجودة في كل المجتمعات تقريبًا، وفي كل زمان.

توافق حكام إيران المتعاقبين من أسر مختلفة علىٰ استمداد جزء من شرعيتهم السياسية عن طريق إظهار التزلف لـ«مراقد الأئمة» في العراق، وتقديم الدعم والحماية لها، وإرهاق أهل السنة وحربهم والتنكيل بهم.

في مطلع القرن السابع عشر، حرص الشاه «عباس الكبير» علىٰ إظهار تقديسه الفائق للنجف، فقصد إليها زائرًا متزلفًا وخدم زوار قبر «علي بن أبي طالب» رضي الله عنه، وكنس الضريح وأطلق علىٰ نفسه لقب: «كلب عتبة علي»، ونقش هذا اللقب علىٰ خاتمه واستعمله في المعاملات الرسمية[1].

أصبحت عادة حكام إيران كلما دخلوا بغداد أن يذبحوا السنة وينبشوا قبر «أبي حنيفة»، وقد ذكر العالم الشيعي «نعمة الله الجزائري» في كتابه الأنوار النعمانية أن الشاه «عباس الصفوي» لما فتح بغداد أمر بأن يجعل قبر «أبي حنيفة» كنيفًا[2]. وقد أوقف وقفًا شرعيًا عبارة عن «بغلتين» وأمر بربطهما علىٰ رأس السوق، حتىٰ إن كل من يريد الغائط يركبهما ويمضي إلىٰ قبر «أبي حنيفة» لقضاء الحاجة. وقد طلب خادم قبره يومًا فقال له: ما تخدم في هذا القبر وأبو حنيفة الآن في أسفل الجحيم؟ فقال: إن في هذا القبر كلبًا أسود دفنه جدك الشاه إسماعيل لما فتح بغداد قبلك فأخرج عظام أبي حنيفة وجعل موضعها كلبًا أسود فأنا أخدم ذلك الكلب»[3].

---

(١) د. مصطفى اللباد، حدائق الأحزان، إيران وولاية الفقيه، دار الشروق، القاهرة ص٤٠.

(٢) أي مكان لقضاء الحاجة.

(٣) دراسة بعنوان: مفهوم الناصب عند الشيعة، موقع موسوعة الرشيد٥-٩-٢٠٠٧م http:// alrashead.net.

وفي عهد الملك الإيراني «نادر شاه»، أمر عام ١٧٤٢م بتذهيب قبة مرقد «علي بن أبي طالب» رضي الله عنه في النجف، وتكلفت العملية مبلغًا باهظًا، وبلغت أجور العمال فقط خمسين ألف تومان، وكان مبلغًا باهظًا جدًّا بمعايير ذلك الزمان، حتىٰ كان يُضرب به المثل في التبذير، فيقال: «تبذير نادر في النجف»، وقد أثَّر تذهيب القبة في سكان الريف والبادية حيث كانوا يشاهدونها في الصحراء من مسافات شاسعة وهي تلمع تحت أشعة الشمس فيزداد ارتباطهم بالتشيع(١).

في حالات مختلفة، يمكن أن يستخدم الدين كورقة للضغط أو أداة في السياسة الخارجية:

بعد تأسيس دَولة العراق عام ١٩٢١م، لم تكن علاقة إيران بالنظام الملكي في بغداد جيدة، فوضعت طهران قيودًا علىٰ زيارة الإيرانيين لمدن العتبات في العراق، فتدهور اقتصادا النجف وكربلاء من جديد طيلة الثلاثينيات والأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين، وساءت علاقة العلماء الشيعة في العراق بحاكم إيران «رضا شاه» لتسببه في حرمانهم من إيرادات وفيرة(٢).

من المفارقات الطريفة في تاريخ توظيف الدين في الخطاب الجماهيري، ما فعله القائد العسكري نابليون بونابرت، الذي تجاوز كل المعايير ليخاطب ديانتين مختلفتين خطابًا جماهيريًّا يُشعِر بالانتماء والدعم.

قام بونابرت بتوجيه خطاب عاطفي للمسلمين، وآخر مماثل لليهود، من أجل دفعهم لدعمه في حروبه وصراعاته السياسية والعسكرية.

---

(١) د. علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، مكتبة الصدر، ج١ ص١٢٨.
(٢) شيعة العراق، مرجع سابق ص٣١١.

عندما بدأ نابليون بونابرت [1] حملته العسكرية لغزو مصر وبلاد الشام، جهز رسالة مطبوعة -قبل أن تتحرك قواته من الموانئ الفرنسية- يخاطب فيها المصريين ويزعم فيها إسلامه، وأنه صديق وحليف لخليفة المسلمين، وأنه حريص علىٰ تثبيت سلطانه المهدد من المماليك في الداخل، أو من الملوك المسيحيين في الخارج.

وبعدما استقر به الوضع في مصر، وأطلق حملته الثانية في اتجاه فلسطين، جهز خطابًا ثانيًا موجهًا إلىٰ اليهود هذه المرة، يخاطب فيه مشاعرهم الدينية وذكرياتهم القديمة، ويطالبهم فيها باستعادة حقوقهم المسلوبة من غاصبيها -أي المسلمين- ويخاطبهم بـ«ورثة فلسطين الشرعيين»، ويؤكد أنه جاء بجيشه من فرنسا استجابة للنداء الإلهي بنصرتهم علىٰ أعدائهم، أي المسلمين.

كانت رسالة نابليون الثانية التي أظهرها في أثناء حصار عكا عام ١٧٩٩م عبارة عن نداء إلىٰ يهود العالم خاصة في إفريقيا وآسيا، فهو لم يوزع في فلسطين وحدها، وإنما جرىٰ توزيعه في الوقت نفسه في فرنسا وإيطاليا والإمارات الألمانية وإسبانيا، وغيرها من الدول.

وهذه مقتطفات من النداء العاطفي الذي كان له صدىٰ كبير وتداعيات سياسية هائلة، كونه أول من فتح المجال لإقامة دولة يهودية علىٰ أرض فلسطين:

«من نابليون بونابرت القائد الأعلىٰ للقوات المسلحة للجمهورية الفرنسية في إفريقيا وآسيا، إلىٰ ورثة فلسطين الشرعيين (يقصد اليهود).

أيها الإسرائيليون، أيها الشعب الفردي الذي لم تستطِع قوىٰ الفتح والطغيان أن تسلبه نسبه ووجوده القومي، وإن كان قد سلبته أرض الأجداد فقط.

---

(١) المفاوضات السرية ج١، مرجع سابق ص٣١-٣٢.

إن مراقبي مصائر الشعوب الواعين المحايدين -وإن لم تكن لهم مقدرة الأنبياء مثل أشعياء ويوئيل- قد أدركوا ما تنبأ به هؤلاء بإيمانهم الرفيع أن عبيد الله سيعودون إلىٰ صهيون وهم ينشدون، وسوف تعمهم السعادة حين يستعيدون مملكتهم دون خوف.

انهضوا بقوة أيها المشردون في التيه. إن أمامكم حربًا مهولة يخوضها شعبكم بعد أن عدَّ أعداؤه أن أرضه التي ورثها عن الأجداد غنيمة تقسم بينهم حسب أهوائهم.

إن الظروف لم تكن تسمح بإعلان مطالبكم أو التعبير عنها، بل إن هذه الظروف أرغمتكم بالقسر علىٰ التخلي عن حقكم.. ولهذا فإن فرنسا تقدم لكم يدها الآن حاملة إرث إسرائيل.. إن الجيش الذي أرسلتني العناية الإلهية به، ويمشي بالنصر أمامه وبالعدل وراءه، قد اختار القدس مقرًّا لقيادته، وخلال بضعة أيام سينتقل إلىٰ دمشق المجاورة التي استهانت طويلًا بمدينة داود وأذلتها.

سارعوا هذه هي اللحظة المناسبة التي قد لا تتكرر آلاف السنين، للمطالبة باستعادة حقوقكم ومكانتكم بين شعوب العالم، تلك الحقوق التي سلبت منكم لآلاف السنين وهي وجودكم السياسي كأمة من الأمم، وحقكم الطبيعي المطلق في عبادة إلهكم يهواه، طبقًا لعقيدتكم، وافعلوا ذلك في العلن وافعلوا إلىٰ الأبد.. «بونابرت»

هذا التوظيف الديني في السياق الجماهيري لا يشترط أن يكون في قضايا كبرىٰ، أو صراعات عظمىٰ، بل يتبدىٰ أيضًا في مواقف محدودة، أو إشارات عابرة، المهم أنه يعبر عن ثقافة أساسية في العمل السياسي، وهي مخاطبة الجماهير في سياق ديني طلبًا لإقناعهم.

كان حكام الدولة اليهودية حريصين علىٰ ترسيخ الهوية اليهودية للمجتمع الجديد من خلال إعادة إحياء اللغة العبرية وجعلها اللغة الرسمية منذ إعلان تأسيس الدولة عام ١٩٤٨م، وذلك في مواجهة رفض في أوساط بعض فئات اليهود لتأسيس دولة في فلسطين، كما أن كثيرًا من اليهود المهاجرين كانوا متأثرين ومتمسكين بثقافتهم السابقة، ويفتقدون الروابط المشتركة في المجتمع الجديد.

في ذلك الوقت طلب بن جوريون -أول رئيس وزراء للكيان الصهيوني- من «جولدا مائير» أن تغير اسمها الحقيقي إلىٰ اسم عبري، كانت «جولدا» من أصل روسي واسمها هو «جولدا موشىٰ اسحق مابوفتش»، فقامت بتغييره إلىٰ «جولدا مائير»، وفعل مثلها كثير من السياسيين الإسرائيليين[١].

يؤدي الدين دورًا كبيرًا أيضًا في السياق الثوري، من أجل تحفيز وتعبئة الجماهير، في إيران مثلًا، كانت خطب زعيم الثورة «آية الله الخميني» لها أثر كبير في تحشيد الجماهير ضد شاه إيران وفي إكسابه مرتبة الزعامة المطلقة، التي ساعدته لاحقًا في إعادة تعريف الثورة والحكم ليؤسس دولته الدينية المتطرفة.

كانت خطب الخميني تسجل علىٰ شرائط كاسيت ثم تُهرَّب إلىٰ داخل إيران ليتداولها الناس في مختلف أنحاء البلاد، وربما لا يعرف كثيرون أن التيار الديني بزعامة الخميني لم يكن منفردًا بتدبير الثورة أو التخطيط لها، فقد كانت هناك تيارات أخرىٰ دينية، وقومية وليبرالية وعلمانية، وكان هناك رجال دين آخرون أيضًا، كلهم كانوا شركاء في الثورة، لكن إتقان الخميني لتوظيف خطابه الديني

---

(١) اعترافات جولدا، مرجع سابق ص٢٤.

في التحشيد الجماهيري، جعله زعيمًا منفردًا، حظي باستقبال جماهيري تاريخي عقب عودته مظفرًا إلىٰ مطار طهران، قُدِر وقتها بنحو ٣ ملايين إيراني. في السنوات اللاحقة تخلص الخميني من كل شركائه الثوريين.

من أبرز ملامح النفاق الديني في خطاب الخميني الجماهيري، هو التناقض بين وصفه الغرب وأمريكا تحديدًا بـ«الشيطان الأكبر» وانتقاده الدائم لها، وبين اتصالاته السرية معهم.

أطلق الخميني علىٰ أمريكا وصف الشيطان الأكبر استنادًا إلىٰ قوله تعالىٰ: (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوًّا)، فكان يحذر من أساليب أمريكا الناعمة، ويقول: «علىٰ شبابنا أن يعلم أن أمريكا لا تدخل الميدان بالسلاح، بل بالقلم»، وكان يقول: «لو قالت أمريكا لا إله إلا الله فلا تصدقوها»[١].

مما كُشِف في السنوات الأخيرة عن الاتصالات السرية بين الخميني والغرب، ما نشرته بي بي سي الفارسية في يونيو ٢٠١٦م من وثائق تعود إلىٰ وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، وفيها معلومات تبين عمق الاتصال والتنسيق بين الخميني والأمريكيين قبل الثورة.

تضمنت الوثائق نص رسالة موجهة من الخميني عام ١٩٦٣م إلىٰ الرئيس الأمريكي في ذلك الوقت «جون كينيدي»، طلب الخميني في رسالته ألا يساء فهم تهجمه اللفظي ضد أمريكا لأنه يؤيد مصالح واشنطن في إيران، وقال إنه يعتقد بأن الوجود الأمريكي في إيران كان ضروريًّا لإحداث توازن ضد الاتحاد السوفيتي والنفوذ البريطاني المحتمل، وشرح اعتقاده بأهمية التعاون الوثيق بين الإسلام وبين أديان العالم وخاصة المسيحية.

---

(١) أمريكا الشيطان الأكبر، د. أكرم بركات، موقع سراج القائم.

الطريف أنه بعد إرساله هذه الرسالة بعام واحد فقط، قرر الشاه أن يطرد الخميني إلىٰ المنفىٰ الاختياري بالخارج، فشن الخميني هجومًا حادًّا علىٰ الشاه بسبب تميد الحصانة القضائية للجنود الأمريكيين في إيران، وأعلن -في تناقض عجيب- أن «الرئيس الأمريكي يعلم أنه الشخص الأكثر كراهية بين أمتنا»(١).

في خطاب آخر موجه إلىٰ الرئيس الأمريكي الأسبق «جيمي كارتر»، في ٢٧ يناير ١٩٧٩م، عرض «الخميني» صفقة علىٰ الرئيس بأن يستخدم نفوذه علىٰ الجيش الإيراني الذي يستمع قادته للأمريكيين، في مقابل أن يتولىٰ «الخميني» تهدئة الشعب الإيراني، وذلك حتىٰ يتسلم السلطة، وبالفعل استجاب «كارتر» وطلب من الشاه أن يغادر إيران في إجازة مؤقتة، تحولت إلىٰ دائمة بعد عودة الخميني إلىٰ إيران.

قبل ذلك عُقِدت جلسات مباحثات سرية استمرت أسبوعين بين الخميني ومساعديه وبين مسؤولين أمريكيين بارزين في مقره في فرنسا، وبعد مغادرة الشاه بيومين أخبرت واشنطن مبعوث الخميني أنها توافق من حيث المبدأ علىٰ فكرة تغيير الدستور وإلغاء النظام الملكي، وقدمت للخميني معلومة مهمة تقول بأن القادة العسكريين في الجيش الإيراني أصبحوا أكثر مرونة فيما يتعلق بمستقبلهم السياسي.

وقال الخميني في رسالة أخرىٰ بعد عودته: «سترون أنه لا يوجد عداء خاص بيننا وبين أمريكا، وسترون أن الجمهورية الإسلامية المبنية علىٰ الفلسفة والقوانين الإسلامية، لن تكون إلا حكومة إنسانية، تسعىٰ للسلام ومساعدة البشرية»(٢).

---

(١) الشيطان الأكبر كصديق، العلاقة السرية بين الخميني وأمريكا، موقع نون، ٥/ يونيو/ ٢٠١٦م.
(٢) صحيفة القدس ٣/ ٦/ ٢٠١٦م.

كما تعهد للأمريكيين بأنه لن يوقف تصدير النفط، ولن يقوم بتصدير الثورة إلىٰ الدول المجاورة.

تجربة «الخميني» في القيادة الدينية الجماهيرية للثورات تحولت إلىٰ أيقونة، تبنتها وسائل الإعلام الأمريكي لـ«قولبة» ومهاجمة أي ثورة تتفجر في دولة ما علىٰ نحو لا يتلاءم مع المصالح الأمريكية، حتىٰ لو كانت دولة مسيحية.

في أمريكا اللاتينية علىٰ سبيل المثال، عندما اندلعت حركات ثورية في عدة دول في السبعينيات والثمانينيات من القرن الماضي، كان للكنيسة دور كبير في قيادة عملية التحول الديمقراطي، في السلفادور مثلًا، قاد الثورة رئيس الأساقفة «أوسكار أرنولفو روميرو» فأطلقت عليه وسائل الإعلام الأمريكية لقب «آية الله روميرو»[(١)].

٣- السياق التاريخي الديني:

الدين في هذا السياق يؤثر بحسب الانتماء الذي يدفع إلىٰ الاصطفاف في مواجهة صراع تاريخي ذي صبغة دينية أو حضارية، نجد هنا أن الاصطفاف يكون بحسب الانتماء التاريخي إن صح التعبير، وليس بحسب الحالة الدينية.

وهنا يتضح ذكاء التخريج الذي قدمه «هنتنجتون» لهذه المعضلة، بتوسيع الانتماء إلىٰ: «الحضارة» وليس إلىٰ مطلق «الدين». وهو تخريج يتبين ارتباطه بالحالة الغربية أكثر من غيرها عندما نتأمل بعض التقسيمات الحضارية التي أوردها في كتابه، مثل: «الحضارة الإفريقية»، أو حضارة «أمريكا اللاتينية»، فهذه التجمعات البشرية لا يمكن بحال أن ينطبق عليها وصف الحضارة الواحدة

---

(١) أمريكا أرض الدنيا والدين أيضًا، مرجع سابق.

المشتركة، لكن «هنتنجتون» أوردها لأن كثيرًا من المفكرين الغربيين ينزعون إلىٰ تفسير العالم من منظور الغرب، فلأن الدول الغربية استهدفت إفريقيا استعماريًّا ككتلة واحدة -ولا تزال- إذًا فلتصبح إفريقيا حضارة واحدة مشتركة.

ولأن الدول الغربية -الولايات المتحدة تحديدًا- تستهدف أمريكا اللاتينية استعماريًّا ككتلة واحدة مشتركة، إذًا فلتصبح أمريكا اللاتينية حضارة واحدة مشتركة.

الحاصل أن الدين في هذا السياق التاريخي يؤثر بوصفه عنصر فرز وتصنيف في الصراعات، فهو يحدد الولاءات والاتجاهات السياسية لأطراف الصراع. بالطبع لا يحدث ذلك في كل الحالات، أو بالدرجة نفسها من الحماسة لدىٰ كل فئات المجتمع، لكنه يبرز بصفة أساسية في الصراعات التي تنشب بين دول تنتمي إلىٰ حضارات مختلفة، أو دول تنتمي إلىٰ طوائف مختلفة داخل الحضارة ذاتها.

ونضرب أمثلة علىٰ هاتين الحالتين:

١. صراع تاريخي بين حضارتين.

٢. توظيف صراع تاريخي بين طائفتين في حضارة واحدة، كنسق فرعي لصراع تاريخي بين حضارتين.

- الحالة الأولىٰ: الصراع بين حضارتين:

نستشهد هنا بالموقف اليهودي الصهيوني، حيث يخوض الإسرائيليون صراعًا مستميتًا مع العرب -المسلمين- فيما يتعلق باحتلال فلسطين والقدس.

يمثل الكيان الصهيوني هنا الحضارة الغربية في مواجهة الحضارة الإسلامية.

إذًا كيف يبرز دور الدين في ترسيخ الهوية التي يتطلبها هذا الصراع؟

يمكن تبين ذلك من خلال تناقضات اليمين واليسار داخل النخبة السياسية «الإسرائيلية»، ونركز هنا علىٰ استعراض نموذج «جولدا مائير» وزيرة الخارجية ورئيسة الوزراء الإسرائيلية السابقة، فهي من أصل روسي ثم هاجرت إلىٰ الولايات المتحدة، ثم هاجرت مرة أخرىٰ إلىٰ فلسطين، وهي ليست متدينة، بل ذات توجه علماني يساري، مع ذلك يمكن تلمس أثر الدين في كثير من خياراتها وتعليقاتها وقراراتها السياسية المتعلقة بالصراع التاريخي مع العرب -المسلمين-.

تتحدث «جولدا» عن الرابطة القوية التي تجمع طوائف اليهود واتجاهاتهم جميعًا علىٰ أرض فلسطين، فتقول: إن «الرمز الحي علىٰ استمرارية التاريخ اليهودي، والرابطة التي ربطت -وما زالت تربط- بين الشعب اليهودي وهذه الأرض. وعلىٰ حدودها كانت، وما زالت حتىٰ يومنا هذا، تعيش جماعات من اليهود المتطرفين في تدينهم، الذين ترجع أصولهم إلىٰ القرن السادس عشر في أوروبا الشرقية، والذين كانوا يرون أن يهودًا مثلي ومثل موريس -زوجها- ليسوا سوىٰ ملحدين وثنيين»(١).

فـ«جولدا» بالنسبة للمسلمين هي رمز للتعصب والتطرف السياسي ذي الصبغة الدينية، في حين ينظر إليها المتدينون اليهود علىٰ أنها ملحدة.

ورغم اتفاق اليهود علىٰ تأسيس دولة علىٰ أساس ديني، واسمها نفسه ذو مرجعية دينية، وتعاملها مع العرب ينطلق أساسًا من منطلقات دينية، إلا أننا نكتشف عند متابعة تفاعلاتهم خارج السياق الصراعي مع الخصوم أن الفروقات بينهم واضحة وجلية حتىٰ فيما يتعلق بحجم الدين داخل الدولة، وبين اليهود أنفسهم.

---

(١) اعترافات جولدا، ص١٠٨.

تروي «جولدا مائير» أنها شاركت في اجتماع للمجلس القومي لاختيار اسم الدولة ووضع الصيغة النهائية للإعلان عنها، تقول: «وفي آخر لحظة دارت مناقشة تريد ذكر إشارة للرب، وكانت آخر جملة.. تبدأ بالكلمات التالية: «نحن نثق في صخرة إسرائيل، ونضم أيدينا شهودًا علىٰ هذا الإعلان»، وكان بن جوريون يرىٰ أن هذا النص من الإبهام بحيث يرضي اليهود الذين لا يتصورون إعلان قيام إسرائيل دون إشارة للرب، وأولئك الذين يعارضون بشدة أي إشارة كهنوتية في الإعلان».

ومن المعروف أن كلمة «الصخرة» لها قدسية عند اليهود، إذ وردت في التوراة كوصف أو اسم لله -تعالىٰ الله عن ذلك- حيث يرد نص علىٰ لسان داود عليه السلام يقول: «الرب صخرتي» و«صخرة إسرائيل»، كما تذكر أن داود دعا في المزامير: «إلهي وصخرة خلاصي»، وفي نص آخر يقول: «من هو إله غير الرب، ومن هو صخرة غير إلهنا».

في المقابل يختص «المسيح» عليه السلام في «العهد الجديد» بوصف «الصخرة»[(١)].

هذا النص في «إعلان الدولة» لم يعجب ممثل الأحزاب الدينية الحاخام «فيشمان ميمون»، الذي طلب بأن تكون الإشارة إلىٰ «الرب» واضحة في الإعلان وصريحة، بأن يضاف إلىٰ العبارة كلمة «ومخلصها». في المقابل اصطف «أعارون زيسلنج» -من الجناح اليساري في حزب العمال- في الاتجاه المعاكس قائلًا: «لا أستطيع أن أوقِّع علىٰ وثيقة تشير إلىٰ الربِّ الذي لا أؤمن به». -وهذا وصف «جولدا مائير» نفسها-.

---

(١) جوش ماكدويل، بارت لارسون، حقيقة لاهوت المسيح، منصة كنوز، ص.

قضىٰ «بن جوريون» الصباح بطوله وهو يحاول إقناع اليهودي «ميمون» الذين يؤمن بالرب، واليهودي «زيسلنج» الذين لا يؤمن بالرب، بأنَّ «صخرة إسرائيل» تحتمل معنيين، فهي في الوقت الذي تحمل فيه معنىٰ «الربِّ» للكثير من اليهود؛ فإنها يمكن أن تُعد إشارة رمزية علمانية إلىٰ «قوة الشعب اليهودي».

في النهاية وافق «ميمون» علىٰ حذف كلمة «المخلص» من النصِّ.

تقول «جولدا مائير» في مذكراتها: «والمضحك أن أول ترجمة إنجليزية للإعلان أُعدت للنشر بالخارج في اليوم نفسه لم تتضمن أي إشارة إلىٰ «صخرة إسرائيل»؛ إذ إنَّ الرقيب العسكري حذف الفقرة الأخيرة بأكملها كإجراءٍ أمني؛ لأنها ذكرت تاريخ ومكان الاحتفال»[1].

الانتماء إلىٰ اليهودية هنا بالنسبة للعلمانيين تحول إلىٰ قومية، فهم يرفضون محتوىٰ الدين، لكنهم يتعصبون بشدة لقوميتهم المستمدة أصلًا من هذا الدين، فعلىٰ الرغم من أن بعضهم لا يؤمنون بالرب -كما تذكر جولدا- أو لا يهتمون بالمحتوىٰ الديني، فإن تحركهم في سياق القضية اليهودية، هو تحرك ديني بالأساس، بغض النظر عن معتقدهم الشخصي.

تصف «مائير» هذه الحالة بعبارات دقيقة، تقول: «وبقيت المسألة الدينية مثار متاعب طوال الخمسينيات، وكأن ما لدينا من المشكلات لم يكن كافيًا، وكانت تلك المسألة تحدث فرقعات بين الحين والآخر، تتلوها أزمات وزارية. ويكفي أننا لم نجد حتىٰ الآن تحديدًا واضحًا لموقع الدين من الدولة اليهودية، لقد أوقعتنا هذا المسألة في ورطات كثيرة، وما زالت حتىٰ اليوم»[2].

---

(١) اعترافات جولدا، ص١٨٤.

(٢) السابق ص٢١٧.

لذلك تجد في الكيان الصهيوني تناقضات لافتة، فهناك تيار يميني علماني، وتيار يميني أصولي، وتيار يساري علماني، وكلهم متطرف في التمسك بالأرض وعدم تقديم تنازلات في القدس أو الأقصىٰ أو بقية الأراضي المحتلة، كما أننا نجد تغلغلًا للأصولية بمفاهيمها حتىٰ في أوساط اليسار العلماني، وجدير بالذكر أن اليسار الإسرائيلي كان هو الذي يحكم منذ التأسيس عام ١٩٤٨م حتىٰ عام ١٩٧٧م، ومعلوم أنه من دون تأكيد الخلفية الدينية للدولة، لم يكن هذا اليسار العلماني ليحقق أيًّا من إنجازاته.

كان حزب «ماباي -حزب عمال أرض إسرائيل» -وهو الحزب اليساري المؤسس- ينادي بالصهيونية الاشتراكية، وهو الحزب المسؤول عن سياسة ترحيل الفلسطينيين، وفرض الحكم العسكري القمعي علىٰ عرب ٤٨، وعن احتلال القدس والضفة وغزة وسيناء والجولان، كما أن «شيمون بيريز» زعيم حزب العمل -يساري- هو الذي نفذ مذبحة قانا في لبنان عام ١٩٩٦م، وكان يلقب بـ«الأب الروحي للمستوطنات».

في المقابل فإن «مناحم بيغن» اليميني مؤسس حزب «الليكود» هو الذي عقد معاهدة «كامب ديفيد» مع مصر.

ربما تمكننا عبارة «أبراهام بورغ» رئيس الكنيست الأسبق من فهم هذه المعضلة، فهو يحلل العلاقة بين اليمين واليسار في الكيان بقوله: «إن اليسار يدعم الأفكار دائمًا، ولكن اليمين هو الذي ينفذ»(١).

هذه التناقضات داخل المجتمع السياسي اليهودي أفرزت سخرية لاذعة، سواء في شقها الديني أو السياسي، يقول الصحفي المصري «أنيس منصور»:

---

(١) الجزيرة ٢٥/ ٢/ ٢٠١٥م.

«صحيح أصبحت لهم دولة، ولكن الدولة ممزقة سبعين مذهبًا دينيًّا وسياسيًّا وعرقيًّا.. وإذا كانت النكتة تقول: إنه إذا اختلف اثنان من اليهود فإنهما يؤلفان ٣ أحزاب، فإن النكتة الجديدة تقول: إذا عاش يهودي في جزيرة وحده، فإنه سيبني معبدين؛ واحدًا لكي يصلي فيه، والثاني حتىٰ لا يصلي فيه، أي أنه مختلف حتىٰ مع نفسه»(١).

من المواقف التي تبين مستوىٰ التدين والإيمان عند «جولدا مائير» مقولتها الشهيرة عما تعده «خطأ» النبي موسىٰ عليه السلام، حيث قالت في أثناء حضورها حفل تكريم للمستشار الألماني «براندت» عام ١٩٧٣م: «دعوني أحدثكم عن مأخذنا علىٰ موسىٰ -عليه السلام-، لقد قادنا ٤٠ عامًا عبر الصحراء، لكي يجلبنا في نهاية الأمر إلىٰ المنطقة الوحيدة في الشرق الأوسط الخالية من النفط»(٢).

تقول ذلك في الوقت الذي تحتفي فيه بزياراتها إلىٰ «حائط البراق» وتروي ذلك في مذكراتها بعبارات مؤثرة، فتقول: «وذات مرة زرت الحائط الغربي (المبكىٰ)، ولم تكن تلك أول مرة، ولقد تربيت في بيت يهودي طيب، لكني لم أكن شخصيًّا ورعة، وإنما ذهبت لأني كنت أعلم أن هذا شيء يجب أن أفعله...»، ثم تقول عن زيارتها الأولىٰ للحائط بعد احتلالهم القدس عام ١٩٦٧م: «وعند الحائط وجدت الجنود الذين خاضوا المعارك الشرسة لتحرير الحائط، يقفون أمامه وهم يبكون، وكانت واحدة من أزحم لحظات عمري بالعواطف المؤثرة عندما جاءني جندي واحتضنني وألقىٰ برأسه علىٰ كتفي، وانفجرنا نبكي معًا، وكتبت كلمة (شالوم) علىٰ ورقة ودسستها في أحد الشقوق»(٣).

---

(١) أنيس منصور، معنى الكلام، مكتبة الأسرة، القاهرة ص٢٦٥.
(2) http://En.wikiquote.org/wiki/Golda_Meir

(٣) اعترافات جولدا، ص١٠٨-١٠٩.

بالعودة إلىٰ السياق التاريخي للصراع، تتساقط التناقضات وتتلاقىٰ الغايات، لنجد أن يسارية «جولدا مائير» لم تمنعها من احتقار العرب بصورة متكررة في مذكراتها وتصريحاتها.

تروي في مذكراتها رحلة الهجرة من أمريكا إلىٰ فلسطين عن طريق مصر -التي كانت تسمح في النصف الأول من القرن العشرين بمرور اليهود- تقول: «علىٰ متن الباخرة التي كانت ستنقلنا إلىٰ الإسكندرية؛ اقترحت علىٰ رفقائي أن نترك غرفنا ونشارك المجموعة الليتوانية علىٰ السطح، وألححت عليهم أننا يجب أن نثبت إخلاصنا لأهدافنا بأن نحيا معهم نفس الظروف القاسية، خاصة وأن راكبي السطح لا حق لهم في وجبات ساخنة، وأخيرًا وبعد تردد وافقوا، وزالت الحواجز بيننا وبني جماعة ليتوانيا، وانطلقنا جميعًا نغني بالعبرية والييديش. وفي الإسكندرية صعد رجال الشرطة المصريون إلىٰ سطح الباخرة بحثًا عن اثنين من الشيوعيين يدعيان رابابور، وتصادف وجود اثنين من زملائنا يحملان هذا الاسم، فأخذوهما وأعادوهما بعد ساعات طويلة مرهقة من التحقيق، وقد ألقىٰ هذا الحادث علينا جميعًا ظلالًا من الخوف والقهر، الأمر الذي جعلنا نقرر السفر بالقطار وتوجهنا إلىٰ المحطة لنسافر إلىٰ القنيطرة، وفي أثناء الطريق إلىٰ المحطة ذقنا أول طعم للشرق الأوسط بكل مرارته، إذ شاهدنا جموع الشحاذين وهم يرتدون الأسمال البالية والذباب يغطيهم، وعلىٰ الفور قفزت إلىٰ ذهني صورة شحاذي بينسك، وتصورت أنني سوف أصرخ لو أن أحدًا منهم لمسني، لكننا كنا قد تعودنا المآسي، فشققنا طريقنا وسط قذارة لا يمكن وصفها، وكانت الحرارة شديدة، ولم يكن هناك أي مصدر للماء، وأخيرًا ركبنا القطار -منهكين- لكننا مع ذلك كنا نغني فرحًا «بعودتنا إلىٰ صهيون»[1].

---

(١) المرجع السابق ص٨٩-٩٠.

الخلاصة هنا أن اليسار الإسرائيلي -العلماني- كان يقود الصراع مع الغرب سنوات طويلة، في سياق الانتماء التاريخي لليهودية، بغض النظر عن قناعات أتباعه بمحتوىٰ هذا الدين، أو طقوسه، أو صخرته.

- الحالة الثانية: توظيف الصراع بين طائفتين داخل حضارة واحدة:

المثال الأكثر حضورًا في هذا السياق، هو: ماهية المحدد الرئيس الذي يبني الغرب علىٰ أساسه علاقاتهم مع الشيعة في العالم الإسلامي.

بعبارة أكثر وضوحًا: كيف حددت الولايات المتحدة مواقفها في أزمة العراق؟

هل تبنت موقف الحياد بين الشيعة والسنة؟ أم أنها انحازت للعرب السنة؟ أم أنها اختارت الوقوف مع إيران والشيعة؟

هنا لا يمكن أيضًا إهمال أثر الدين في سياقه التاريخي -الانتماء الحضاري- لبلورة هذا الاصطفاف.

التاريخ ينقل لنا أن الحكام الصفويين في إيران كانوا علىٰ علاقة قوية بالغرب، في سياق حروب الطرفين الطويلة مع الدولة العثمانية، فكان الغرب يريدون من إيران أن تشغل الدولة العثمانية عن مواصلة الفتوحات في أوروبا، حتىٰ أن حاكم البرتغال أرسل إلىٰ «الشاه إسماعيل» يقول له: «إذا أردت أن تنقض علىٰ بلاد العرب أو تهاجم مكة فستجدني بجانبك في البحر الأحمر أمام جدة، أو في عدن، أو في البحرين، أو القطيف أو البصرة...، وسأنفذ له كل ما يريد»[1].

---

(١) د. علي محمد، الدولة العثمانية، عوامل النهوض وأسباب السقوط، دار الفجر للتراث، القاهرة ص٢٢٤.

لذلك لم تكن هناك مشكلة بالنسبة للغرب لتحديد موضعهم في الأزمة التي صنعوها، إذ يروي الحاكم الأمريكي للعراق «بول بريمر» في مذكراته، طبيعة العلاقة القوية التي جمعته مع «آية الله السيستاني»، يقول: «شجع القادة الشيعة بمن فيهم آية الله العظمىٰ السيستاني أتباعهم علىٰ التعاون مع التحالف منذ التحرير ولا يمكننا المخاطرة بفقدان تعاونهم»(١). وعبر له السيستاني عن رغبته في لقائه إلا أنه أرسل إليه يقول: إن «تَجَنُّب الاتصال العام مع التحالف يتيح له أن يكون ذا فائدة أكبر في «مساعينا المشتركة» وأنه قد يفقد بعض مصداقيته في أوساط «المؤمنين»(٢) إذا تعاون علنيًّا مع مسؤولي التحالف». أخبره بريمر أنه يدرك تمامًا معاناة الشيعة... «رحلتي الأولىٰ خارج بغداد كانت إلىٰ المقابر الجماعية في الحلة.. وأشرت إلىٰ أن الائتلاف يضخ الكثير من المال في مشاريع إعادة الإعمار في قلب المنطقة الشيعية، وبين يوليو وسبتمبر فقط تبادلت أكثر من عشر رسائل مع آية الله، وعبر السيستاني بشكل متكرر عن امتنانه الشخصي لكل ما فعله التحالف من أجل الشيعة والعراق»(٣).

كان كثير من المفكرين والكتاب الأمريكيين، يعبرون عن حالة من العداء الغريب للعرب السنة، مع وصفهم بأوصاف حادة، والنظر إليهم كمعوق لتقدم وتطور العراق.

سُئل وزير الخارجية الأمريكي الأسبق «هنري كيسنجر» عن نظرته إلىٰ العراق، فقال: «العراق طائر بثلاثة أجنحة، أحدهم يمنعه من الطيران».

---

(١) عام قضيته في العراق، مرجع سابق ص٧٥.
(٢) عادة ما يستخدم علماء الشيعة هذا المصطلح لتخصيص الحديث عن الشيعة الذين يؤمنون بالإمامة والولاية.
(٣) السابق ص٣١٤.

هذا القول يعبر بدقة عن حقيقة الأوضاع العراقية، ومن الطبيعي أن كلًّا من الأجنحة العراقية الثلاثة: الأكراد، والعرب السنة، والشيعة، ينظر إلىٰ أحد الجناحين الباقيين بعده مُعوقًا عن الطيران، وحسب معطيات الأحداث فإن الآراء قد أجمعت بين الإدارة الأمريكية وإيران والأكراد والشيعة علىٰ أن العرب السنة هم الجناح المعوق للعملية السياسية العراقية.

يقول الصحفي والمعلق السياسي البارز «توماس فريدمان»: «علينا أن نسلح الشيعة والأكراد ونترك السنة العراقيين يقبضون علىٰ الريح»(١).

«ليسلي جيلب» -رئيس سابق لمجلس العلاقات الخارجية، ومسؤول سابق في البنتاجون- قَدَّم طرحًا بتقسيم العراق إلىٰ ٣ دول أو ولايات، واحدة للشيعة، وواحدة للأكراد، وواحدة للعرب السنة في وسط العراق، كتب مقالًا في «نيويورك تايمز» بتاريخ ٢٣/ ١١/ ٢٠٠٣م يستعرض فيه رؤيته، ثم قال متوعدًا العرب السنة: «الدولة السنيَّة -يقصد بعد التقسيم- بلا نفط وبلا عائدات، فلا بد أن يعتدلوا وإلا عانوا العواقب، الفكرة هي تقوية الشيعة والأكراد وإضعاف السنة، وإن الخطوة الأولىٰ تكون من خلال الحكم الذاتي للجنوب والشمال وننتظر النتائج»(٢).

عمليًّا، أو عسكريًّا، تلقىٰ العرب السنة النصيب الأكبر من الحملة الأمريكية الشرسة.

كان مشهد العراقيين القتلىٰ وجثثهم المتناثرة في الشوارع، خاصة في المناطق السنية، يثير الجنود الأمريكيين إلىٰ مزيد من القتل، يقول العريف «رايان دوبري»،

---

(١) منطق الانسحاب ص٩٢.

(٢) سمير عبيد، الرئيس بوش يجدد المساومة عندما طلب البقاء في العراق ٣٠ عاماً، ١/ ٦/ ٢٠٠٧م www.ssnp.info.

وهو يجول بنظره علىٰ مسرح عملية أسفرت عن مزيد من الجثث: «لقد بدأت أكره هذه البلاد. انتظر حتىٰ أضع يدي علىٰ عراقي لعين. كلا. لن أضع يدي عليه بل سأقتله»(١).

في المقابل، تابع اختصاصيو الدعاية الغربيون مهمة تصوير العراقيين المسلمين بأنهم شعب مبتهج «لتحريره» علىٰ أيدي قوات مسيحية(٢).

اعتُقِل عشرات الألوف من العراقيين السنة، وأذلوا وأهينوا، ثم اعترف ضباط الاستخبارات الأمريكية أن ما بين ٧٠-٩٠٪ اعتقلوا عن طريق الخطأ(٣)، وكان كتاب «العقل العربي» الذي ألفه «رافائيل باتاي-١٩١٠ - ١٩٩٦م» عام ١٩٧٣م، بمنزلة «إنجيل المحافظين الجدد حول السلوك العربي»، قَدَّم الكتاب فكرتين محوريتين: الأولىٰ أن العرب لا يفهمون سوىٰ القوة، والثانية أن أكبر ضعف لدىٰ العرب هو العار والذل، يعني: خوفهما(٤).

كان باتاي أكاديميًّا يهوديًّا أمريكيًّا من أصل مجري، وهو متخصص في الأنثروبولوجيا الثقافية، عمل محاضرًا في عدة جامعات أمريكية مثل كولومبيا وبنسلفانيا، بدأ في تعلم العربية في سن الثامنة عشرة، وأقام لمدة ١٥ عامًا في فلسطين قبل أن ينتقل إلىٰ الولايات المتحدة. كان دارسًا للتوراة، وله مؤلفات عديدة، جزء كبير منها يكشف عن عمق انتمائه اليهودي، من هذه المؤلفات:

أسطورة السباق اليهودي -العقل اليهودي -اليهود والعرب في الثقافة والصراع -خيام يعقوب: الشتات بين الأمس واليوم -حكايات شعبية عربية من فلسطين وإسرائيل -آيات المسيح -بوابات المدينة القديمة -العوالم المختفية

---

(١) عراق المستقبل، سابق ص٥٤.

(٢) السابق ص٦١.

(٣) العراق منطق الانسحاب، سابق ص٤٠.

(٤) السابق ص٦٠.

من الشعب اليهودي -عن الفولكلور اليهودي -ذرية إبراهيم: اليهود والعرب في التواصل والنزاع[١].

يندرج كتاب «العقل العربي» ضمن سلسلة طويلة من دراسات الأنثروبولوجيا التي قامت بها مؤسسات أمريكية بعد الحرب العالمية الثانية، وهي ما تعرف بدراسات الخاصية الوطنية(National Character Studies)، التي تقوم أساسًا علىٰ التعميم والتنميط بشكل يقود تلقائيًا إلىٰ إصدار أحكام عامة ذات منطلقات قيمية شاملة[٢].

الكتاب يشكل مصدرًا أساسيًا -خاصة في الأوساط العسكرية- لفهم وتحليل الشخصية العربية، وهذا سبب انتشاره، ورغم أنه صدر للمرة الأولىٰ عام ١٩٧٣م، فإنه طُبع مرات كثيرة بعد ذلك (١٩٧٦م، ١٩٨٣م، ٢٠٠٢م، ٢٠٠٧م). وكُشِف لاحقًا أن الكتاب كان مصدرًا أساسيًا لتشكيل ثقافة الجنود الأمريكيين عن العرب، والتي ظهرت آثارها بقسوة في تعاملهم مع العراقيين منذ عام ٢٠٠٣م[٣].

---

(1) Raphael Patai. The arab mind.cover.

(٢) محمد طعم، رفائيل باتاي وعقله العربي، ميدل إيست أونلاين، ١٨/ ٧/ ٢٠٠٥م.

(٣) مع أن الكتاب يفيض تجنيًا وتجاوزًا واضحًا في حق العرب، إلا أن التناول الحيادي يكشف أن كثيرًا من المعلومات التي أوردها في سياق الاستشهاد لما يقول، لا تبتعد كثيرًا عن الحقيقة رغم ما تضمنته من انتقاء وتشويه وتنميط، فهو على سبيل المثال استعان بكتابات الأكاديمي العراقي المعروف د. علي الوردي، صاحب سلسلة «لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث»، وهو مؤلف ضخم يتضمن معلومات وافرة عن سمات المجتمع العراقي منذ بداية العهد العثماني حتى عام ١٩٢٤م، وصدر للمرة الأولى عام ١٩٦٩م.

ورغم الرفض التام للنتائج التي وصل إليها «رفائيل باتاي»، فإنه يجب أن نطرح سؤالًا جوهريًا: بالنظر إلى زمن تأليف الكتاب -أي المجتمع العربي في الستينيات- كم كان يبعد المؤلف عن الحقيقة، خاصة أنه ينقل في أحيان كثيرة عن مصادر عربية؟

الفارق هنا أن «باتاي» و«دي أتكين» يجمعان السمات السلبية للمجتمع العربي ونقاط الضعف ومواضع الخلل، لأن هذا أكثر ما تهتم به القوى الاستعمارية، ولذلك يبدو الكتاب وكأنه تركيز فائق للسلبيات، سواء في حجمها أو معدل انتشارها، وهذه المنهجية الانتقائية الاستعمارية، لن يصمد أمامها أي مجتمع، حتى المجتمع الأمريكي نفسه.

كتب العقيد «نورفيل دي آتكين» مقدمة لهذا الكتاب عام ٢٠٠٧م، وهو ضابط متقاعد عمل مدرسًا في مدرسة الحرب الأمريكية -فورت براج- ١٨ عامًا، وعمل مباشرة مع وحدة العمليات النفسية الأمريكية في العراق عام ٢٠٠٣م، وكان علىٰ تواصل مباشر مع عدد كبير من الضباط والجنود العاملين في العراق في فترة الغزو وما بعدها، وهو يؤكد أن الكتاب كان مصدرًا مهمًّا لطلابه في فهمهم وسلوكهم مع العراقيين، وأنهم وجدوه دقيقًا في وصف العرب.

يقول «دي آتكين» في مقدمة كتاب العقل العربي: «إنه كتاب اختُبِر ميدانيًّا، وأعني هذه الكلمات بإدراك كامل. كان هذا الكتاب ضمن عدد من المصادر المختارة التي استُخدِمت في الإعداد الثقافي لضباط العمليات الخاصة. في الثمانية عشر عامًا التي قضيتها للتدريس في مدرسة الحرب الخاصة في فورت براج، كثير من طلابي السابقين تحدثوا عن كم كان هذ التعليم الثقافي الذي تلقوه نافعًا، وأنهم استفادوا منه. وجد طلابي السابقين الذين انخرطوا في تعامل يومي مع العراقيين، أن تأسيسهم الثقافي كان لا يقدر بثمن، ونقلوا لي العديد من الأمثلة عن سمات الثقافة العراقية التي وصفها باتاي -في كتابه-. هذا التعليم ساعدهم في العمل مع القادة العرب، وأن يفهموا بشكل جيد تناقضاتهم، وطرق حل النزاعات، والحساسية من فقدان ماء الوجه -الاحترام- والميل إلىٰ المبالغة الخطابية، وعادة استبدال الكلمات في وصف الأحداث، ونفورهم من تحمل المسؤولية، إضافة إلىٰ الكرم والضيافة».

في موضع آخر من مقدمته للكتاب، يقول «دي آتكين»: إنه «في مسيرتي الخاصة التي تجاوزت ثلاثة عقود من العمل مع أو حول العرب، أستطيع أن أشهد

شخصيًّا علىٰ مصداقية عمل باتاي، لهذا أنا أعدُّه مصدرًا أساسيًّا للأمريكيين الذي يستعدون للعيش أو العمل لفترات طويلة في العالم العربي»[1].

هذه المقدمة -والتوصية- كتبها العقيد الأمريكي عام ٢٠٠٧م، ما يعني أن الكتاب لا يزال مصدرًا مهمًّا لبناء الثقافة الأمريكية عن العرب.

في ختام الكتاب يقدم «باتاي» توصيته للعرب إن أرادوا السلام والتنمية، يختصرها «دي آتكين» قائلًا: «في ختام كتابه كتب رفائيل باتاي بتفاؤل حول مستقبل العالم العربي، مع ملاحظة أنه يمكن تحقيق السلام والتنمية، فقط إذا تخلىٰ العرب عن بعض معتقداتهم الأثيرة: القلق من إسرائيل، معاداة الإمبريالية الأمريكية، معاداة الصهيونية»[2].

---

(1) Raphael Patai. The arab mind. With an updated foreword by Norvell B.De Atkine. P xv-xvii.

(٢) المرجع السابق.

الفصل السابع

السياسة الخارجية ودورها في بدء الصراعات

السياسة الخارجية للدولة يمكن عدُّها المرحلة التالية من اتخاذ القرار المتعلق بالصراع.

فإذا كانت مداخل تفسير الصراع تقدم لنا تصورًا عن الدوافع والأسباب والظروف والمسوغات، متوسطة أو طويلة المدىٰ، فإن السياسة الخارجية هي مرحلة وضع ما سبق في إطار تنفيذي.

نتناول الدور الذي تؤديه السياسات الخارجية للدول في نشأة الصراعات وتطورها، **من خلال ٣ محاور رئيسة**، وهي:

- السمات العامة للسياسة الخارجية.
- أدوار الدولة في السياسة الخارجية.
- المتغيرات المؤثرة في صنع السياسة الخارجية.

أولًا: السمات العامة للسياسة الخارجية:

تتعدد تعريفات السياسة الخارجية كما هو المعتاد في العلوم الإنسانية، حيث يصعب الاتفاق علىٰ صياغة محددة للمفاهيم.

لكن في جميع الأحوال لا بد أن يجيب التعريف عن التساؤل الأساسي، وهو: لماذا تختلف السياسة الخارجية للولايات المتحدة، مثلًا، عن السياسة الخارجية لروسيا؟ ولماذا تختلف السياسة الخارجية للولايات المتحدة -كمثال- بين فترتين زمنيتين مختلفتين، أو بين إدارتين، أو بين الحزبين الجمهوري والديمقراطي؟

بصفة عامة، يمكن القول إن السياسة الخارجية هي: «التصرفات السلطوية التي تتخذها أو تلتزم باتخاذها الحكومات، إما للمحافظة علىٰ الجوانب المرغوبة في البيئة الدولية، أو لتغيير الجوانب غير المرغوبة».

لكن التعريف الأفضل هو التعريف الإجرائي الذي يقدم تصورًا عمليًّا عن السياسة الخارجية، وهو: «السياسة الخارجية هي برنامج العمل العلني الذي يختاره الممثلون الرسميون للدولة من أجل تحقيق أهداف محددة في المحيط الخارجي»(١).

توجد **ستة عناصر أساسية** في هذا التعريف توضح طبيعة السياسة الخارجية، وهي أنها(٢):

١- رسمية:

أي يضعها المسؤولون الرسميون في الدولة المعنيون بهذا الأمر، وفي مقدمتهم: رئيس الدولة، ورئيس الحكومة، ووزير الخارجية، ووزير الدفاع، إلخ، ولا تدخل المؤسسات التشريعية البرلمانية في هذا التحديد، لأنهم لا يصنعون السياسة الخارجية بصورة تنفيذية، وإن كانوا يؤثرون فيها من خلال العمل التشريعي.

كمثال: القرار الصادر عن الكونجرس الأمريكي عام ١٩٩٠م بالاعتراف بالقدس عاصمة لـ«إسرائيل» لا يعبر عن السياسة الخارجية للولايات المتحدة في ذلك الوقت، لأنه لم يصدر عن الحكومة الأمريكية ولم تؤيده، لكن القرار الصادر من الرئيس الأمريكي «دونالد ترامب»، في ديسمبر ٢٠١٧م باعتبار القدس

---

(١) د. محمد السيد سليم، تحليل السياسة الخارجية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٩٨م، ص١١-١٢.

(٢) المرجع السابق، من ص١٥ إلى ص٣٦.

-بشقيها الشرقي والغربي- عاصمة لـ«إسرائيل» هو تعبير عن السياسة الخارجية للولايات المتحدة.

٢- علنية:

العلنية لا يقصد بها أن صانع السياسة يعلنها علىٰ الملأ، وإنما كون السياسة الخارجية برامج وقرارات مقصودة، يمكن ملاحظتها ومتابعتها وتقويمها.

أهمية العلنية هنا في أنها تحدد البعد «القصدي» في السياسة الخارجية للدولة، فالبعض قد يفسر السياسات الخارجية تفسيرًا خاطئًا من خلال نتائجها وليس مقاصدها، وهما قد يختلفان في بعض الأحيان.

علىٰ سبيل المثال، في منتصف عام ١٩٦٧م، كانت السياسة الخارجية لمصر في التعامل مع أزمة فلسطين والكيان الصهيوني، هي تبني خطاب هجومي تهديدي حاد، بقصد الردع وتجنب الحرب، لكن الذي حدث أن هذه السياسة أدت إلىٰ الحرب بالفعل، وليس الاستقرار.

فالتباين بين القصد والنتيجة هنا حدث بسبب الرعونة وعدم الكفاءة، وليس لأن الحرب بذاتها -كأحد أشكال الصراع- كانت سياسة خارجية مقصودة.

مثال آخر: في أثناء الحرب العالمية الأولىٰ، كانت السياسة الخارجية للولايات المتحدة هي عدم تشجيع استمرار الحرب، ومحاولة التوسط لإيقافها، ولم تشارك فيها إلا في عام ١٩١٧م قرب نهايتها، لكن النتائج المباشرة لهذه الحرب كانت تصبُّ سياسيًّا وعسكريًّا واقتصاديًّا في صالح أمريكا. الخطأ الذي يحدث هنا من بعض المحللين أنه يحدد السياسة الخارجية لأمريكا باعتبار النتائج، فيفترض أنها كانت تسعىٰ للحرب وليس لمنعها.

الميل إلىٰ «نظرية المؤامرة» يدفع كثيرًا من الكتاب إلىٰ الربط بين النتائج والمقاصد بصورة مباشرة دون ثوابت أو معلومات كافية موثقة، وهذا خطأ منهجي في التحليل.

٣- اختيارية:

الاختيار هنا يعني أمرين: أولهما، أن صانع السياسة الخارجية لديه بدائل يختار من بينها، حتىٰ وإن كانت محدودة، وهذا يختلف عن الدولة الخاضعة للاحتلال مثلًا، فهذه ليست لها سياسة خارجية، لأنها مجبرة علىٰ تبني مسار محدد سلفًا.

ثانيهما، أن صانع السياسة بإمكانه تغييرها أو تعديلها إذا تبدلت الظروف.

مثال: ما سبق ذكره في قضية نقل السفارة الأمريكية إلىٰ القدس، فالقرار الأول بالرفض، كان اختيارًا حرًّا بين بديلين.

والقرار الثاني بالقبول، كان تغييرًا في السياسة الخارجية لأمريكا، بناء علىٰ تغير رؤية متخذ القرار- دونالد ترامب- والظروف السياسية بحسب تقديره.

٤- هدفية:

البعد الهدفي هنا يجعل للسياسة الخارجية معنىٰ محددًا وواضحًا، فهي بالأساس تصرفات قصدية صدرت لتحقيق أهداف محددة، وليست مجرد استجابات عشوائية ترتبط بتطورات الخارج فقط.

تصرفات الدولة مع بيئتها الخارجية -الإقليمية والدولية- قد تتخذ صورتين، إما في سياق رد الفعل ومحاولة احتواء الأزمات أو حالات عدم اليقين والغموض،

أو في سياق التحرك المباشر المبادر لتحقيق أهداف محددة سابقًا، وهذه الصورة الأخيرة تشكل الجزء الأكبر من السياسة الخارجية وتعبر عنها بدقة.

لكي نفهم كيف تؤثر السياسة الخارجية في الصراعات الدولية، لا بد من التفريق بين نوعين من الأهداف:

- الأهداف المعلنة.

- الأهداف الحقيقية.

في كثير من الأحيان تكون الأهـداف المعلنة بحد ذاتها عبارة عن «خطة تضليل» ضمن السياسة الخارجية نفسها، لذلك ينصح خبراء السياسة باستخدام ما يطلقون عليه «تعبئة الموارد»، كمعيار للتحقق من صدقية الأهداف المعلنة.

المقصود بـ«تعبئة الموارد» أي تخصيص جزء من إمكانات الدولة ومواردها المادية أو المعنوية، لتحقيق الهدف المعلن، بعبارة أخرىٰ، للتحقق من صدقية هدف معلن، لا بد من النظر فيما إذا كانت الدولة التي أعلنت هذا الهدف قد خصصت أيًّا من مواردها لتحويل هذا الهدف من سياق التعبير الكلامي، إلىٰ سياق التنفيذ العملي، فإذا تبين أنه لا توجد «تعبئة للموارد» يصبح هذا الهدف غير حقيقي. ويجب البحث عن أهداف حقيقية أخرىٰ للسياسة الخارجية.

مثال: في أثناء الحرب العراقية الإيرانية، كانت السياسة الخارجية الأمريكية المعلنة تهدف إلىٰ تبني الحياد أو السعي لإنهاء حالة الحرب، لكن عند النظر في الأمر باستخدام معيار «تعبئة الموارد»، سنجد أن أمريكا قدمت مساعدات عسكرية لإيران بشكل سري -فضيحة إيران كونترا- كما أنها اتخذت خطوات أخرىٰ تهدف إلىٰ إطالة أمد الحرب وليس إلىٰ إنهائها.

٥- خارجية:

يقصد هنا التفريق بين السياسة الخارجية المتعلقة بالبيئة الخارجية للدولة، وبين السياسة الداخلية المتعلقة بالوضع الداخلي.

يحدث في كثير من الأحيان تداخلات بين السياستين من حيث النتائج المقصودة.

في بعض الحالات قد تكون السياسة خارجية، لكنها تسعىٰ إلىٰ تحقيق نتائج داخلية غير مباشرة، مثل محاولة الرئيس الأمريكي -أيًّا كان- خطب ود «إسرائيل» باتخاذ قرارات تفضيلية معينة، من أجل تحفيز الناخب الأمريكي علىٰ التصويت له في جولة إعادة الترشح، أو في انتخابات الكونجرس.

من أبرز الأمثلة علىٰ توظيف السياسة الخارجية داخليًّا -التي لها تأثير علىٰ الصراعات الدولية- قيام بعض الدول برفع شعار مواجهة «العدو الخارجي» واستنفار المجتمع وموارده في هذا الاتجاه بحسب حجم المواجهة، التي ربما تصل إلىٰ تفجير حرب عسكرية، لا لشيء إلا لصرف أنظار المجتمع عن المشكلات الداخلية، أو ليتكتل الشعب خلف الحكومة ويتجاوز معارضته لها.

في حالات أخرىٰ، قد تكون السياسة داخلية في صورتها، لكنها خارجية من حيث هدفها، أي أنها تسعىٰ لتحقيق نتائج خارجية غير مباشرة، علىٰ سبيل المثال، قد تقوم إحدىٰ الدول بتقديم معاملة متميزة تفضيلية تجاه أجانب موجودين علىٰ أرضها ينتمون لدولة معينة، فهذه سياسة داخلية، إجرائيًّا، لكنها خارجية هدفيًّا.

٦- برنامجية:

لا بد أن تصنع السياسة الخارجية في شكل برنامج، يتضمن صياغة مجموعة من التوجهات والأهداف والأدوار والإستراتيجيات، كما يتضمن أيضًا القرارات والسلوكيات.

وبطبيعة الحال فإن بعض مكونات هذا البرنامج تتأثر بتوافر المعلومات المتعلقة بالبيئة الدولية، وسهولة قياس المتغيرات المتعلقة بها.

ولا يتسع المجال لتناول كل مكونات برنامج السياسة الخارجية، لذلك نكتفي هنا بتسليط الضوء علىٰ عنصر «التوجهات» فقط، ثم نتناول -تفصيلًا- عنصر «الأدوار»، في المحور التالي.

يقصد بـ«توجه الدولة»: الطابع العام والخصائص الأساسية لسياستها خلال فترة زمنية متوسطة أو طويلة.

علىٰ سبيل المثال، يمكن أن يكون توجه دولة ما هو: الانعزالية، أو التدخلية، أو عدم الانحياز.

توجد ٣ تصنيفات أساسية يمكن من خلالها ملاحظة توجهات الدولة الخارجية، وهي:

١. التوجه الإقليمي - الدولي:

بعض الدول يكون توجهها مقتصرًا علىٰ نطاقها الإقليمي فقط، ونادرًا ما تتمدد إلىٰ الخارج، وهناك دول أخرىٰ تتمدد سياساتها الخارجية لتشمل مناطق مختلف من العالم. غالبًا ما تكون الدول الكبرىٰ هي الأكثر اهتمامًا بالتوجه العالمي، مثل حالة الولايات المتحدة، الاتحاد السوفيتي سابقًا، وبريطانيا، والصين، وفرنسا.

ومثال الدول التي يتركز توجهها على النطاق الإقليمي، مصر، والمغرب، والجزائر، والعراق، وماليزيا، إلخ.

٢. التوجه إلى: إقرار - تغيير نمط العلاقات الدولية الراهنة:

هذا التصنيف يتعلق بأهداف السياسات الخارجية، فبعض الدول تتبنى توجها يسعى إلى إقرار نمط وطبيعة العلاقات الدولية الراهنة، أي الحفاظ على التوازنات والعلاقات القائمة، وعدم تغييرها.

ودول أخرى تتبنى توجهًا يسعى إلى تغيير النمط الراهن وفق نموذج معد سلفًا.

من الممكن أن تتبنى دولة واحدة توجهين مختلفين في وقت واحد، لكن بالنسبة لمنطقتين مختلفتين.

مثال: السياسة الخارجية الفرنسية كانت تميل إلى إقرار الوضع الراهن في فترة ما بين الحربين العالميتين.

في المقابل، كانت ألمانيا تسعى إلى تغيير نمط العلاقات الراهن، وتعديله بما يناسب نموذجها المفترض.

مثال آخر، إدارة الرئيس الأمريكي الحالي -دونالد ترامب- تتوجه بوضوح نحو تغيير نمط العلاقات الدولية في عدة اتجاهات، سواء العلاقة مع الاتحاد الأوروبي، أو مع بعض الدول العربية، أو الدول الإقليمية الكبرى، كما تسعى إلى تغيير بعض المعاهدات والاتفاقات الدولية القائمة، وتحاول عقد اتفاقات جديدة.

لا شك أن الدول التي تتبنىٰ نمط تغيير العلاقات الراهنة، تؤدي دورًا مباشرًا في بروز الصراعات أو تأجيجها.

٣. التوجه التدخلي – اللا تدخلي:

هذا التصنيف يتعلق بأدوات تنفيذ السياسة الخارجية، سواء كانت دبلوماسية أم عسكرية أم استخباراتية أم دعائية، أم غير ذلك.

فالتدخل المقصود هنا يكون بإحدىٰ هذه الأدوات.

مثال: السياسة الخارجية المصرية في عهد «جمال عبد الناصر»، كانت تدخلية بامتياز، عن طريق محاولة نشر النموذج السياسي للدولة القومية العربية الوحدوية، أيضًا فإن إيران تتبنىٰ سياسة تدخلية في محيطها الإقليمي.

كذلك فإن السياسة الخارجية الأمريكية هي سياسة تدخلية في أغلب مناطق العالم، خاصة في أمريكا اللاتينية، العالم العربي.

من الممكن أن تتبنىٰ دولة واحدة، سياسة خارجية تدخلية تجاه دول محددة، وسياسة لا تدخلية تجاه دول أخرىٰ.

من الواضح أن التوجه التدخلي، هو الأكثر إثارة للخلافات والصراعات.

ثانيًا: أدوار الدولة في السياسة الخارجية[1]:

بعد تحديد التوجهات والأهداف، تحتاج الدولة إلىٰ أن تحدد الدور الذي تريد أن تمارسه في بيئتها الإقليمية والدولية، أي طبيعة موقعها، والوظيفة التي تريد أن تؤديها في تلك البيئة بشكل مستمر.

---

(١) تحليل السياسة الخارجية، مرجع سابق، من ص٤٨ – ٥٣ بتصرف.

لكي يتحدد هذا الدور يحتاج صانع السياسة الخارجية إلىٰ أن يحدد موقف الدولة بالإجابة عن **٣ أسئلة مهمة**، وهي:

١. ما المناطق التي ترىٰ الدولة أنها يمكن أن تمارس فيها نفوذًا ودورًا مؤثرًا؟

٢. ما الدوافع التي ستتحرك منها الدولة لتمارس دورها، وهل هي دوافع «تعاونية» أم دوافع «صراعية»؟

٣. هل ستعمل الدولة علىٰ تغيير نمط العلاقات الإقليمية والدولية الراهن، أم ستعمل علىٰ الحفاظ عليه؟

لكي نستطيع استخدام مفهوم «دور الدولة الخارجي» في تحليل أسباب وكيفية نشأة الصراعات أو تطورها، **لا بد من التنبه إلىٰ ملاحظات أساسية**، وهي:

- من المهم النظر في قدرة الدولة علىٰ ممارسة الدور الذي تعلنه أو تدعي أنها تمارسه، فقد تزعم دولة ما أنها تريد تحقيق السلام العالمي، في حين لا يوحي ما تفعله بأي من ذلك.

- يمكن للدولة الواحدة أن تمارس لأكثر من دور في الوقت نفسه، بل أحيانًا تمارس بعض الدول دورين مختلفين في قضية واحدة، كما تحاول روسيا أن تفعل في تعاملها مع الصراع في سوريا.

فهي من جهة طرف رئيس مباشر في الصراع، ومن جهة أخرىٰ، تحاول أن تؤدي دور الراعي للسلام، من خلال استضافة ورعاية مباحثات سلام بين الفرقاء السوريين.

- لا بد أن تحدد الدولة الأدوار التي يمارسها خصومها ومنافسوها:

فقد يحدث في بعض النظم الإقليمية أن تكون هناك دول تؤدي دور «الوسيط» أو «الموازن»، في حين توجد دولة أخرىٰ تؤدي دور «تصدير الثورة» أو «رجل الشرطة» أو «المخرب الإقليمي».

- يمكن أن تؤدي الدولة دورًا معينًا في محيطها الإقليمي، ودورًا آخر في محيطها الدولي.

مثال: عادة تميل الدول الكبرىٰ الإقليمية أو متوسطة القوة، إلىٰ ممارسة دور صراعي نوعًا ما في محيطها الإقليمي، في حين تتحول إلىٰ دور تعاوني في البيئة الدولية.

نماذج وأمثلة لـلأدوار الخارجية التي يمكن أن تقوم بها الدولة في بيئتها الإقليمية والدولية:

الأدوار الواردة مجرد أمثلة، وليست حصرية.

١- دور حامي الثورة:

تضع الدولة نفسها في سياق حماية الثورات وتقديم الدعم لها، واحتضان قادتها وكوادرها، وقد يصل الأمر إلىٰ إقامة معسكرات علىٰ أرضها.

ومعيار وصف حركة ما بأنها ثورية، يختلف بالطبع من دولة إلىٰ أخرىٰ، وقد يكون هناك معيار دولي أو لا.

فقد توصف بعض الحركات التي تتلقىٰ دعمًا من دولة ما بأنها غير قانونية، أو متمردة، أو غير شرعية، إلخ، لذلك يعود الأمر إلىٰ دوافع صناع السياسة الخارجية، وطريقة إدراكهم للأمر.

من أمثلة هذا الدور: الصين في مرحلة الستينيات.

إيران بالنسبة للحركات الشيعية المتمردة.

حاول القذافي في مرحلة من حكمه أن يضع دولته في سياق دعم الحركات التحررية، لكن الأمر انحرف منذ بدايته، وأصبح دعمًا للخارجين عن القانون في الغالب.

كان الاتحاد السوفيتي يدعم الحركات التقدمية الموالية للماركسية، وقد أنشئ في وزارة الخارجية قسم خاص للتواصل مع هذه المنظمات.

٢- دور تصدير الثورة:

هنا تتبنىٰ الدولة توجهًا أيديولوجيًا معينًا، وتسعىٰ إلىٰ تصديره في نطاقها الإقليمي أو العالمي.

مثال: الاتحاد السوفيتي وجهوده الرامية إلىٰ نشر الأيديولوجيا الشيوعية في أنحاء العالم.

إيران، تعد المثال الأبرز علىٰ تصدير الثورة، خاصة في مرحلة الثمانينيات من القرن الماضي، من خلال إنشاء مؤسسات خاصة في الدولة لمتابعة هذا الأمر، وتخصيص ميزانية ضخمة، وتجنيد عدد كبير من الكوادر من عدة دول، وإقامة معسكرات تدريبية علىٰ أراضيها، وتأسيس منظمات خارجية في دول أخرىٰ، إلخ.

٣- دور المعادي لأيديولوجيا معينة:

هنا تقوم الدولة بإعلان العداء لأيديولوجيا معينة، ويتوجه العداء تجاه حاملي هذه الأيديولوجيا والمدافعين عنها، والدول التي ترعاها.

وقد يقتصر العداء علىٰ الجوانب الدبلوماسية أو الدعائية فقط، لكن في بعض الأحيان يصل إلىٰ درجة التدخل العسكري، أو إثارة القلاقل والاضطرابات في دولة أخرىٰ، أو رعاية المنافسين لتلك الأيديولوجيا.

مثال: الدور الأمريكي في محاربة الشيوعية في مرحلة الحرب الباردة.

٤- دور المدافع عن أيديولوجيا معينة:

وهو عكس الدور السابق، حيث تُقدَّم الرعاية ولحماية لأصحاب تلك الأيديولوجيا، وتبني مضامينها والترويج لها، وهذا الدور تمارسه الدولة بدرجات مختلفة.

مثال: كانت فرنسا في القرن التاسع عشر تؤدي دور الدفاع عن الكاثوليكية، والتبشير بها في العالم.

الاتحاد السوفيتي ونشر الشيوعية والدفاع عنها.

الفاتيكان ودور حماية الكاثوليكية والدفاع عنها.

٥- دور المستقل النشط:

تقوم الدول باتخاذ موقف حيادي نوعًا ما، مع تأكيد الاستقلال الوطني، وتركيز قرارات السياسة الخارجية علىٰ خدمة مصالح الأمن القومي دون أي اعتبارات أخرىٰ، في الوقت نفسه تتبع برنامجًا نشيطًا لترسيخ وتعميق العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية مع كل الدول.

مثال: مجموعة دول عدم الانحياز التي تشكلت في النصف الثاني من القرن

الماضي، لتعبر عن حيادها بين المعسكرين: الغربي الرأسمالي بزعامة الولايات المتحدة، والشرقي الاشتراكي بزعامة الاتحاد السوفيتي.

تأسست حركة عدم الانحياز عام ١٩٦١م وتضم نحو ١٢٠ عضوًا أو دولة، ومن أبرز مقرراتها دعم وتأييد حركات التحرر الوطني.

لكنها انهارت تقريبًا بعد انتهاء الحرب الباردة، والدخول في مرحلة النظام العالمي أحادي القطبية.

٦- دور رجل الشرطة:

تضع الدولة نفسها في موضع الردع لمواجهة أي تجاوزات في إقليم معين، أو منطقة ما في العالم، مشكلة هذ الدور أنه يُحمِّل الدولة التي تقوم به نوعًا من المسؤولية عن ردع المعتدين أو المتجاوزين.

مثال: كانت إيران تسعىٰ بقوة في عهد الشاه -رضا بهلوي- إلىٰ الحصول علىٰ دعم أمريكي لكي تمارس دور «رجل الشرطة» في منطقة الخليج العربي.

علىٰ الصعيد الدولي، تبرز أمريكا التي تؤدي هذا الدور في أنحاء مختلفة من العالم، والحقيقة أن كثيرًا من المفكرين والسياسيين الأمريكيين طالبوا بأن تؤدي بلدهم هذا الدور، من أبرزهم «ريتشارد هاس» المستشار الخاص للرئيس الأسبق «جورج بوش الأب»[١]، ومدير الدراسات في مؤسسة بروكينجز.

---

(١) صنع العدو، مرجع سابق ص١٩٠.

نشر «هاس» كتابًا بعنوان: «الشرطي المتردد، الولايات المتحدة بعد الحرب الباردة»، والترجمة غير دقيقة، إذ النص الإنجليزي هو: The reluctant Sheriff: The united States After The Cold War.

كلمة «sheriff» ترجمتها، قائد الشرطة، أو العمدة، أو نقيب الشرطة، فهو ليس شرطيًّا عاديًا.

يرشح «ريتشارد هاس» أمريكا لكي تؤدي دور عمدة العالم، فتقوم باتخاذ اللازم ضد أي «دول مارقة» أو «منبوذة»، فيكون لها الحق أن تجمع ما تشاء من قوات دولية، لتشن حربًا شرعية علىٰ ذلك العدو الذي يهدد الأمن العالمي.

٧- دور الموازن الدولي:

تقوم الدولة بالحفاظ علىٰ التوازن القائم في منطقة معينة بين مجموعة من الدول، سواء ضد قوة خارجية، أو حتىٰ محاولة بعض الأعضاء الداخليين الإخلال بموازين القوة، وهنا لا تتحمل الدولة التي تقوم بهذا الدور مسؤولية مستمرة مثل دور «رجل الشرطة»، بل يقتصر التدخل علىٰ وقت التجاوز أو الإخلال فقط.

مثال: الدور الذي كان تتقوم به مصر في مرحلة جمال عبد الناصر، من خلال الجامعة العربية.

دور بريطانيا في أوروبا في مرحلة ما بعد اتفاقية ويستفاليا ١٦٤٨م.

مثال آخر: تحاول أستراليا أن تؤدي دورًا في نطاقها الإقليمي الذي يضم دولًا مثل: نيوزيلندا، وإندونيسيا، وماليزيا، إلخ، والدور الذي تريد أن تؤديه يتراوح ما بين دور «رجل الشرطة، ودور» الموازن الدولي».

٨- دور الوسيط الدولي:

تتحمل الدولة مسؤولية التوفيق والتقريب بين الأطـراف المتنازعة أو المتحاربة، وقد يحدث ذلك بشكل مستمر في مختلف الأزمات، أو قد يكون سمة عامة في الأزمات المتعلقة بمنطقة معينة أو إقليم معين.

مثال: الأمم المتحدة كمنظمة دولية جامعة.

٩- دور صانع السلام:

تؤدي الدولة هذا الدور انطلاقًا من تصورها بوجود مسؤولية ذاتية في تحقيق السلام في مختلف أنحاء العالم.

مثال: بعض دول شمال أوروبا، مثل: السويد.

دور كندا في بعض الأزمات.

١٠- دور الجسر الدولي:

تقوم الدولة بممارسة دور التقريب وتعزيز التواصل بين مختلف دول العالم، من خلال نقل المعلومات أو الثقافات أو الرسائل أو غير ذلك.

مثال: الـدور السويسري. ومـن تطبيقاته: المنتدىٰ الاقتصادي العالمي «دافوس» واستضافة بعض المؤسسات والفعاليات الدولية.

١١- دور الحليف المخلص:

تلتزم الدولة تأييد سياسات دولة أخرىٰ بصورة تامة.

مثال: أغلب دول حلف وارسو، الذي كان يضم الدول التي تشكل المعسكر الشرقي بزعامة الاتحاد السوفيتي.

أيضًا، يحدث أحيانًا أن تضغط دولة كبرىٰ علىٰ دولة أخرىٰ لكي تقوم بدور الحليف المخلص لها، فهي تريد أن تجبر هذه الدولة علىٰ ممارسة هذا الدور، لكن الأخيرة ترفض.

حاول الرئيس الأمريكي «دونالد ترامب» ممارسة ضغط علىٰ الرئيس الفرنسي «إيمانويل ماكرون» لكي يلتزم خط الولايات المتحدة فيما يتعلق بأوروبا والناتو، لكن «ماكرون» كان يدعو إلىٰ جيش أوروبي، فكتب «ترامب» علىٰ تويتر يقول: «إيمانويل ماكرون يقترح تشكيل جيش خاص له لحماية أوروبا من الولايات المتحدة والصين وروسيا، لكن ألمانيا هي التي أشعلت الحربين العالميتين الأولىٰ والثانية، فماذا نتج عن ذلك فرنسا؟ لقد بدؤوا تعلم اللغة الألمانية قبل دخول الولايات المتحدة علىٰ الخط».

لكن «ماكرون» ردَّ عليه راسمًا حدود التحالف بين البلدين، فقال: «الولايات المتحدة هي حليفنا التاريخي وستظل كذلك، إنها الحليف الذي نتحمل معه كل المخاطر، التي نقوم معها بأكثر العمليات تعقيدًا، لكن كونك حليفًا لا يعني أن تكون تابعًا»(١).

١٢- دور النموذج:

يتطلب هذا الدور أن تبرز الدولة نظامها ومؤسساتها وأوضاعها الداخلية بوصفها نموذجًا يحفز الآخرين إلىٰ الاقتداء به.

---

(١) موقع روسيا اليوم ١٣/ ١١/ ٢٠١٨م، ١٤/ ١١/ ٢٠١٨م.

مثال: حاولت إيران أن تبني نظامًا سياسيًّا جديدًا من حيث تركيبته وتراتب السلطات فيه، وآليات الشورىٰ والرقابة واتخاذ القرار. بحيث يكون ذلك النظام نموذجًا معاصرًا للدولة الشيعية. لكنها أخفقت تمامًا في نقل هذه التجربة إلىٰ دول أخرىٰ.

مثال آخر: الاتحاد السوفيتي ونموذجه الاقتصادي التعاوني الشيوعي، الذي حاولت تطبيقه عدة دول مثل: الصين، وكوريا الشمالية، وكمبوديا.

١٣- دور قائد التكامل الإقليمي:

تسعىٰ الدول من خلال سياستها الخارجية إلىٰ تبني دور تحفيز التكامل والاتحاد بين مجموعة من الدول في نظام إقليمي معين، ليتحدا في شكل دولة واحدة، أو أي أشكال أخرىٰ من التقارب والتكامل.

مثال: دور صربيا في إنساء دولة يوغوسلافيا عام ١٩١٩م بين صربيا وكرواتيا والسلاف.

دور مصر في مرحلة الستينيات من خلال تجارب الوحدة مع سوريا.

الدور الذي أدته ألمانيا وإيطاليا وغيرهما، في تأسيس الاتحاد الأوروبي.

١٤- دور المدافع الإقليمي:

تتبنىٰ الدولة مهمة الدفاع عن الدول الواقعة في إقليم معين، ضد أي اعتداءات أو أخطار خارجية.

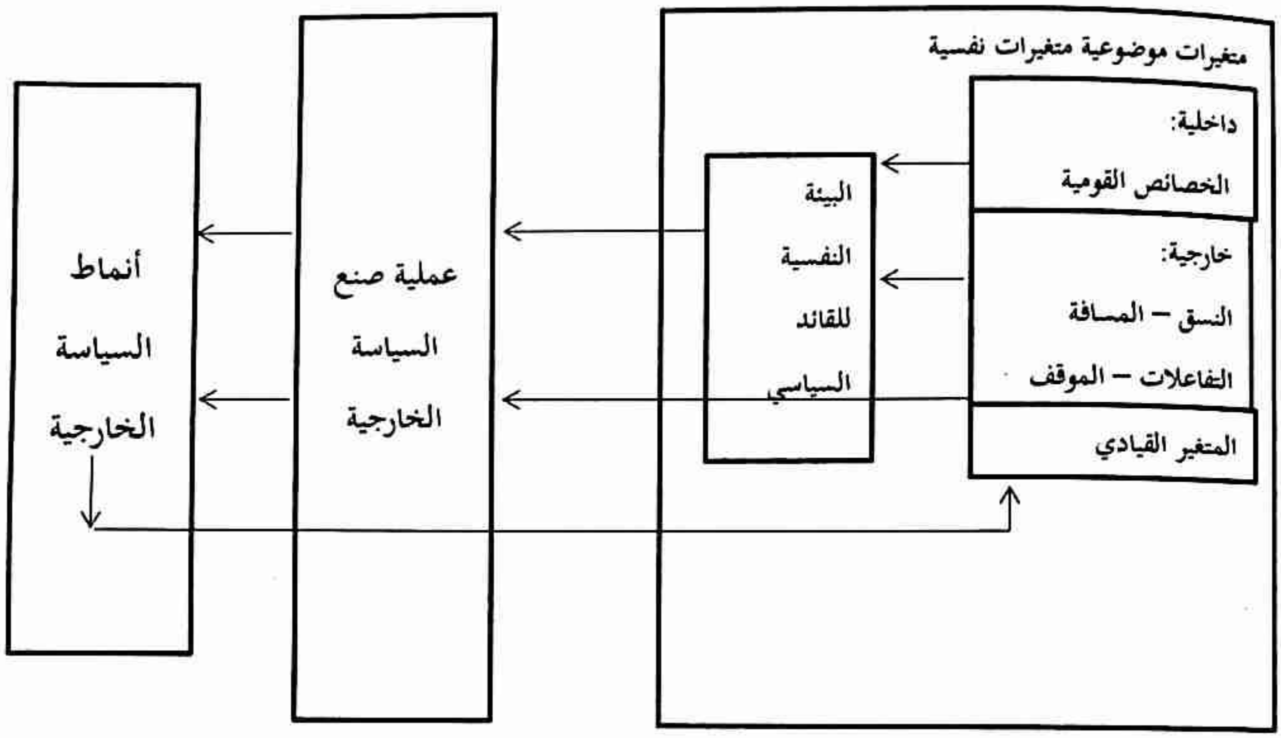
مثال: الدور الذي أداه الاتحاد السوفيتي في حماية دول شرق أوروبا المنتمية إلىٰ «حلف وارسو».

مثال آخر: كان «صدام حسين» يستخدم الترويج الدعائي لهذا الدور «المدافع الإقليمي» عن دول الخليج العربي، من أجل الحصول علىٰ مزيد من المساعدات المالية والقروض والأسلحة.

نستعرض في الجدول الآتي هذه الأدوار مقرونة بالأثر الذي تمارسه على صعيد نشأة الصراعات وتطورها، من خلال معيارين، وهما: التدخلي -اللاتدخلي، ومعيار: صراعي -تعاوني.

م	الدور	تدخلي- لا تدخلي	صراعي - تعاوني	مثال
١	حامي الثورة	تدخلي	صراعي	الاتحاد السوفيتي- ليبيا
٢	تصدير الثورة	تدخلي	صراعي	إيران
٣	المعادي لأيديولوجيا	تدخلي	صراعي	أمريكا والشيوعية
٤	المدافع عن أيديولوجيا	تدخلي	صراعي	إيران- الفاتيكان
٥	المستقل النشط	لا تدخلي	تعاوني	دول عدم الانحياز
٦	رجل الشرطة	تدخلي	صراعي	أمريكا
٧	الموازن الدولي	تدخلي	صراعي	مصر الستينات- أستراليا
٨	الوسيط الدولي	لا تدخلي	تعاوني	الأمم المتحدة
٩	صانع السلام	لا تدخلي	تعاوني	السويد
١٠	الجسر الدولي	لا تدخلي	تعاوني	سويسرا
١١	الحليف المخلص	لا تدخلي	تابع للدولة الكبرى	دول حلف وارسو
١٢	النموذج	لا تدخلي	تعاوني	الاتحاد السوفيتي
١٣	قائد التكامل الإقليمي	تدخلي	تعاوني	الدول المؤسسة للاتحاد الأوروبي
١٤	المدافع الإقليمي	تدخلي	صراعي	مصر الستينيات

ثالثًا: المتغيرات المؤثرة في صنع السياسة الخارجية:



لكي تخرج السياسة الخارجية كمنتج نهائي، تمر بتفاعلات معقدة بين عدد من المتغيرات تختلف بحسب كل دولة.

هذه المتغيرات هي بمنزلة «الدي إن يه» أو «الحمض النووي» الذي يتحكم في سمات وخصائص وطبيعة السياسة الخارجية.

لذلك تختلف السياسة الخارجية لإيران، عن السياسة الخارجية لمصر، وهكذا تختلف السياسة الخارجية لأي دولة عبر فترات زمنية طويلة نسبيًّا، بحسب التبدل الذي يطرأ على هذه المتغيرات.

سواء كانت الدولة ديمقراطية أم ديكتاتورية، شرقية أم غربية، إسلامية أم مسيحية، في النهاية المتغيرات نفسها هي التي تتحكم في الشكل النهائي للسياسة الخارجية.

تنقسم هذه المتغيرات إلىٰ ٣ مجموعات رئيسة:

المتغيرات الموضوعية -المتغيرات النفسية -المتغيرات الوسيطة.

الدراسات المتراكمة عبر السنوات في هذا الفرع من علم السياسة، عززت من القدرة علىٰ التعامل مع مختلف أبعاد السياسة الخارجية والتأكد من كونها تنتج عن تفاعلات منتظمة يمكن تحليلها واكتشاف أنماطها وقوانينها، ومن ثم تفسيرها وتوقعها.

هذه المتغيرات لا تعمل بالطريقة نفسها في كل حالة، أو كل زمن، أو مع كل دولة، فالأوزان النسبية لكل متغير تختلف بحسب الحالة والظرف والدولة.

عملية تفاعل متغيرات السياسة الخارجية وتأثيرها في صنع السياسة وشكلها النهائي يطلق عليها «نسق السياسة الخارجية Foreign Policy System». فهو نسق تتفاعل وتترابط وحداته مع بعضها في سياق منتظم متكامل بذاته.

في الفقرات الآتية نقدم تعريفًا وعرضًا سريعًا لهذه المتغيرات دون التعمق في تفصيلاتها لكون المقام لا يتسع لذلك، لكن سنذكر تفصيلًا في بعض المتغيرات من باب التمثيل والتوضيح.

(١) المتغيرات الموضوعية:

التسمية بالموضوعية هنا سببها التفرقة بين هذه المتغيرات التي تنشأ وتعمل في سياق البيئة التي تصنعه فيها السياسة الخارجية، وتمارس تأثيرها، وبين المتغيرات المتعلقة بفهم صناع السياسة أنفسهم.

يوجد نوعان من المتغيرات الموضوعية، بحسب منشئها.

١. المتغيرات الداخلية:

هي المتغيرات التي تنبع من داخل الدولة نفسها وفي إطارها، وتشمل ما يأتي:

أ- المتغيرات الموضوعية القيادية:

وهي مجموعة الدوافع الذاتية والخصائص الشخصية لصانعي السياسة الخارجية.

توجد دراسات عديدة في هذا الباب، وهي تعتمد بصفة أساسية علىٰ علم النفس، وبصورة إجمالية توجد عوامل تعزز من تدخل القائد السياسي في صنع السياسة الخارجية، منها: أن يكون له اهتمام بالأوضاع الخارجية، وأن تكون له خبرة في هذا المجال، وأن تكون له كاريزما، وأن يتسم بالمرونة، إلخ. هذه العوامل تجعل القائد السياسي يمارس دورًا أكبر في صنع السياسة.

أما الدوافع والخصائص الشخصية التي تؤثر بصورة مباشرة في السياسة الخارجية للدولة، فقد ذكرت الدراسات مجموعات مختلفة من الدوافع.

بعضها علىٰ سبيل المثال يركز علىٰ البيئة التي نشأ فيها القائد السياسي، فتذكر بعض الدراسات أن الرئيس الأمريكي «وودرو ويلسون» في طفولته خضع لسيطرة والده سيطرة كاملة، وأن ذلك أوجد لديه دافعًا قويًا نحو امتلاك القوة وممارستها وفرض إرادته علىٰ الآخرين، وقد تجلىٰ ذلك في مؤتمر فرساي عام ١٩١٩م، عندما أصر علىٰ فرض رأيه علىٰ الحلفاء في تسوية الخلافات حول الحرب العالمية الأولىٰ، لدرجة أنه هدد بالانسحاب من المؤتمر.

دراسة أخرىٰ تقول إن فقدان الرئيس المصري الأسبق «جمال عبد الناصر» الإحساس بالأمن في طفولته نتيجة وفاة والدته في طفولته، وزواج أبيه السريع

من أخرىٰ، أوجد لديه ميلًا للشك في الآخرين، واتباع سياسات تتضمن احترام الذات.

دراسة أخرىٰ تذكر أن الرئيس السابق «أنور السادات» كانت لديه نزعة منذ الطفولة إلىٰ الشعور بالنجومية والبروز في الوسط المجتمعي، وقد انعكس ذلك علىٰ سياسته الخارجية، كما حدث في طريقة إعلانه البدء في مفاوضات مع «إسرائيل» بالذهاب الاستعراضي إلىٰ الكيان عام ١٩٧٧م.

مثال أخير، دراسة أجريت لتحليل الدوافع الذاتية المتعلقة بالحاجة إلىٰ: الإنجاز، والقوة، والانتماء. والهدف معرفة كيف أثر كل دافع في السياسة الخارجية لعدد من الرؤساء الأمريكيين.

كشفت الدراسة أن الرؤساء الذين يتميزون بتعاظم الدافع نحو القوة، يكونون أكثر ميلًا للدخول في صراعات أو حروب، وأقل قدرة علىٰ عقد تسويات أو اتفاقات هدنة، وأن الرؤساء الذين يتميزون بقوة دافع الانتماء أو الإنجاز، يكونون أكثر نزوعًا لعقد الاتفاقات المتعلقة بالحد من التسلح.

إجمالًا، توجد ستة من الدوافع والخصائص التي تؤثر في القادة السياسيين فيما يخص عملية صنع السياسة الخارجية، وهي:

الدافع القومي -اعتقاد القائد في قدرته علىٰ ضبط الأحداث -الحاجة إلىٰ القوة -الحاجة إلىٰ الانتماء -إدراكه للعالم الخارجي -درجة الثقة بالآخرين.

ب- المتغيرات الموضوعية البنيوية:

والمتغيرات المرتبطة بالتكوين البنيوي للدولة، تشمل الخصائص القومية، والنظام السياسي، وسنعرض لبعضها تفصيلًا في فقرة قادمة.

٢. المتغيرات الخارجية:

وهي المتغيرات الناشئة من البيئة الإقليمية أو الدولية، وليس من داخل الدولة نفسها، فهي متغيرات خارج سلطة الدولة وتأثيرها المباشر. وتشمل تلك المتغيرات: النسق الدولي، والمسافة الدولية، والتفاعلات الدولية، والموقف الدولي.

النسق الدولي: يقصد به الوحدات المكونة لهذا النسق، وهي الدول، أو الفاعلون الدوليون الآخرون، وطبيعة العلاقة بينها، والقواعد والأنظمة الحاكمة، والتفاعلات السياسية الحادثة بيها، مثل وجود حالة استقطاب، أو تحالفات جديدة، إلخ.

المسافة الدولية: تختص بالفروقات بين الدول محل الدراسة والدول الأخرىٰ التي تتعامل معها، فليس المقصود المسافة الجغرافية فقط، بل أيضًا الفروقات أو التشابهات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية، إلخ.

علىٰ سبيل المثال، هناك نظرية يطلق عليها: «نظرية تحول القوة»، ومضمونها أنه إذا زادت الفروقات في القوة بين دولتين متجاورتين، واختل توازن القوىٰ بينهما، فإن ذلك يدفع الدولة التي تقلصت قوتها إلىٰ الدخول في صراع من أجل استعادة التوازن.

التفاعلات الدولية: يختص بتفسير السياسة الخارجية للدولة علىٰ ضوء الدول الأخرىٰ تجاهها.

فالسلوك الصراعي المصري تجاه «إسرائيل» في مرحلة معينة، قد يكون نتيجة للسلوك الصراعي «الإسرائيلي» تجاه مصر في مرحلة سابقة.

الموقف الدولي: السياسة الخارجية تصاغ علىٰ مستوىٰ القرارات والسلوكيات لمواجهة مواقف دولية مختلفة، فهذه المواقف هي الحافز أو السبب المباشر لصنع هذه السياسة.

وهناك ٣ عوامل أساسية تحدد طريقة تأثير الموقف علىٰ السياسة الخارجية، وهي:

المفاجأة -التهديد -الوقت المتاح.

بعض المواقف تكون متوقعة، مثل قيام أمريكا بغزو العراق عام ٢٠٠٣م، وبعضها يكون مفاجئًا، مثل هجمات سبتمبر ٢٠٠١م، أو الهجوم الياباني علىٰ ميناء بيرل هاربور عام ١٩٤١م، الذي تسبب في دخول الولايات المتحدة في الحرب العالمية الثانية.

من حيث التهديد، بعض المواقف الدولية تصنع تهديدًا كبيرًا، مثل أزمة صواريخ كوبا بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، والتي كانت درجة التهديد فيها مرتفعة لقرب «كوبا» من الأراضي الأمريكية. وقد يكون الموقف الدولي لا يمثل تهديدًا بالنسبة لأمريكا، كاستخدام نظام بشار الأسد للسلاح الكيماوي.

بالمثل، فإن بعض المواقف يكون هناك وقت طويل نسبيًا للتعامل معها، وبعضها يتطلب ردًا فوريًا وحاسمًا. مثل أزمة رهائن السفارة الأمريكية في طهران عام ١٩٧٩م، فهذا الموقف كان يتطلب التدخل السريع.

(٢) المتغيرات النفسية[١]:

تنصرف تلك المتغيرات إلىٰ فهم القائد السياسي صانع السياسة الخارجية للمتغيرات الموضوعية، فهذه الأخيرة لا تنتج أثرها في السياسة الخارجية إلا من خلال فهم صانع السياسة الخارجية لتلك المتغيرات، فإذا لم يدرك صانع السياسة الخارجية وجود متغير موضوعي معين فإن ذلك المتغير لن ينتج أثرًا في السياسة الخارجية للوحدة، وإذا أدركه بطريقة معينة فإن هذه الطريقة ستؤثر في السياسة الخارجية بما يناسبها.

فإذا تصور القائد السياسي أن دولته تمتلك قوة عسكرية ضخمة بالمقارنة بقوة العدو، فإنه سيتصرف في السياسة الخارجية علىٰ أساس هذا التصور، حتىٰ لو لم تكن دولته تمتلك تلك القوة في الواقع.

من الأمثلة التاريخية المهمة، عندما وقعت أزمة سياسية بين بروسيا وفرنسا عامي ١٨٦٩ - ١٨٧٠م نتيجة لانتصار بروسيا علىٰ النمسا، ولأن ترشيح أمير بروسي لعرش إسبانيا، عدَّته فرنسا بمنزلة انتقاص لهيبتها السياسية، فإن الإمبراطور «نابليون الثالث» تكونت لديه قناعة بأنه قادر علىٰ إنهاء تلك الأزمة عسكريًّا وصولًا إلىٰ احتلال برلين نفسها، وشاركه في تلك القناعة الحكومة وغالبية الرأي العام الفرنسي.

وهكذا أعلن نابليون الحرب علىٰ بروسيا في ١٤ يوليو ١٨٧٠م، متصورًا أن ميزان القوة في صالحه.

كانت تقديراته خاطئة، فقد ألحقت بروسيا هزيمة فادحة بالجيش الفرنسي في ٣ سبتمبر ١٨٧٠م في موقعة سيدان التي أُسِر فيها «نابليون الثالث»، بل واحتُلت باريس ذاتها.

---

(١) تحليل السياسة الخارجية، مرجع سابق ص١٣٩-١٤٠.

هنا نجد أن ميزان القوى الموضوعي كان في غير صالح نابليون الثالث، إلا أنه تصرف كما لو أن هذا الميزان في صالحه.

مثال آخر، نموذج صدام حسين الذي اعتقد أن الإشارات التي تلقاها عن المسؤولين الأمريكيين بمنزلة ضوء أخضر لغزو الكويت، مع ضمان عدم تدخل عسكري أمريكي، هنا أدرك «صدام» المتغيرات الموضوعية الخارجية على غير ما هي عليه في الواقع، فأدى ذلك إلى تعرضه لهزيمة ساحقة.

مثال ثالث، الرئيس المصري السابق «أنور السادات» كانت له طريقة في فهم النفوذ الأمريكي بحيث كان مقتنعًا أن واشنطن تمتلك ٩٠٪ من أوراق اللعبة في الشرق الأوسط، وعليه كان يصيغ سياسته الخارجية بناء على هذا التصور.

ومن ثم فإن المتغيرات النفسية -التي هي فهم صانع السياسة لمتغيرات الموضوعية- هي الوسيط الذي تُنتج من خلاله المتغيرات الموضوعية آثارها في السياسة الخارجية.

مدى التطابق أو التفاوت بين المتغيرات الموضوعية -أي «البيئة الموضوعية Operational environment»- وبين تصور صانع السياسة الخارجية لتلك المتغيرات ولخصائصه الشخصية -أي البيئة النفسية Psychological environment- هو الذي يحدد فرص نجاح أو فشل السياسة الخارجية، فكلما زاد هذا التطابق، زادت فرص نجاحها.

ما سبق يبين لماذا تهتم الدول الغربية بدراسة وتحليل السمات الشخصية للقادة السياسيين في المنطقة العربية وغيرها من دول العالم، للتعرف إلى الكيفية التي تُصنع بها قرارات السياسة الخارجية، ومن ثم يخططون للتأثير في هذه القرارات من خلال فهمهم لهذه السمات والمتغيرات النفسية، ولذلك يصبح

بمقدورهم أن يمرروا إشارات معينة وهم يدركون جيدًا كيف سيفهمها متخذ القرار، وكيف سيتأثر بها.

يستعرض عميل المخابرات الأمريكي السابق «مايلز كوبلاند» في كتابه «لعبة الأمم»، كيف كان خبراء «السي آي إيه» يعملون من خلال ما أطلق عليه اسم «مركز اللعب» علىٰ محاكاة زعماء العالم من خلال دراسة سماتهم وخصائصهم ودوافعهم الشخصية، وتوقع ردود أفعالهم وسلوكياتهم تجاه الأزمات والمواقف الدولية.

يقول «كوبلاند»: «في مركز اللعب كانت هناك مجموعة منتقاة من أبرع الخبراء الذين تعاقدت معهم حكومة الولايات المتحدة للقيام بتمثيل اتجاهات السياسة العالمية وأزمتها، محاولين معرفة نتائجها وتقويمها علىٰ حقيقتها، وبالاستعانة بالتقارير والمعلومات التي كانت تصل تباعًا من وزارة الخارجية والمخابرات المركزية والبنتاجون وغيرها من الوكالات، كانت عدة مجموعات من الخبراء، كل يمثل دولة من دول العالم، تحاول تحديد مواقف تلك الدول والخروج بحلول مناسبة للأزمة الطارئة، وتنقل تلك النتائج والإجراءات المقترحة بشكل مذكرات تذكر أن ذاك اللاعب -خبير أو مجموعة خبراء- الذي يمثل دور تيتو أو ديغول أو عبد الناصر، يظن أن تيتو الحقيقي (أو ديغول أو ناصر) سيتحركون تحت ظروف مماثلة في هذا الاتجاه أو ذاك. وستكون ردود أفعالهم في الشكل هكذا أو كذلك. ويحاول ذلك الخبير في تقريره أن يذكر أيضًا إن كان يتوقع أكثر من حل واحد للقضية الواحدة مع احتمال أسبقية حل علىٰ آخر. ويوضع كل ذلك أمام مكاتب بعض المسؤولين الذين أتقنوا دراسة صفات الشخصيات العالمية، وأجادوا تمثيل أدوار الزعماء والقادة إلىٰ الحد الذي لا يخطئون في توقعات ردود أفعالهم إلا نادرًا جدًّا»(١).

---

(١) مايلز كوبلاند، لعبة الأمم، مكتبة الزيتونة، بيروت، ١٩٧٠، ص٤٣.

(٣) المتغيرات الوسيطة:

تنقسم المتغيرات المتعلقة بأي ظاهرة إلىٰ نوعين: متغيرات مستقلة، ومتغيرات تابعة، ويكون المطلوب هو دراسة كيف تؤثر المتغيرات المستقلة في التابعة، وكيف تتأثر التابعة بالمستقلة.

في بعض الظواهر السياسية يكون من المناسب أن تدرج متغيرات أخرىٰ هي المتغيرات الوسيطة، وهي تؤدي دور الوسيط بالفعل، فالمتغيرات المستقلة تؤثر فيها، ومن ثم تؤثر هي في المتغيرات التابعة.

في حالة السياسة الخارجية، فإن المتغيرات المستقلة هي المتغيرات الموضوعية والمتغيرات النفسية، والمتغير التابع هو «السياسة الخارجية».

هنا يبرز دور المتغيرات الوسيطة، التي هي هيكل وعملية صنع السياسة الخارجية، أي ما يتعلق بالمؤسسات والأجهزة المشتركة في عملية صنع القرار المتعلق بالسياسة الخارجية، وأشخاص العاملين في هذا المجال، والعمليات التي تتم في سياق اتخاذ القرار، إلخ.

لا يتسع المقام في هذا الكتاب لتناول الكيفية التي تؤثر بها كل من هذه المتغيرات في السياسة الخارجية، ومن ثم في نشأة وتطور النزاعات الدولية، لكن يمكننا انتقاء بعض هذه المتغيرات والتركيز عليها بما يكفي لتوضيح المنهجية التي تعمل بها.

المقدرات القومية:

نتناول هنا أحد عناصر الخصائص القومية للدولة، بعدِّها ضمن المتغيرات البنيوية الداخلية الموضوعية.

بداية، فإن الخصائص القومية هي: خصائص كلية كامنة في الدولة تتسم بالاستقرار النسبي، ويمكن قياسها وتحليلها.

وتنقسم عادة إلىٰ خمسة مكونات:

١. المقدرات القومية.

٢. المشكلات الاجتماعية.

٣. التكوين الاجتماعي

٤. التكوين القومي.

٥. التوجهات المجتمعية.

- **المقدرات القومية**: هي المقدرات العسكرية والاقتصادية الناشئة عن تفاعل حجم الموارد المتاحة مع مستوىٰ التطور التكنولوجي للدولة. ويعبر عنها عادة في العلاقات الدولية بعناصر قوة الدولة. وقد سبق الحديث عنها في الفصل الثالث.

- **المشكلات الاجتماعية**: هي المشكلات ذات الطبيعة المزمنة في الدولة، النابعة من البنيان الاقتصادي والاجتماعي، مثل البطالة، وعدم الاستقرار السياسي، والتضخم، إلخ.

- **التكوين الاجتماعي**: يتعلق بالانقسامات داخل المجتمع، باعتبار الطبقات، أو النخب، أو جماعات المصالح.

- **مستوىٰ التطور القومي**: يتعلق بدرجة وعي المواطنين بالخصائص المشتركة فيما بينهم، ومستوىٰ الانتماء القومي.

- **التوجهات المجتمعية**: مجموعة الأفكار الأساسية التي يعتنقها معظم أفراد المجتمع والتي تحدد رؤيتهم للعالم الخارجي.

التركيز هنا سيكون علىٰ متغير: المقدرات القومية[1].

المقصود بالمقدرات القومية هنا: حجم الموارد المتاحة، ومستوىٰ التحديث.

العنصر الأول -أي الموارد- هو الذي يحدد ما إذا كانت الدولة كبيرة أو صغيرة.

العنصر الثاني -أي التحديث أو التطور- هو الذي يحدد ما إذا كانت الدولة، متقدمة أم متخلفة.

العنصر الأول:

النتيجة التي تعززها الدراسات المكثفة، أن الدول «الكبيرة المتقدمة» أقرب إلىٰ تبنىٰ سياسة خارجية توسعية، تسعىٰ إلىٰ استغلال أو استنزاف موارد قوة الدول الأخرىٰ، وهذا يؤدي بالتبعية إلىٰ مزيد من الصراعات الجديدة، أو تصعيد في صراعات قائمة. وذلك مقارنة بالدول الصغيرة المتخلفة، التي تكون أقل نشاطًا وعدوانية.

أجريت دراسة علىٰ ٣٢ دولة في الفترة من عام ١٩٥٩م إلىٰ عام ١٩٦٨م، كشفت أن الدول الكبيرة -بحسب العينة- قد أنشأت ٢٨٨ سلوكًا دوليًّا في فترة الدراسة، في حين أنشأت الدول الصغيرة ٥٥ سلوكًا فقط في الفترة نفسها.

---

(١) تحليل السياسة الخارجية، مرجع سابق من ص١٦٤ إلى ص١٧٤، بتصرف.

كما اكتشفت الدراسة أن الدول الخمس الكبرىٰ، وهم الأعضاء الدائمون في مجلس الأمن -أمريكا، روسيا، فرنسا، بريطانيا، الصين- تحتكر حوالي ٤١٪ من السلوك السياسي الدولي. وهذا يقتضي أن هذه الدول أيضًا هي الأكثر إثارة -ومشاركة- في النزاعات الدولية.

المقدرة العسكرية من أهم الموارد التي تملكها الدولة، وتعني امتلاك الموارد والتكنولوجيا المتاحة للدخول في صراع مسلح قد يصل إلىٰ حد الحرب الشاملة، بما في ذلك إعداد الجيوش ومستوىٰ التسليح والتدريب.

امتلاك الدول للمقدرة العسكرية يمثل عاملًا مهمًّا يغري الدولة باللجوء إلىٰ القوة العسكرية، كما أنه يشكل رادعًا قويًّا للدول الأخرىٰ، وعاملًا من عوامل انتصار الدولة في حالة دخولها مواجهات عسكرية.

يؤكد علماء الأنثروبولوجيا من واقع دراساتهم للمجتمعات القديمة أن مجرد توافر الآلة العسكرية يؤدي بالمجتمع تدريجيًّا إلىٰ الميل لاستخدامها في التعامل مع الآخرين، ومن ثم فامتلاك الدولة لتلك المقدرة يغري قادتها باستخدامها لإخضاع القوىٰ المعادية أو المنافسة، ولذلك فإن الدول الكبرىٰ تكون أكثر نزوعًا لاستخدام القوة العسكرية من الدول الصغرىٰ.

في دراسة أخرىٰ مهمة تناولت الحروب في الفترة من ١٨٤٠م إلىٰ ١٩٤٠م، تبين وقوع حوالي ٢٦٠٠ معركة دولية رئيسة، وكانت نسبة مشاركة الدول الكبرىٰ -في تلك الفترة الزمنية- فيها كما يأتي:

- شاركت فرنسا في ٤٧٪ من تلك المعارك.
- شاركت الإمبراطورية النمساوية المجرية في ٣٤٪ منها.

- شاركت ألمانيا في ٢٥٪.

مقابل مشاركة محدودة للدول الصغيرة، وهي:

الدانمارك في ٢٪، والسويد في ٤٪ .. وهما من الدول الصغرىٰ.

في العقود المتأخرة، تراجعت نسبة مشاركة الدول الكبرىٰ في الحروب بصورة مباشرة -بخلاف الولايات المتحدة- وذلك بسبب تراجع النفوذ الدولي للدول الكبرىٰ مقارنة بعصور الاستعمار، إضافة إلىٰ تجنب تلك الدول الدخول في مواجهات عسكرية بينها خشية من تطور الأمور وخروجها عن السيطرة في ظل توافر أسلحة شديدة التدمير، في مقدمتها الأسلحة النووية.

لكن ذلك لا يمنع من لجوء هذه الدول إلىٰ تصفية حساباتها من خلال ما يعرف بالحروب بالوكالة.

العنصر الثاني:

علىٰ صعيد متغير «مستوىٰ التحديث»، فإن الدول الحديثة -أو تلك التي تمر في طور التحديث- تستخدم السياسة الخارجية كأداة للتنمية، كما أنها تولي القضايا الاقتصادية أهمية كبرىٰ في أولويات سياستها الخارجية.

وتبين بعض الدراسات أن مرحلة بداية التحديث بما تفرزه من تغيرات اجتماعية، هي أخطر المراحل بالنسبة لاحتمال عسكرة السياسة الخارجية، واحتمال لجوء الدولة إلىٰ الحرب.

كيف تؤثر المقدرات القومية في السياسة الخارجية -الصراعات الدولية؟[1]

بالرغم مما سبق فإن امتلاك الدولة لحجم كبير من المقدرات العسكرية والاقتصادية قد لا ينعكس بالضرورة علىٰ قدرتها أو رغبتها في تحقيق أهداف سياستها الخارجية بالدرجة نفسها.

في المقابل فإن بعض الدول قد لا تمتلك إلا قدرًا محدودًا من المقدرات القومية، ولكنها تستطيع أن تحقق أهدافًا سياسية خارجية تفوق ما تؤهلها له تلك المقدرات.

تقدم بعض الدراسات حالات افتراضية تشرح كلًّا من الوضعيتين السابقتين:

أولًا: عندما تكون الدولة الكبرىٰ غير قادرة علىٰ تنفيذ أهدافها الخارجية قياسًا بقدرتها.

توجد عدة عوامل أو حالات، نذكر أهمها، وهي:

١- أن الدولة الكبرىٰ لا تستطيع أن تترجم أهدافها الخارجية تجاه دولة بعيدة عنها جغرافيًّا.

٢- أن الدولة الكبرىٰ ربما تستطيع أن تنفذ أهدافها تجاه بعض القضايا ولكنها تعجز عن ذلك في قضايا أخرىٰ.

٣- أن الدولة الكبرىٰ قد لا تستطيع أن تفرض علىٰ الدول الأخرىٰ الاستجابة لمطالبها، لأن هذه الدول تتوقع من تلك الدولة الكبرىٰ أن تتراجع في النهاية عن تحقيق تلك المطالب، أو تتنازل علىٰ الأقل عن بعضها.

---

(١) المرجع السابق، ص١٧٤ وما بعدها بتصرف.

٤- يوجد احتمال أن تخطئ بعض الدول في تقدير حجم وتأثير المقدرات القومية للدولة الكبرىٰ، فتتصرف كما لو أنها غير موجودة.

ثانيًا: عندما تكون الدول الصغرىٰ قادرة علىٰ تنفيذ أهدافها الخارجية بما يتجاوز مقدراتها القومية.

توجد أيضا عدة عوامل وحالات، نذكر أهمها، وهي:

١- قد تستطيع الدول الصغرىٰ أن تركز كل مقدراتها علىٰ قضية واحدة، في حين تضطر الدولة الكبرىٰ بحكم نشاطاتها العالمية إلىٰ تشتيت مقدراتها بين العديد من القضايا، ما يعطي للدولة الصغرىٰ الفرصة لكسب القضية.

٢- قد تضطر الدولة الكبرىٰ إلىٰ الاستجابة لمطالب الدولة الصغرىٰ خوفًا من انهيار الأخيرة، ما ينشئ فرصًا أمام الدولة الكبرىٰ المنافسة.

٣- قد تستطيع الدول الصغرىٰ أن تفرض إرادتها علىٰ الدولة الكبرىٰ إذا كانت مستعدة لتقديم تضحيات وتحمل خسائر.

٤- قد تستطيع الدول الصغرىٰ أن تنفذ إلىٰ داخل النظام السياسي في الدولة الكبرىٰ والتأثير في سياسة تلك الدولة تجاهها وبالذات إذا كانت الدولة الكبرىٰ ذات نظام تعددي.

٥- تستطيع الدول الصغرىٰ التأثير إذا كانت تمتلك موارد طبيعية مطلوبة وإستراتيجية.

٦- تستطيع الدول الصغرىٰ التلويح بالانحياز إلىٰ دولة كبرىٰ منافسة لتؤثر في الدولة الكبرىٰ الحليفة.

الخلاصة:

أن امتلاك الدولة للمقدرات القومية يزيد من فاعلية السياسة الخارجية.

أو بعبارة أدق: يزيد من قدرة الدولة علىٰ التصرف «Capacity to act» لكن هذه العلاقة ليست علاقة طردية، ذلك أن التحليل السابق يوضح أنه ليس ثمة توافق ضروري بين المقدرات وبين فاعلية السياسة الخارجية.

يتطلب تحويل المقدرات القومية إلىٰ سياسة خارجية فعالة، أو ممارسة سلوك صراعي، أن تتوافر إرادة لدة صناع السياسة الخارجية في الدولة لترجمة القوة إلىٰ أفعال، أو نفوذ خارجي.

كما يتطلب أن يكون هؤلاء قادرين علىٰ إقناع صانعي السياسة الخارجية في الدول الأخرىٰ بجديته، وإلا لن يحدث الأثر المطلوب.

اليابان مثلًا، لديها قدرات قومية كبيرة، لكن ليست لديها رغبة في ترجمة هذه القوة إلىٰ نفوذ خارجي.

علىٰ صعيد الإقناع، فإن الولايات المتحدة نفسها تواجه أحيانًا صعوبة في إقناع بعض الدول بجديتها في توظيف قوتها لتمديد نفوذها، كما حدث مع «بشار الأسد» الذي كان مقتنعًا بأن واشنطن لن ترد علىٰ استخدامه الأسلحة الكيميائية.

من النظريات المهمة في بيان الكيفية التي تؤثر بها المقدرات القومية علىٰ السياسة الخارجية، أو السلوك الصراعي، «نظرية الخصائص Attribute theory»، بحسب هذه النظرية فإن الخصائص القومية لدول ما -ومنها المقدرات القومية- لا تؤثر كثيرًا في السلوك الصراعي لتلك الدولة بصورة مطلقة، وإنما

تمارس تأثيرًا نسبيًّا، أي بالمقارنة مع الخصائص القومية للدول الأخرىٰ المحيطة التي تتعامل معها أو تتنازع معها.

علىٰ سبيل المثال، فإن عدوانية السياسة الخارجية لإسرائيل تجاه الدول العربية، تأتي بدرجة كبيرة نتيجة التفاوت في المقدرات القومية بينها وبين تلك الدول، خاصة ما يتعلق بالقدرات العسكرية، لكن هذا التأثير يأتي فقط تبعًا للنسق العرب المحيط. فإذا افترضنا مثلًا أن إسرائيل كانت موجودة في نسق آخر من الدول، أوروبا مثلًا، فإن مقدراتها القومية هنا سيكون تأثيرها أقل بكثير مقارنة بالنسق العربي.

بناء علىٰ ذلك برزت نظرية أخرىٰ لتفسير تأثير المقدرات القومية علىٰ السلوك الصراعي للدول، أطلق عليها «نظرية المحيط Field theory» وهي تحلل المقدرات القومية في إطار الدول المحيطة.

الحاصل هنا أن المتغيرات القومية لها دور واضح -وإنما بقيود معينة- في تنفيذ أهداف السياسة الخارجية للدولة، مع أهمية أن يراعي صانع السياسة الخارجية تحقيق التوازن بين المقدرات المتاحة وبين متطلبات العمل في البيئة الدولية.

والذي يحدث في حالات كثيرة، أن هذا التوازن يتم تجاوزه، بسبب وجود أهداف وتطلعات لدىٰ دولة معينة تدفعها لممارسة دور يتجاوز مقدراتها القومية.

علىٰ سبيل المثال، عندما قرر هتلر في أثناء الحرب العالمية الثانية أن يغزو الاتحاد السوفيتي، فإنه بذلك قد تجاوز المقدرات القومية لألمانيا، والتي كانت مستنزفة عن آخرها في الجبهات الأوروبية، فكان ذلك القرار نقطة تحول في الحرب، وسببًا مباشرًا لخسارته الكاملة.

كذلك، فإن الدور السياسي الإقليمي والدولي الذي حاول الرئيس المصري جمال عبد الناصر أن يؤديه في الستينيات، بالدخول في نزاعات وصراعات متعددة، أدىٰ في نهاية الأمر -لكونه يتجاوز المقدرات القومية للدولة- إلىٰ حدوث خسائر كبيرة وتراجع اقتصادي حادٍّ، ثم انكماش في السياسة الخارجية في السنوات التالية.

أيضًا فإن دخول أمريكا الحرب الفيتنامية، واستمرارها سنوات عديدة، نتج عنه انكماش مؤقت في السياسة الخارجية الأمريكية، من شواهده انتكاس تلك السياسة في إفريقيا عدة سنوات.

نستعرض في الفصل القادم «تطبيقات عملية» نموذجين للسياسة الخارجية العدوانية، المنشئة للصراعات، وكيفية تفاعل المتغيرات بمجموعاتها الثلاث من خلالها.

١- نموذج الاحتلال السوفيتي لأفغانستان عام ١٩٧٩م.

٢- نموذج السياسة الخارجية الإيرانية تجاه البحرين.

الفصل الثامن

تطبيقات عملية

على السياسة الخارجية المنشئة للصراع[1]

(١) نموذج الاحتلال السوفيتي لأفغانستان

٢٥ ديسمبر ١٩٧٩م-١٥ فبراير ١٩٨٩م[1]

(١) هذا الفصل مقتبس بتصرف من/ د لويد جنسن، تفسير السياسة الخارجية، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٤٠٩ه ص١ إلى ص٥.

في ديسمبر ١٩٧٩م تدخلت القوات السوفيتية في أفغانستان بدعوىٰ أن الحكومة الأفغانية المناصرة للماركسية قد طلبت منها ذلك، وقد فوجئ صانعو السياسة الخارجية الأمريكية بالتدخل السوفيتي، لدرجة أن الرئيس كارتر صرح بأنه قد أعاد النظر في سياسته تجاه الاتحاد السوفيتي وتجاه الانفراج.

إن تكرار مثل هذه الأحداث، وبهذه الصورة، يوضح أنه من الضروري تطوير أساليب تمكننا من فهم العوامل المحركة لسياسات الدول، أي معرفة الأسباب التي تدفع الدول إلىٰ التصرف بالطريقة التي تنتهجها إزاء مشكلة معينة. فمثل هذه المعرفة ستمكِّننا من الاستعداد للتعامل مع الأحداث الدولية المختلفة.

ليس من السهولة تحديد الأسباب التي تؤخذ في الحسبان عند اتخاذ قرار متعلق بالسياسة الخارجية.

في حالة الغزو السوفيتي لأفغانستان، يمكن للباحث أن ينظر لأسباب الغزو من مداخل متعددة، **بحسب المدخل الأيديولوجي** يمكن القول إن التدخل السوفيتي يهدف إلىٰ تقديم العون لحكومة ماركسية في وضع متأزم، ومن ثم نشر المبادئ الماركسية في دولة أفغانستان والمنطقة الإقليمية المحيطة بها. يدعم هذا التحليل تزامن التدخل السوفيتي لأفغانستان مع قرار تغيير الرئيس «حفيظ الله أمين» بـ«بابراك كارمل» الأكثر مناصرة للماركسية.

يفترض باحثون آخرون أن الدافع الرئيس للاتحاد السوفيتي لتنفيذ الغزو هو **حسابات الأمن والقوة**، والتي هددها ظهور مجموعة من الدول الإسلامية

علىٰ الحدود الجنوبية لروسيا. فأفغانستان هي حلقة الوصل المفقودة بين إيران وباكستان. ولذلك فربما تصور القادة السوفيت، لحسابات معينة، أن عدم الاستقرار السياسي في إيران بعد الإطاحة بالشاه، والإهانة التي تلقتها الولايات المتحدة نتيجة حصار السفارة الأمريكية في طهران، قد يدفعان الولايات المتحدة إلىٰ التدخل في إيران، ولذلك فإن الوجود السابق للسوفيت في أفغانستان سيكون مفيدًا لهم في حالة حدوث مثل هذا الاحتمال، أو قد يؤدي هذا الوجود إلىٰ إحباط محاولة الولايات المتحدة التدخل في إيران.

يوجد **بُعد ثالث لتفسير القرار**، وهو أن هذا الغزو جاء امتدادًا للسياسة الروسية التقليدية التي تهدف للوصول إلىٰ موانئ المياه الدافئة التي لا تتوافر لديهم، ومن ثم فإن أفغانستان يمكن أن تكون منفذًا إلىٰ الخليج العربي.

تفسير رابع للقرار، يفترض أن الحسابات الاقتصادية هي التي دفعت السوفيت إلىٰ التدخل في أفغانستان. إلا أن هذا التفسير يناقضه قلة الموارد المتاحة لأفغانستان أصلًا، بحيث إن تكلفة الغزو ستفوق حتمًا أي مكاسب اقتصادية ناجمة عن القرار. لكن لو وسعنا إطار النظر بحيث يكون غزو أفغانستان خطوة في الطريق إلىٰ منابع النفط الغنية، فإن التفسير الاقتصادي للتدخل السوفيتي يكتسب مصداقية أكبر.

فالوصول إلىٰ الخليج يساعد في توفير الطاقة، ليس فقط في الاتحاد السوفيتي وإنما في أوروبا الشرقية أيضًا. ومن المحتمل أن يكون هدف القرار السوفيتي من التدخل هو منع وصول موارد الطاقة في الخليج إلىٰ الدول الغربية والتحكم في طرق الملاحة البحرية في الخليج.

هناك تفسير خامس، حيث يرىٰ بعض الباحثين أن التدخل السوفيتي هو محاولة من جانب قوة عظمىٰ لتعزيز هيبتها الدولية. فالإطاحة بحكومة ماركسية

وإقامة نظام إسلامي معادٍ للاتحاد السوفيتي من شأنه الإضرار بسمعة السوفيت في الخارج، ما قد يثير شكوك النظم الماركسية في قدرة موسكو علىٰ تقديم يد العون لهم في حالة تهديد سيادتهم. كما أنه قد يثير التساؤلات عن فاعلية الاتحاد السوفيتي كقوة في السياسة العالمية بصفة عامة.

وإن كان الأمر كذلك فإنه يمكن القول إن صانعي القرار السوفيتي قد أساؤوا التقدير، فبدلًا من أن يعزز تدخلهم في أفغانستان من هيبتهم الدولية أدىٰ إلىٰ تشويه سمعتهم وإضعاف مكانتهم الدولية.

التفسيرات الخمسة السابقة تهدف إلىٰ تفسير السلوك السوفيتي من منظور أهداف السياسة الخارجية وردود أفعالها.

لكن يمكن تفسير قرار الغزو **من منظور داخلي**، ذلك التفسير أن قيادات الدولة أرادوا صرف الأنظار عن المشكلات الاقتصادية الداخلية بالدخول في مغامرات خارجية. وهذا نمط معتاد للحكومات الدكتاتورية، وقد كان الاتحاد السوفيتي يعاني في تلك الفترة عدم استقرار داخلي تمثل في زيادة حدة القمع السياسي والركود الاقتصادي.

يوجد **تفسير ثانٍ فيما يتعلق بالوضع الداخلي**، وهو أن تخوف قيادة الاتحاد السوفيتي من أثر تنامي المشاعر الإسلامية في ذلك الوقت سيؤثر في مسلمي الاتحاد السوفيتي، فالمسلمون هم أكثر فئات الشعب السوفيتي زيادة، وقد زاد عددهم بحوالي ١٠ ملايين نسمة خلال السبعينيات حتىٰ وصل ذلك العدد إلىٰ ٤٠ مليونًا في تعداد عام ١٩٧٩م. ومن ثم؛ فإنه إن وصل أثر المد الإسلامي في الدول الإسلامية المجاورة إلىٰ داخل الاتحاد السوفيتي؛ فإن ذلك سيكون من عوامل تهديد الاستقرار الداخلي، بحسب تقدير المسؤولين وقتها.

تفسير ثالث يرتبط بالوضع الداخلي، وهو أن القرار ربما كان نتيجة لمناورات بيروقراطية داخل القيادة السوفيتية، انتصر فيها الائتلاف المحافظ. والواقع أن حيزًا كبيرًا من التصرفات السوفيتية التي عاصرت التدخل السوفيتي في أفغانستان كانت تتعلق بمن سيخلف الرئيس المريض « ليونيد بريجينيف» في الحكم.

تفسير رابع يتعلق بالمتغير الموضوعي القيادي، وهو الخصائص الفردية لصانع القرار، فربما أصيب «بريجينيف» بإحباط سببه عدم تصديق مجلس الشيوخ الأمريكي علىٰ معاهدة «الحد من الأسلحة الإستراتيجية الثانية» (سولت٢). ونتيجة لهذا الإحباط، ولازدياد الطابع العدائي لسياسة كارتر، رأىٰ «بريجينيف» ومن حوله أنهم لن يفقدوا شيئًا بالتدخل العسكري في أفغانستان. كذلك؛ فإن عدم التصديق علىٰ (سولت٢) ربما أثار استياء «بريجينيف»، فكان لزامًا عليه -من الناحية النفسية علىٰ الأقل- أن يعبِّر عن هذا الاستياء بطريقةٍ مفاجئة ومثيرة في الوقت نفسه.

يستطيع الباحث أن يجد عـددًا من الشواهد التي تؤيد كلَّ واحـدٍ من هذه التفسيرات التسعة السابقة، وكلها ذات مصداقية، ولكن من الصعب أن نصل إلىٰ القناعة التامة بأنه قد تم التوصل إلىٰ التفسير الحقيقي. ومن ثم؛ فإن القرار السوفيتي بالتدخل في أفغانستان ربما كان محصلة لمعظم تلك العوامل؛ إن لم يكن محصلةً لها كلها. وربما كانت هناك دوافع أخرىٰ سرية لم تتوافر معلومات كافية عنها.

من الصعب في كثيرٍ من الحالات التوصل إلىٰ العوامل المسببة لبعض قرارات السياسة الخارجية نظرًا لعدم توافر المعلومات الضرورية، وقد يصدق ذلك بالأخص علىٰ العوامل الفردية، مثل السمات الشخصية والدوافع الذاتية، فغالبًا ما يكون صانعو القرار أنفسهم غير متأكدين من الدوافع التي دفعتهم إلىٰ

القيام بتصرف معين. وتزداد صعوبة الحصول على المعلومات في ظل النظم التسلطية نظرًا لأن حركيات عملية صنع القرار يكتنفها الغموض.

وحتى في النظم الديمقراطية فإن عملية صنع القرار السياسي تتم من خلال عدد محدود من الأفراد يعملون في إطار من السرية التي تفرضها حسابات الأمن، زيادة على أن كثرة المعلومات، ربما كانت من العوامل التي تعرقل إمكان التوصل إلى العوامل التي تفسر خيارات السياسة الخارجية. ولهذا السبب يستطيع المرء أن يجد من المعلومات ما يؤيد أيًا من التفسيرات المحتملة، كما اتضح لنا عند محاولة تحديد دوافع التدخل السوفيتي في أفغانستان عام ١٩٧٩م.

«ترجع أهمية فهم دوافع السياسة الخارجية إلى أن هذا الفهم يمكّننا من التنبؤ بالأحداث الدولية، ثم بالتعامل بشكلٍ فعّال مع تلك الأحداث. لكنّ محللي السياسة الخارجية لم يتمكنوا بعد من التنبؤ بالأحداث الدولية وتوقعها بدقةٍ سابقًا. فقد أكد استطلاع لآراء ١٧١ خبيرًا في وزارة الخارجية، وفي المؤسسات الأكاديمية والصحافة الأمريكية، أجري عام ١٩٦٥م، أن نسبة الدقة في التنبؤ لم تتجاوز ٦٤٪، وذلك في ٢٥ تنبؤًا حول احتمال وقوع أحداث دولية معيّنة، وذلك في مدى للتنبؤ يتراوح ما بين سنة وخمس سنوات، ونظرًا لأن بعض هذه الأحداث يدور فقط حول إمكان التنبؤ بحدوث صراع أو عدم حدوثه أو معاهدة مفترضة، فإن درجة الدقة لم تتجاوز الدرجة المتوقعة نتيجة لعامل الصدفة».

ختامًا، لكي يتمكن المرء من التنبؤ بسلوك السياسة الخارجية، عليه أن يطرح التساؤلات الصحيحة، ولا بد له من اختيار المتغيرات المناسبة، ذلك أن مشكلة فهم السياسة الخارجية لا تكمن غالبًا في عدم توافر المعلومات، ولكن في عدم القدرة على تصنيف المعلومات المتاحة بخصوص موقف معين.

الفصل التاسع

تطبيقات عملية
على السياسة الخارجية المنشئة للصراع
(٢) السياسة الخارجية لإيران تجاه دول الخليج
«البحرين أنموذجًا»

علىٰ مر العصور والأزمنة ظل الخليج العربي عربيًّا، حتىٰ مع انهيار الدول الإسلامية الكبرىٰ وغلبة الحكم القبلي علىٰ منطقة شبه الجزيرة قبل أن تبدأ الدول العربية المعاصرة في التكون منذ ٢٦٠ عامًا تقريبًا في منطقة الخليج.

مع تتابع أنظمة وأسر مختلفة علىٰ حكم إيران بدءًا من الفرس وحتىٰ حكم القاجاريين الذي انتهىٰ عام ١٩٢٥م، فإن إيران اتسمت طيلة هذه القرون بضعف قوتها البحرية، فكانت الملاحة في الخليج تحت السيطرة العربية بصورة دائمة، حتىٰ عندما كان الإيرانيون يحتلون بعض الموانئ العربية، فإن هذه السيطرة كانت تتم عن طريق البحارة العرب[١].

منذ القرن السابع عشر الميلادي توافقت المصالح البريطانية الإيرانية علىٰ ضرب القوة البحرية العربية التي مثلت لكليهما عقبة في طريق السيطرة علىٰ الخليج، فإيران كانت عاجزة عن إحكام نفوذها علىٰ أي من مناطق الساحل العربي، وبريطانيا لم تنفرد بالسيطرة علىٰ طريق الملاحة في الخليج إلا بعد أن قضت علىٰ القوة البحرية للقبائل العربية الذين تمتعوا بمهارات وقدرات عالية في فنون البحر[٢]، وفي مقدمتهم القواسم الذين أطلق عليهم الاحتلال وصف «القراصنة» تزويرًا للحقائق.

من منطلق التوافق البريطاني الإيراني، جاءت تسمية الخليج في الوثائق البريطانية بـ«الفارسي»، ومنه تشبثت طهران بهذه التسمية وتعصبت لها.

(١) د. فؤاد إسحاق خوري، القبيلة والدولة في البحرين، معهد الإنماء العربي، بيروت، ١٩٨٢م، ص٣٤.

(٢) السابق ص٣٥.

احتلت البحرين طيلة القرون الماضية موقعًا إستراتيجيًا مهمًا في السياسة الخارجية الإيرانية، ولم يؤثِّر تغير الأنظمة الإيرانية في أهمية البحرين في المنظور القومي الإيراني، فبالنظر إلىٰ مفهوم «المصلحة» كقوة سياسية، تبدو -أو يُفترض بها أن تكون- سياسات الدول الخارجية كحلقة عقلانية متصلة ومفهومة دون تأثير كبير للدوافع الشخصية للحكام المتعاقبين، وفق هذا المفهوم يُفترض أن تتواصل هذه السياسات الخارجية رغم التبدل الذي يصيب الزعامات السياسية أو التحول الذي يحدث في نمط الأيديولوجيا المسيطرة أو في نماذج القيم السياسية والاجتماعية السائدة[1].

استنادًا إلىٰ مجموعة المتغيرات المؤثرة في السياسة الخارجية، يمكن تحليل السياسة الإيرانية تجاه البحرين.

يبرز بوضوح تأثير العوامل الجغرافية والاجتماعية والدينية في صنع السياسة الخارجية الإيرانية تجاه الخليج العربي بصفة عامة، والبحرين بصفة خاصة.

هذه العوامل تتسم بثبات واضح، لكونها تتعلق بطبيعة موقع إيران الجغرافي، وانتمائها الديني، ونهجها الطائفي، وتركيبتها المجتمعية، وكذلك السمات الجغرافية والدينية والاجتماعية لدول الخليج العربي.

لذلك لم تتغير السياسة الخارجية الإيرانية تجاه البحرين طيلة قرون، إلا في حدود ضيقة، وبقيت ثوابت واضحة تتحدد من خلالها صورة وطبيعة العلاقة بين البلدين.

---

(١) د. أنور محمد فرج، النموذج المعرفي الواقعي لدراسة العلاقات الدولية، المركز العلمي للدراسات السياسية، الأردن، ص٢٦.

ويمكن حصر أهم «المتغيرات الموضوعية» المؤثرة في صناعة السياسة الخارجية الإيرانية تجاه البحرين في النقاط الآتية:

١. البعد العقدي له تأثير كبير في السياسة الإيرانية بغض النظر عن نظام الحكم، سواء كان علمانيًّا، أو دينيًّا، فمع أن النظام الديني يبدي تشددًا أكبر في التعامل مع البحرين، إلا أن الأهداف العامة تبقىٰ واحدة تقريبًا.

٢. إيران عبارة عن هضبة داخلية يتركز فيها أغلبية الشيعة، محاطة من الداخل بحزام من الأقليات التي تنتمي إلىٰ أعراق وطوائف مختلفة. هذا التوزيع السكاني يشعر حكام إيران دومًا بالقلق، ما يحدث لديهم نزعة دائمة لتأمين المحيط الداخلي، عن طريق نقل الاضطراب إلىٰ المحيط الخارجي.

٣. البحرين أكبر جزيرة مأهولة بالسكان في الخليج مع تنوع في مواردها من المياه والزراعة وصيد اللؤلؤ والأسماك.

٤. موقعها الخطير في خاصرة شبه الجزيرة العربية بحيث تصلح قاعدة للانطلاق والسيطرة.

٥. رغم أن البحرين دولة سنية، فإن النسبة السكانية المرتفعة للشيعة جعلتها دومًا في بؤرة الأطماع الإيرانية

٦. موقعها في وسط الخليج الذي يُمَكِّن أي قوة بحرية كبرىٰ من التحكم في مسار الملاحة.

٧. ضعفها العسكري نظرًا لصغر مساحتها وقلة عدد سكانها مقارنة بدول الخليج الأخرىٰ.

٨. البحرين في حاجة دائمة إلىٰ تحالفات سياسية لضمان الأمن القومي.

٩. صغر المساحة والقلة النسبية للسكان تجعل من احتمال دمج البحرين في أي صفقة سياسية تفرضها تطورات الأحداث، أمرًا قائمًا.

فيما يتعلق بالمتغيرات النفسية:

لو أخذنا شخصية «الخميني» كمثال، فقد كانت لديه فجوة كبيرة بين تصوره للقدرات القومية لبلاده وقدرات خصومه، وبين ما هي عليه في الواقع فعلًا.

هذه الفجوة جعلته يصرح بعبارته الشهيرة عن تجرع «كأس السم» لإنهاء الحرب مع العراق، في حين كان يظن أن الحرب ستكون بمنزلة نزهة قصيرة.

إذًا المصلحة القومية الإيرانية، كما يراها صانع السياسة الخارجية، تعُدُّ أن البحرين يجب أن تكون جزءًا لا يتجزأ من الدولة الإيرانية مهما كان النظام الحاكم في طهران، وأيًا كانت المسوغات المعلنة لهذا الاستحواذ.

نعم يصعب علىٰ طهران -حاليًا- تطوير سياسة خارجية تجاه البحرين تتبنىٰ نهجًا صراعيًا واضحًا، سواء بضم البحرين عنوة، أو القيام باستفزازات عسكرية، بالنظر إلىٰ طبيعة النظام الدولي والتوازنات الإقليمية والدولية، ومحدودية القدرات الإيرانية، إلا أنه ينبغي استحضار ما سبق ذكره عن المتغيرات النفسية ودورها في صنع السياسة الخارجية، فهذه المتغيرات تتعلق بالطريقة التي يفهم بها قادة إيران طبيعة الأوضاع والتوازنات الداخلية والخارجية، فقد يتزامن في طهران وجود قادة لديهم تطرف أيديولوجي، وفهم منغلق للواقع السياسي الإقليمي والدولي، يدفعهم لاتباع سياسة خارجية عدوانية غير محسوبة العواقب.

الفكرة الأخيرة يمكن فهمها بدرجة أوضح باستخدام نموذج «الشخصية المنغلقة-الدوجماتي» الذي وضعه أستاذ السياسة «ميلتون روكيتش»:

بحسب هذا النموذج فإن السياسي الدوجماتي يتميز بقدر كبير من القلق، واهتمام أكبر بمصادر المعلومات بدلًا من مضمونها، وتتضاءل لديه القدرة علىٰ استيعاب المعلومات التي تتعارض مع النسق العقدي، ولذلك يصعب عليه صنع قرارات رشيدة في السياسة الخارجية، كما تتقلص لديه القدرة علىٰ دراسة عدد كبير من الخيارات عند اتخاذ قرار معين.

السياسي الدوجماتي أيضًا يزداد لديه تصور المؤامرات، ما يدفعه إلىٰ تكوين نماذج نمطية للعدو عندما يشعر بالتهديد، وهو أقل صبرًا في التعامل الدولي، ولديه استعداد كبير لاستعمال القوة، وهو أكثر ميلًا إلىٰ تصعيد الحروب المحدودة لتصبح حروبًا شاملة بغية إنهاء تلك الحرب بشكل حاسم[1].

مع كون السياسة الخارجية الإيرانية تتسم بالعداء بصورة عامة، إلا أن اقتران ذلك بوجود زعيم أو قائد سياسي يندرج ضمن نموذج «الشخصية المنغلقة»، يزيد من درجة تطرف السياسة الخارجية الإيرانية إلىٰ درجة الصدام العسكري المباشر.

المثال الأبرز لهذه الشخصية هو «آية الله الخميني»، زعيم الثورة الإيرانية، الذي اصطدم مع العراق في حرب مدمرة استمرت ثماني سنوات، وانتهت بمقتل أكثر من مليون شخص من الجانبين، وخسارة تتجاوز ٤٠٠ مليار دولار.

من أمثلتها أيضًا، الرئيس السابق «أحمدي نجاد» الذي اتسمت سياساته وخطاباته الخارجية بالطائفية والعدوانية.

---

(١) تفسير السياسة الخارجية، مرجع سابق ص٢٧.

من جهة أخرى، لا يخفي أن السياسة الإيرانية على مر العصور تتميز بـ«الإلحاح» والإصرار والصبر، ولعل الفقرة التالية تلقي الضوء على هذه الصفة من خلال استعراض تاريخ «التحرش» الإيراني بالبحرين.

تاريخ المطالبات الإيرانية بالبحرين:

أولًا: مرحلة ما قبل الثورة الإيرانية:

مع بداية الحكم الصفوي لإيران -١٥٠٧م/ ٩٠٧هـ- وإجبارهم سكانها على التشيع في العقود التالية، تغيرت الموازين في منطقة الخليج العربي نتيجة ظهور دولة شيعية قوية، أدت إلى انتقال مركز الثقل الشيعي إلى الشرق من الخليج، وبذلك أصبح الساحل الغربي العربي واقعًا في قوس النفوذ والأطماع الشيعية المنبعثة من بلاد فارس، ولا يزال كذلك حتى الآن.

بالنظر في معطيات الفترة التي واكبت تأسيس الدولة الصفوية كانت عمليات الاحتلال لأراضي الغير تتخذ أشكالًا متعددة متفاوتة في قوتها.

منها: السيطرة الكاملة المستقرة الممتدة زمنيًّا بواسطة قوات عسكرية مع خضوع البلد للحكم المباشر، مثاله: بريطانيا والهند.

ومنها: السيطرة الجزئية عن طريق القوة العسكرية -ولا يشترط أن تكون متمركزة في الأرض المحتلة- وترك الحكم للقوى المحلية مع تدخل انتقائي، مثاله: الاستعمار البريطاني لسواحل الخليج العربي.

ومنها: السيطرة المتقطعة عن طريق حلفاء أو أتباع دون وجود قوة عسكرية مقيمة، مثاله: حكم «آل مذكور» للبحرين باسم إيران.

ومنها: الاكتفاء بتحصيل الضريبة أو «الإتاوة» السنوية، دون قوة عسكرية أو حكم، مثاله: إيران والبحرين، عمان والبحرين، وفي المثالين لم يدُم ذلك إلا أوقات قليلة جدًّا.

عند تطبيق ما سبق علىٰ تاريخ العلاقة بين إيران والبحرين منذ مطلع القرن السابع عشر نجد أن الاحتلال الإيراني للبحرين كان متقطعًا ومنحصرًا في النمطين الثالث والرابع، وهما أضعف صور الاحتلال ويصعب أن يترتب عليهما حقوق تاريخية، مع التأكيد أن الاحتلال في معظمه عمل ينطوي علىٰ الغصب والسلب، والإقرار بحقوق لكل قوة استعمارية يعني أن بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وهولندا والبرتغال وغيرها من دول الحقبة الاستعمارية لهم حقوق في أغلب بلاد المسلمين.

اضطرت إيران دومًا إلىٰ ممارسة سياساتها الطامعة علىٰ الساحل الغربي للخليج في ظل الاستعمار البريطاني، الذي كان يتخذ ردود أفعال متفاوتة تتراوح بين غض الطرف وتقديم الدعم المباشر، وبدأ التعاون بين الطرفين منذ عام ١٦٠٢م عندما تمكن شاه إيران من طرد البرتغاليين من البحرين واحتلالها[١] بمساعدة شركة الهند الشرقية -واجهة الاستعمار البريطاني-[٢]، وبقيت البحرين تابعة لإيران عدة سنوات، وجاء ذكر لهم عام ١٦٢٢م عندما جلبوا البارود من الجزيرة لأجل استخدامه في حصار جزيرة هرمز[٣]، وسيطر الإيرانيون علىٰ البحرين علىٰ فترات متقطعة حتىٰ منتصف القرن الثامن عشر[٤].

---

(١) ج. ج. لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج١ ص٢٩.

(٢) نجدة فتحي صفوة، من نافذة السفارة، العرب في ضوء الوثائق البريطانية، رياض الريس، لندن، ص٢٥٠.

(٣) دليل الخليج، ج٣ ص١٢٦٨.

(٤) من نافذة السفارة ص٢٥٠.

- **عام ١٧٥٢م** تحالف حاكم بوشهر الشيخ ناصر، مع حاكم ميناء ريق «المير ناصر» -كلاهما من أصول عربية- للاستيلاء علىٰ البحرين التي كانت محكومة من قبل الهولة، وظل حاكم بوشهر مسيطرًا علىٰ الجزيرة عدة سنوات حتىٰ اعتقله «كريم خان» حاكم شيراز عام ١٧٥٥م بسبب اعتدائه علىٰ سفن إيرانية، ومطالبًا إياه بدفع عوائد عن احتلال البحرين طيلة ثلاث سنوات[١].

- **عام ١٧٩٩م** قام حاكم إقليم فارس بتحريض نظيره العماني علىٰ مهاجمة سفن بحرينية في سياق محاولاته لضم البحرين إلىٰ حكمه، في الوقت نفسه استطاع شيخ بوشهر أن يُقنع حاكم البحرين بوضع نفسه تحت الحماية الإيرانية ودفع الضريبة، لكن هذه الحماية لم تُفِد بشيء، إذ استولىٰ حاكم عمان علىٰ الجزيرة في الفترة ١٨٠٠-١٨٠٢م بعد تلقيه مساعدات إيرانية لتحقيق الغزو، لكنه أخفق في الاحتفاظ بها واضطر للانسحاب[٢].

- **عام ١٨١٦م** هاجم سلطان عمان البحرين بدعم إيراني تمثل في سفن من بوشهر ومقاتلين من كانجون وعسالو، لكن المحاولة أخفقت إخفاقًا ذريعًا بعد نزول القوات في المحرق[٣].

- **عام ١٨٢٢م** وُقِّعت اتفاقية غامضة ومثيرة للجدل بين المقيم السياسي البريطاني في الخليج، الكابتن و. بروس، ووزير حاكم إقليم فارس، وتضمنت الاتفاقية الإقرار البريطاني بأن البحرين تابعة لإيران، وأن شيوخ العتوب -آل خليفة- تمردوا علىٰ هذا الحكم ومن ثم يجب سحب كل الامتيازات التي تمتعوا

---

(١) دليل الخليج، ج١ ص١٨٢.
(٢) دليل الخليج، ج١ ص٢٨٧، ج٥ ص٢٧٢٣.
(٣) السابق ج٥ ص٢٧٢٣، ٢٧٢٤.

بها بموجب نصوص معاهدة السلم الشاملة الموقعة مع بريطانيا، وأن على الأخيرة تجنب تقديم العون للبحرين، بل يجب عليها أن تساعد إيران في قمع تمرد «العتوب» عسكريًّا، ويزعم لوريمر أن هذه الاتفاقية رُفِضت من جانب حكومة بومباي البريطانية، وعُزِل -أو نُقِل- الكابتن بروس من منصبه[١]، وفي العام التالي -يناير ١٨٢٣م- قام الملازم مكلاود المقيم الجديد بزيارة المنامة، حيث التقى شيخ البحرين وقدم له تطمينات تتعلق بإبطال اتفاقية سلفه بروس مع إيران[٢].

اعتمدت طهران في العقود التالية على هذه الاتفاقية بوصفها إقرارًا واضحًا من لندن بتبعية البحرين لسيادتها، ورغم إنكار بريطانيا الرسمي لوجود هذه الاتفاقية وأنها لا تعدو مجرد محاولة انفرادية من المقيم البريطاني لا تحظى بتأييد، فإنها تبقى مؤشرًا على النوايا البريطانية لعدة أسباب، منها: الإصرار الإيراني الغريب على التمسك باتفاقية بروس رغم إعلان بريطانيا المستمر عدم الاعتراف بها، ومنها أن مصادر أخرى تورد هذه الاتفاقية في سياق تقسيم التحالفات البريطانية إلى شقين: علني وسري[٣]، وأن السياسة البريطانية كانت تعتمد أسلوب الاتفاقات غير الرسمية في إدارة سياستها في المنطقة، ومنها أن مسؤولًا في وزن «المقيم البريطاني في الخليج» لا يمكن أن يُخطئ في تقدير الخطوط العامة لسياسة حكومته التي يمثلها -وبحسب ما يراه رؤساؤه- إلى درجة الخلاف حول تحديد تبعية البحرين لإيران أو استقلالها.

إن النسبة المقبولة للتباين بين رؤية المسؤول ورؤية حكومته لا تتجاوز العشرة بالمائة، ومن غير المنطقي أن يمارس المسؤول السياسي عمله انطلاقًا من رؤية خاصة به مناقضة لرؤية حكومته.

---

(١) السابق ج٣ ص١٢٦٨.
(٢) السابق ج٣ ص١٢٨٧.
(٣) القبيلة والدولة ص٤٦.

- **عام ١٨٤٥م** أرسلت إيران أول مذكرة احتجاج إلىٰ اللورد إبردين وزير خارجية بريطانيا آنذاك، ردًّا علىٰ طلب إبردين تقديم حكومة فارس براهين تثبت حقوقها في الجزيرة[١].

- **عام ١٨٦٩م** أرسل وزراء الشاه احتجاجات متتالية إلىٰ الوزير المفوض في طهران المستر أليسون وإلىٰ المقيم البريطاني الرائد بيللي، وكذلك فعل السفير الإيراني في لندن، وكان موضوع الاحتجاج رفض طهران للتدخلات البريطانية في أزمات البحرين ذلك الوقت وأنه كان يجب عليها إبلاغ إيران بنواياها بالنظر إلىٰ كون البحرين جزءًا من إيران، وجاء الرد البريطاني علىٰ هذه الاحتجاجات غريبًا، فلم يرفض مزاعم طهران بصورة قاطعة، بل أفاد وزير الدولة البريطاني لشؤون الهند -ووزير الدولة للشؤون الخارجية- في مفاوضاته مع سفير إيران في لندن، بأن هدف بريطانيا من اتفاقياتها مع شيوخ البحرين هو تحقيق السلم في منطقة الخليج، وكلها «أهداف يسعد الحكومة البريطانية أن تؤديها -إذا كان ذلك ممكنًا- من أجل الحكومة الإيرانية»[٢].

- **عام ١٨٨٦م** عاد الشاه إلىٰ إبلاغ الوزير المفوض برغبته في أن ينقل إلىٰ الحكومة البريطانية طلبه أن تعترف بحقوقه في السيادة علىٰ البحرين، وأن تسمح له بأن يُعين حاكمًا من قِبله علىٰ الجزيرة أو أن يُعترف بحاكمها الحالي ممثلًا له، مع إقراره بأن تظل السيادة البحرية في المنطقة للسلطات البريطانية[٣].

- **عام ١٩٠٥م** حدثت اضطرابات في البحرين بين السُّنة والتجار الإيرانيين تدخلت في إثرها السلطات البريطانية للدفاع عن حقوق الإيرانيين والمطالبة بدفع

---

(١) من نافذة السفارة ص٢٥٠.

(٢) السابق ج٣ ص١٣٥١، ١٣٥٢.

(٣) السابق ج٣ ص١٣٨٥.

تعويضات كافية لهم، واستخدمت في ذلك التهديدات الصريحة وحشدت السفن الحربية قبالة شواطئ الجزيرة، وأنزلت قوة عسكرية لحماية ممتلكات الأجانب في حال قصفت البحرين(١)، ونتج عن هذه الحادثة أن أرسلت الحكومة الإيرانية برقيات شكر وامتنان للسلطات الإيرانية علىٰ جهودها في حماية رعاياها، ثم عادت في السنة نفسها والتي تليها إلىٰ تأكيد حقوقها في البحرين(٢).

- **عام ١٩٣٠م** قدمت طهران احتجاجًا للحكومة البريطانية أنكرت فيه قيامها بمنح امتيازات لاستثمار النفط في البحرين دون استشارة إيران ومعرفة موقفها، وتكرر هذا الاحتجاج حينما منح شيخ البحرين امتيازًا مماثلًا لشركة ستاندرد أويل الأمريكية(٣).

- **عام ١٩٤٤م** صرح رئيس وزراء إيران حاجي ميرزا أغاسي: «إن الشعور السائد لدىٰ جميع الحكومات الفارسية المتعاقبة بأن الخليج الفارسي من بداية شط العرب إلىٰ مسقط بجميع جزائره وموانيه دون استثناء ودون منازع ينتمي إلىٰ فارس»(٤).

- **عام ١٩٤٦م** استصدرت الحكومة قرارًا من البرلمان الإيراني بعزمها ممارسة سيادتها علىٰ البحرين(٥).

- **عام ١٩٥١م** عندما أممت حكومة مصدق النفط الإيراني عدَّت ذلك التأميم ساريًا بالضرورة علىٰ النفط في البحرين(٦).

---

(١) السابق ج٣ ص١٤١٢، ١٤١٣، ١٤١٤.
(٢) السابق ج٣ ص١٤١٩، ١٤٢٠.
(٣) من نافذة السفارة، ص٢٥٠.
(٤) عبد الله محمد الغريب، وجاء دور المجوس، مكتبة الرضوان، القاهرة، ص٣٠٢.
(٥) من نافذة السفارة، ص٢٥٠.
(٦) السابق.

- **عام ١٩٥٤م** طالبت الحكومة الإيرانية بأن يكون هبوط الطائرات الدولية في مطارات البحرين خاضعًا لموافقة حكومتها السابقة(١).

- **عام ١٩٥٧-١٩٥٨م** أعلنت إيران ضم البحرين بوصفها المحافظة الرابعة عشرة(٢).

- **عام ١٩٥٨م** احتجت إيران علىٰ اتفاقية عقدتها البحرين مع السعودية بخصوص تحديد المياه الإقليمية بين الدولتين، ثم اتخذت قرارًا بعدم الاعتراف بجوازات السفر البحرينية، وقامت بتزويد رعايا البحرين القادمين إلىٰ إيران بوثائق مرور وأخذت عليهم إقرارات بكونهم من الرعايا الإيرانيين(٣).

- **في نهاية الخمسينيات** صرح وزير الخارجية الإيراني بأن البحرين جزء لا يتجزأ من إيران، وتسلم السفير البريطاني في طهران مذكرة خطية بهذا الخصوص، كما بُحثت القضية مع وزير الخارجية البريطاني سلوين لويد في أثناء زيارته للمنطقة، وتردد أن إيران وافقت علىٰ الانضمام إلىٰ حلف بغداد الذي أسسته بريطانيا بعد أن حصلت علىٰ وعد من حكومتها بتسليمها جزر البحرين(٤).

- **عام ١٩٦٨م** أعلنت بريطانيا نيتها الانسحاب من منطقة الخليج العربي في مدة أقصاها ثلاث سنوات، فتقدمت إيران بطلب إلىٰ الأمم المتحدة لإرسال بعثة تقصي حقائق إلىٰ البحرين للتعرف إلىٰ رغبة الشعب في الانضمام إلىٰ إيران، وصرح وزير الخارجية الإيراني أمام البرلمان في مارس ١٩٧٠م بأن السكرتير

---

(١) السابق.

(٢) مقال: إيران والبحرين، علاقة تصنعها الأطماع، المتوسط أونلاين ٢٥/ ١٠/ ٢٠٠٩م.

(٣) من نافذة السفارة، ص٢٥٠.

(٤) عبد الرحمن الباكر، من البحرين إلى المنفى، دار الكنوز الأدبية، ص١٦٤.

العام للأمم المتحدة قبل الاقتراح الإيراني ببذل مساعٍ من أجل معرفة الميول الحقيقية لسكان البحرين[1].

ثانيًا: مرحلة ما بعد الثورة الإيرانية:

بمجرد قيام الثورة عام ١٩٧٩م بدأت النوايا العدوانية تجاه البحرين في الظهور إلىٰ العلن، وتفاوتت الجهود الإيرانية للاستحواذ علىٰ البحرين من إطلاق التصريحات العدائية إلىٰ تدبير المؤامرات لقلب نظام الحكم، كما سبقت الإشارة إلىٰ الدور الذي أدته الجبهة الإسلامية لتحرير البحرين وغيرها من التنظيمات البحرانية التي حظيت بالدعم الإيراني.

- **في عام ١٩٧٩م** كانت التصريحات المستفزة من قبل المسؤولين الإيرانيين في حدها الأقصىٰ، فقال المرجع -المغضوب عليه لاحقًا من الخميني- حسين منتظري: إن «السلطات البحرينية تسيء معاملة الممثل الخاص للخميني في البحرين، وأعلن أن إيران ستصدر الثورة إلىٰ كل الدول الإسلامية.. إنني أناشد كل زعماء الدول المجاورة لأخذ العبرة من سقوط الشاه في إيران»[2].

برز آية الله محمد صادق روحاني بوصفه من صقور الثورة الخمينية[3]، يقول: «البحرين هي المقاطعة الرابعة عشرة في إيران.. البرلمان الإيراني الذي تخلىٰ عن المطالبة بالبحرين عام ١٩٧٠م هو هيئة غير قانونية وغير شرعية»[4].

---

(١) من نافذة السفارة، ص٢٥١.

(٢) صحيفة العرب، لندن، ١٧/ ٩/ ١٩٧٩م، نقلاً عن مقال: دفاعًا عن المناضلة سميرة رجب، د. عبد الإله الراوي ٢٨/ ٤/ ٢٠٠٨م http://alrafdean.org/node/96399.

(٣) من عجائب الإيرانيين أن روحاني أصبح مغضوبًا عليه في عهد خامنئي ووُضِع تحت الإقامة الجبرية لسنوات طويلة.

(٤) الرأي العام ١٧/ ٦/ ١٩٧٩م.

ويقول روحاني: «لقد أرسلت إلى شيخ البحرين رسالة أطالبه فيها باحترام القواعد الإسلامية ووقف الضغوط على شعبه، وإلا سنواصل مطالبتنا بالبحرين»[1]، وفي مؤتمر صحفي قال روحاني: «الشاه المخلوع تنازل للعراق عن مناطق شاسعة جنوبي إيران، بموجب اتفاق الجزائر، ٩٧٥، وإننا نشعر بالحاجة الآن إلى إيضاح وضع البحرين بالنسبة لإيران، لأن بعض الدول العربية وبينها العراق تطالب بثلاث جزر في الخليج»[2].

صرح وزير العمل الإيراني داريوش فروهر[3] بأن «جزيرة البحرين وليست الجزر الثلاث فقط -الإماراتية- تعود إلى إيران»، ووصف فورهر تقرير الأمم المتحدة الذي صدر في أعقاب استفتاء عام ١٩٧١م بأنه استفتاء مزور[4].

في عام الثورة نفسه سُئِل وزير الخارجية الإيراني فيما إذا كان تعيين إمام للجمعة في البحرين من قبل الخميني يعد تدخلا في الشؤون الداخلية للبحرين، فقال: تعيين أحد رجال الدين كإمام للجمعة لا يعدُّ تدخلًا في شؤون البحرين، كما يفعل المسيحيون لنشر دينهم[5].

- **في عام ١٩٨٠م** استنكر صادق قطب زاده -شغل بعد الثورة منصب وزير الشؤون الخارجية- على العرب المطالبة بجزر الإمارات الثلاث، وقال: إن جميع دول الخليج هي تاريخيًا تعود للأمة الإيرانية[6].

---

(١) السياسة الكويتية ١٧/ ٩/ ١٩٧٩م.

(٢) مقال: إيران والبحرين، علاقة تصنعها الأطماع، المتوسط أونلاين ٢٥/ ١٠/ ٢٠٠٩م.

(٣) تحول هو أيضًا إلى جهة المعارضة لسياسة خامنئي واغتيل من قبل عناصر النظام الاستخباراتية هو وزوجته في منزلهما عام ١٩٩٨م.

(٤) الرأي العام الكويتية ١٩/ ٦/ ١٩٧٩م.

(٥) الرأي العام ١٩/ ١٠/ ٢٠٠٧م.

(٦) إذاعة مونت كارلو ٣٠/ ٤/ ١٩٨٠م.

- **خلال العشرين عامًا التالية** ترجم النظام الإيراني مطالباته النظرية بالبحرين إلىٰ سياسة عملية، فقام بدعم وتمويل عدة حركات عسكرية وسياسية تأسست من أجل تغيير نظام الحكم في البحرين، وفي مقدمة هذه الحركات الجبهة الإسلامية، كما نسجت الأجهزة الإيرانية المختلفة وشائج وصلات وعلاقات سرية مع العديد من الرموز والقيادات الدينية والسياسية الشيعية في البحرين من أجل الاستحواذ علىٰ القرار السياسي الشيعي في الدولة، وظهر إلىٰ العلن حركات مثل: حزب الله، وأحرار البحرين، وأصبحت إيران مقرًّا رئيسًا للمعارضة الشيعية البحرانية، ونشطت أجهزة استخباراتها في تمديد نفوذها داخل البحرين محاولةً اختراق البنىٰ السياسية والدينية والاجتماعية في البلد، علىٰ ما سيأتي بيانه لاحقًا.

- **تميز العقد الأول من الألفية الثالثة** بعودة التصريحات النارية التي تطالب بضم البحرين أو تلوح بهذه الورقة، تولىٰ كِبَر هذه الحملة شخصياتٌ لا تنتمي بصورة مباشرة -آنية- إلىٰ الجهاز التنفيذي للدولة المتمثل في الحكومة التي يقودها رئيس الجمهورية، فكان أغلب هؤلاء من المسؤولين السابقين أو المرتبطين بالمؤسسات التابعة للمرشد بصورة مباشرة، أو أعضاء البرلمان، وهذا يعني أن النظام الإيراني يتبنىٰ في هذه القضية خطابين، أحدهما صادر عن السلطة التنفيذية، ويضطلع بدور التهدئة والنفي ويتخذ نهجًا دبلوماسيًّا، وثانيهما، صادر عن شخصيات تنتمي إلىٰ عصب النظام دون أن تحتل مناصب حالية في السلطة التنفيذية، وخطابها حاد اللهجة صريح في عباراته ومطالباته، وبعض هؤلاء محسوب علىٰ التيار الإصلاحي.

يبرز دور «حسين شريعتمداري» في التحريض ضد البحرين مع تبنيه خطابًا حادَّ اللهجة تجاه دول مجلس التعاون الخليجي بأسرها يناسب ميوله المتشددة،

وكان يعمل رئيسًا لتحرير صحيفة جيهان -كلمة فارسية تعني: العالم أو الكون- الموالية للجناح المحافظ، كما أنه مستشار في جهاز المرشد علي خامنئي، وتقلد في فترة سابقة منصبًا قياديًا في الاستخبارات، يقول عنه معارضوه وأبرزهم الإصلاحي محمد شمس الواعظين -رئيس التحرير السابق لجيهان- إنه أداة في يد أجهزة الاستخبارات، وإن «جيهان» صحيفة استخبارات(١)، أما صحيفته التي يترأس تحريرها فهي توزع يوميًا ما بين ٥٠٠٠٠-٧٠٠٠٠ نسخة، مع مراعاة النزعة الإيرانية المعروفة للمبالغة وتضخيم الأرقام، ويزعم «شريعتمداري» أن عدد العاملين بصحيفته يتجاوز الألف، ولها مكاتب في عدد كبير من الدول، كما تصدر عددًا من الدوريات بخلاف الصحيفة اليومية(٢).

خلاصة أفكار شريعتمداري تجاه البحرين أنها المحافظة الرابعة عشرة لإيران، وأن الشعب البحريني يؤيد الانضمام للجمهورية الإسلامية، وقد عبر عن أسفه في أثناء زيارة أحمدي نجاد إلىٰ البحرين لأنه بذلك يعترف بها كدولة(٣)، كما يرىٰ أن أنظمة الحكم في الخليج غير شرعية وأن لإيران حقوقًا تاريخية في هذه الدول.

يطلق شريعتمداري آراءه في مقالاته المنشورة بالصحيفة وفي حواراته ولقاءاته الإعلامية، كتب في زاويته الصحفية «مفكرة اليوم» مدافعًا عما أطلق عليه حق إيران التاريخي المدعم بالوثائق في مناطق غير محدودة علىٰ الساحل الغربي للخليج.

وقال: إن تلك الوثائق تثبت أن البحرين ظلت طيلة عقود سابقة إحدىٰ محافظات إيران، وإنها فُصِلت بعد مساومات بين شاه إيران محمد بهلوي والحكومتين الأمريكية والبريطانية.

---

(١) الشرق الأوسط، ٢٤/ ٩/ ٢٠٠٧م، مقالة مايكل سلاكمان/ نيويورك تايمز.
(٢) السابق.
(٣) المستقبل اللبنانية ٢/ ٧/ ٢٠٠٧م.

ووصف دول مجلس التعاون الخليجي بأن عمر أي منها لا يصل إلىٰ مائة عام، واتهمها بالتعامل مع إيران بـ«الشتائم» بدلًا من الشكر والتقدير لاعترافها باستقلال البحرين رغم «خيانة» الشاه، وانتقد شريعتمداري الموقف الخليجي من الجزر الإماراتية التي تحتلها إيران، فقال موجهًا خطابه إلىٰ المجلس «يستحيل أن تخرج الجزر الثلاث من السيطرة الإيرانية، فلماذا لا تتوقفون عن ترديد هذه المسخرة؟»[١].

وفي لقاء مع وكالة أنباء الطلبة الإيرانية، أكد «شريعتمداري» أن موقفه من البحرين ليس انفراديًّا، وزعم أنه موقف العديد من الناس في إيران والبحرين علىٰ السواء، ونقلت صحيفة جيهان أن كثيرًا من مواطني الدولتين أشادوا بمقال شريعتمداري عن البحرين وأرسلوا إلىٰ الصحيفة رسائل نصية عن طريق الهواتف المحمولة ورسائل البريد الإلكتروني، داعين طهران إلىٰ اتخاذ مواقف هجومية إزاء ادعاءات دول الخليج العربية[٢].

عندما زار الرئيس السابق «أحمدي نجاد» البحرين في نوفمبر عام ٢٠٠٧م، انتقد «شريعتمداري» تصنيف الزيارة علىٰ أنها بين دولتين، وقال: «من وجهة نظري فإنه يجب عدُّ هذه الزيارة بأنها إحدىٰ جولات الرئيس «أحمدي نجاد» علىٰ المحافظات»[٣]، وفي لقاء مع الطلاب في جامعة طهران: «البحرين ليست فقط كانت قبل هذا جزءًا من إيران، بل هي الآن أيضًا جزء من إيران، وإن ما نقوله موثق تمامًا»، وعن موقف البحارنة من مزاعمه، يقول: «الشعب البحريني يعدُّ نفسه جزءًا منفصلًا عن إيران.. البحرين متعلقة بإيران»[٤].

---

(١) موقع مأرب برس ١٦/ ٧/ ٢٠٠٩م.
(٢) السابق.
(٣) القدس الفلسطينية ٢١/ ١١/ ٢٠٠٧م.
(٤) صحيفة الآن ٩/ ١٢/ ٢٠٠٧م.

النقطة الأساسية في خطاب «حسين شريعتمداري» هي مدىٰ تعبيره عن الموقف الإيراني الحقيقي، بعض المحللين العرب عند تناولهم الواقع الإيراني يقسمون النخبة الحاكمة إلىٰ أربعة أقسام[1]: المتشددون في اليمين المحافظ، والمتشددون في اليسار الإصلاحي، ويبقىٰ بعد ذلك الأغلبية سواء لدىٰ المحافظين أو الإصلاحيين، وهذه القسمة بها قدر من «السذاجة» أو عدم الإلمام بالواقع الإيراني، وهي قسمة يُقصد بها «إراحة النفس»، فكل ما يصدر من تصريحات مزعجة أو أقوال مقلقة تُحالُ إلىٰ الجانب المتشدد وعليه لا يوجد داعٍ للرد أو اتخاذ أي خطوات لأن هذا الخطاب لا يعبر عن «الأغلبية».

يجيد السياسيون في إيران اللعب علىٰ التناقضات الداخلية وتضمين مواقف المخالفين في سياقاتهم من أجل إيصال رسائل غير مباشرة يسهل عليهم التملص منها، ولعل هذه السمة تنطبق بالدرجة الأولىٰ علىٰ ثنائية التشدد والاعتدال داخل التيار المحافظ والتي يمكن تفسيرها بوصفها تناقضًا مبرمجًا متفقًا عليه، أو بوصفها حالة حقيقية لكنهم يحسنون القفز عليها وتوظيفها.

ربما يوحي التناقض -الصارخ أحيانًا- بين طرفي التيار المحافظ بتوافر قدر كبير من «اللاعقلانية» في الأداء السياسي الإيراني، فعندما يطالب مستشار المرشد بضم البحرين لأنها محافظة إيرانية، ثم يبادر وزير الخارجية «منوشهر متقي» علىٰ الأثر بزيارة المنامة لتهدئة الأجواء وامتصاص ردود الأفعال، فإن ذلك يوحي بقدر كبير من التهور والارتباك، لكن عندما نعلم أن المرشد هو من يعين رئيس تحرير صحيفة كيهان، وأن «شريعتمداري» لم يصله نقد أو توبيخ رسمي علىٰ مقالاته، فإن الأمر ولا شك يتجاوز حدود التناقض، لأن «أحمدي نجاد» نفسه كان يحظىٰ

---

(١) انظر كمثال، مقال: حوار مع السيد شريعتمداري، صحيفة الدار الكويتية ٢١/ ٢/ ٢٠٠٩م.

في أثناء رئاسته السابقة بدعم ومباركة المرشد خامنئي، أي أن كلا طرفي التوتير والتهدئة يدوران في فلك المرشد.

يقدم الخبير بالشؤون الإيرانية «تريتا بارزي» تحليلًا مهمًّا لهذه الازدواجية، فهو ينقل عن بعض المتخصصين الصهاينة رؤيتهم حول الأداء السياسي للنظام الإيراني، ومنهم علىٰ سبيل المثال «أفرايم هاليفي» الرئيس السابق للموساد، الذي يقول: «أنا لا أعتقد أنهم غير عقلانيين، بل إنني أعتقد أنهم عقلانيون جدًّا، ووصفهم باللاعقلانية تهرب من الحقيقة، ووسيلة للابتعاد عن الواقع»، وينقل عن إيهود باري -إعلامي صهيوني- قوله: «الناس هنا يحترمون الإيرانيين والنظام الإيراني، وهم يعدونهم لاعبين في غاية الجدية ويدرسون خطواتهم بعناية»[1].

عن التناقض في المواقف السياسية الصادرة عن رموز ومؤسسات النظام الإيراني، يقول بارزي: «العديد بإسرائيل توصَّلوا إلىٰ الاستنتاج بأن طهران غير عقلانية، لأنَّ هذا ما يودُّ رجالُ الدين أن يراه أعداء إيران، لكن خلف سلوكهم المتناقض، غالبًا ما تكمن سياسة وحيدة صيغت بعناية شديدة، فإيران تستخدم هذا التناقض لكي تخفي مصالحها، وتترك انطباعًا بأنها غير عقلانية ولا يمكن التوقع بتصرفاتها، وهو ما يُطلق عليه انعدام العقلانية المتقمِّص»، وهذا التقمص ليس محض استنتاج، بل يؤكده إستراتيجيون ومسؤولون إيرانيون، فيقول «أمير مهيبيان» -إستراتيجي محافظ بارز-: «ينبغي ألَّا نكون دولة يمكن لأعداء إيران معرفة طريقتها في التفكير والتوقع بما ستقوم به».

---

(١) تريتا بارزي، حلف المصالح المشتركة، التعاملات السرية بين إسرائيل وإيران والولايات المتحدة، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ٢٠٠٨م ص٣٧١.

والتقىٰ بارزي مع أحد المساعدين السابقين لمستشار الأمن القومي الإيراني -رفض ذكر اسمه لحماية نفسه- فقال له: «عليك ألَّا تجعلهم يفهمون كيفية إدارتك لشؤونك الخاصة.

لهذا السبب، أعتقد بأن إثارة الحيرة أمر مقصود. ولهذا السبب يسمحون للمؤسسات المختلفة بالتعبير عن العديد من السياسات المتناقضة، ولا بأس بذلك. فهذا يتيح لإيران الأمن لأننا نعرف ما نريد أن نقوم به»(١).

إذًا إثارة الحيرة فيما يتعلق بالسياسة الخارجية الإيرانية مع البحرين أمر مقصود، وتبني أركان النظام لمواقف متعارضة من استقلال البحرين أيضًا سياسة مبرمجة.

وبالعودة إلىٰ خطاب «شريعتمداري»، فإن الإعلام الداخلي والخارجي -الغربي تحديدًا- لا يتناولون كتاباته بوصفها خطابًا متشددًا متطرفًا لا يمثل إلا صاحبه، بل يُنظر إليها علىٰ أنها تعبير دقيق عن التوجهات السياسية العامة للنظام، تقول الناشطة الإصلاحية «ناهد توسلي» -رئيسة تحرير مجلة نافيه الثقافية- إن الافتتاحيات التي يكتبها شريعتمداري أشبه بـ«الوعاء» الذي يقدم الأفكار التي تدور في أروقة الحكم في إيران، والقضايا التي تشغل صانعي القرار، والقرارات التي قد يتخذونها في هذه القضية أو تلك(٢)، ويذكر «شريعتمداري» نفسه أن صحيفة فاينانشيال تايمز نشرت عام ٢٠٠٦م قائمة بأكثر افتتاحيات الصحف تأثيرًا في كل بلد حول العالم، فكان هو الأبرز في إيران، ويفسر هو ذلك الاختيار بالقول: «إن السبب هو حسن التنبؤ الذي تتمتع به افتتاحية جيهان»(٣).

---

(١) السابق، ص٣٧٣، ٣٧٤، والهامش ٤٠١.

(٢) الشرق الأوسط ٢٦/ ٣/ ٢٠٠٧م.

(٣) السابق.

حالة «حسن التنبؤ» كما عبر عنها «شريعتمداري»، يصفها مسؤول إيراني سابق بأنها «تطبيق فوري» لتوجيهات خامنئي، وفيما يتعلق بمقالة البحرين، يقول ذلك المسؤول إنها ربما تكون محاولة من «شريعتمداري» لتطبيق ما نادىٰ به خامنئي -تزامنًا مع رئاسة نجاد الأولىٰ- حول أن سياسة إيران الخارجية يجب أن تكون هجومية وليست دفاعية، في انتقاد ضمني لأداء حكومتي «رفسنجاني» و«خاتمي» السابقتين[1]، وهذا يفسر ليس فقط خطاب «شريعتمداري»، بل أداء الرئيس نجاد نفسه فيما يتعلق بالشأن الخارجي.

- **عام ٢٠٠٧م** وبينما كان وزير الخارجية الإيراني «منوشهر متقي» يتجهز لزيارة البحرين من أجل التهدئة، أدلىٰ النائب في البرلمان الإيراني علي أحمدي بتصريحات جديدة تهدد بضم البحرين، والنائب أحمدي عضو في لجنة الأمن القومي والسياسة الخارجية، أي أنه يدرك جيدًا ما يقوله ويصرح به، فقال منتقدًا موقف الدول العربية المؤيدة لاسترجاع جزر الإمارات الثلاث: «إذا أرادت الدول المطلة علىٰ الساحل الجنوبي للخليج الفارسي.. أن تستند إلىٰ التاريخ وأن تقوم بنوع من نبش القبور التاريخية ستتضرر أكثر من غيرها.. العديد من هذه الدول العربية كانت وفي بعض الفترات جزءًا من إيران، حيث إن البحرين وحتىٰ الأعوام الأخيرة كانت جزءًا من الأراضي الإيرانية»[2]،.

في العام نفسه تناول موقع «رجاء نيوز» -محسوب علىٰ مؤيدين للرئيس نجاد- أزمة تصريحات شريعتمداري، فقال محلله السياسي: «يشكل الشيعة ٧٠ في المائة من السكان الأصليين في البحرين، حيث يتقن الكثير منهم اللغة الفارسية، ويشاهدون الأخبار والأفلام والمسلسلات من القنوات الإيرانية،

---

(١) الشرق الأوسط ١٣/ ٧/ ٢٠٠٧م.

(٢) موقع محيط ١٤/ ٧/ ٢٠٠٧م.

وهناك في المنامة مؤيدون جديون للألعاب الدورية لكرة القدم الإيرانية وبل لفريقي استقلال وبرسبوليس في المنامة».

وأطلق الموقع تنبيهًا واضحًا: «لقد حذر قبل هذا مسؤولو الجمهورية الإسلامية الإيرانية دول مجلس التعاون بأنه إذا استمروا في مساندتهم لادعاءات الإمارات العربية المتحدة بشأن الجزر الإيرانية ستحيي إيران أيضًا حقها في ملكية البحرين وستتابعه، وذلك بالرغم من عزوف الشاه عنه في عام ١٩٧١»[1].

- **فبراير ٢٠٠٩م** صرح النائب الإيراني داريوش قنبري -عن مقاطعة إيلام- في مداخلة برلمانية بأن البحرين محافظة إيرانية وقال: «إن البحرين كانت، وحتىٰ قبل ٤٠ عامًا، جزءًا من الأراضي الإيرانية، وانفصلت عن إيران عن طريق استفتاء مشبوه. وإذا ما أجري اليوم استفتاء نزيه في البحرين فإن شعبها سيصوت للانضمام إلىٰ الوطن الأم». الشرق الأوسط ١٣-٢-٢٠٠٩م.

- **فبراير ٢٠٠٩م أيضًا**، أثار علي أكبر ناطق نوري الرئيس السابق لمجلس الشورىٰ ووزير الداخلية الأسبق -١٩٨١، ١٩٨٥م- ضجة كبيرة عندما قال في احتفال بمناسبة ذكرىٰ الثورة في مدينة مشهد: إن البحرين تابعة لإيران وإنها كانت في الأساس المحافظة الرابعة عشرة وكان يمثلها نائب في البرلمان، الوسط ١٣-٢-٢٠٠٩م وسبب الاهتمام بتصريح علي نوري هو شغله منصب «رئيس دائرة التفتيش العام في مكتب المرشد».

بصورة تلقائية بادر عدد من المسؤولين في الحكومة الإيرانية إلىٰ التخفيف من سخونة التصريحات سعيًا لتهدئة الأزمة، فعقد السفير الإيراني في المنامة ووزير الداخلية الإيراني وغيرهم لقاءات وأجروا مقابلات مع مسؤولين من البحرين

---

(١) المصدر السابق.

للإعراب عن تأكيد الاعتراف الإيراني باستقلال البحرين وحسن العلاقات بين البلدين، وفي تصريح غريب للمتحدث باسم الخارجية الإيرانية حسن قشقاوي، نسب الأزمة إلىٰ وجود مؤامرة غربية إسرائيلية لإحداث فرقة بين إيران وجيرانها العرب. موقع قناة العالم ٢٠-٢-٢٠٠٩م.

الفصل العاشر

الخطوط الحمراء

«الخط الأحمر» عبارة رائجة متداولة في مختلف المجالات، تعبر عن «الحد الذي لا يمكن تجاوزه» أو «نقطة اللاعودة».

رغم أن «الخط الأحمر» مصطلح غير منضبط من الناحية العلمية، لكنه من المصطلحات السياسية واسعة الاستخدام.

من الصعب تحديد متىٰ بدأ استخدام هذا المصطلح علىٰ وجه الدقة، إلا أن البروفيسور بن ياجودا -أستاذ الصحافة في جامعة ديلاوير الأمريكية- يذكر أن عبارة «الخط الأحمر» ربما تكون تحويرًا لعبارة أخرىٰ قديمة، وهي «الخط المرسوم علىٰ الرمال» "line drawn in the sand".

تعود الحادثة الأقدم في التاريخ لـ«رسم خط علىٰ الرمال» في سياق سياسي أو عسكري، إلىٰ عام ١٦٨ قبل الميلاد -تقريبًا- في روما القديمة، التي كانت في صراع مع سوريا في ذلك الوقت.

أرسلت روما مبعوثًا اسمه «بوبيليوس» إلىٰ الملك «أنطيوخس الرابع - Antiochus IV» تطلب منه إلغاء هجوم مقرر علىٰ الإسكندرية، وعندما حاول «أنطيوخس» أن يماطل كسبًا للوقت، رسم «بوبيلوس» أمامه خطًّا علىٰ الرمال، وأخبره أن عليه التفكير فيما سيصنع إذا قرر عبور هذا الخط[1]، فاضطر لقبول طلب روما.

أما كيف تحول هذا الخط ليصبح باللون الأحمر، فيذكر «ياجودا» أن ذلك ربما كان اقتباسًا من أحد الكتاب أو العلماء لاستخدام اللون الأحمر كعلامة تحذير

(1) Word in the News: Red Line, nationalgeographic.com,7/5/2013.

في قياس سرعة دوران المحركات، حيث يشير الأحمر إلىٰ السرعة القصوىٰ التي لا يجب تجاوزها.

يوجد استخدام آخر لمصطلح «الخط الأحمر» يضيف له بعدًا جديدًا يتضمن معنىٰ الثبات أو الصمود أو انتهاز الفرصة الأخيرة. كان ذلك في معركة «بالاكلافا» التي وقعت عام ١٨٥٤م في سياق حرب القرم، التي كانت بين الروس من جهة، وتحالف يضم البريطانيين والعثمانيين والفرنسيين من الجهة المقابلة[١].

أخبر السير «كولن كامبل» -قائد الفوج ٩٣ الاسكتلندي- جنوده، بينما يتجهزون لهجوم كاسح من الجنود الروس: «لا انسحاب من هنا، أيها الرجال فلتموتوا حيثما تقفون». صُوِّرت هذه المعركة -أدبيًّا- عن طريق المراسل الصحفي البريطاني «ويليام راسل» بوصف الفوج الاسكتلندي مرتديًا زيه الأحمر بـ«الخط الأحمر الرفيع» الذي استطاع صد الهجوم الروسي في المرحلة الأولىٰ من المعركة.

إلا أن المعنىٰ الأول الذي يشير إلىٰ «الحد الذي لا يمكن تجاوزه» هو الغالب في الاستخدام السياسي.

في مجال العلاقات الدولية يمكن أن نتلمس تعريفًا لهذا المصطلح كما يأتي:

«هو خط افتراضي تعبر به أطراف أو جهات دولية عن مناطق النفوذ والحماية التي لا يجب تجاوزها من أطراف أخرىٰ».

أو أنه «تعبير عن الحدود التي يُعد تجاوزها إخلالًا بالتوازنات الدولية، سواء كانت هذه التوازنات رئيسة أم جزئية».

---

(١) المرجع السابق.

العبرة هنا ليست بمجرد إعلان طرف ما عن «خطوطه الحمراء» بل بقدرته علىٰ حمايته وردع من يتجاوزها.

القانون الدولي والاتفاقات والمواثيق والأعراف الدولية، هي من الخطوط الحمراء التي لا يسوغ تجاوزها، لكن ذلك لا يعني بالضرورة أن كل الخطوط الحمراء متماثلة من حيث الأهمية والردع، فأغلب الدول الكبرىٰ تتجاوز الخطوط الحمراء دون أن تكون هناك جهة قادرة علىٰ تطبيق أي عقوبة فعالة عليها.

المعيار هنا هو القوة التي تحمي الخط الأحمر:

فإذا وقع التجاوز من دولة كبرىٰ، فإن الرد علىٰ تجاوزها يكون رهنًا باتفاق أو اختلاف الدول الكبرىٰ الأخرىٰ.

أما إذا وقع التجاوز من إحدىٰ دول الأطراف -أو العالم الثالث- تجاه القانون الدولي أو التوازنات الدولية أو الإقليمية أو إذا تجاوزت مناطق نفوذ دولة كبرىٰ، فإن الرد يكون سريعًا وحاسمًا.

هناك خطوط حمراء يصعب تجاوزها حتىٰ من الدول الكبرىٰ -عالميًا أو إقليميًا- لما ينتج عن ذلك من تداعيات سلبية وعواقب، والقانون الدولي بحد ذاته يمثل خطًّا أحمر حتىٰ للدول الكبرىٰ.

فتجاهل مجلس الأمن -مثلًا- عندما تقرر دولة كبرىٰ أن تغزو دولة أخرىٰ أو تشن هجومًا عسكريًا عليها، يثير إشكالات قانونية كثيرة، بسبب تجاوز القواعد الدولية.

وعلىٰ الرغم من تجاوز الولايات المتحدة لهذا الخط أكثر من مرة، إلا أنه يبقىٰ خطًّا أحمر لا يمكن تكرار تجاوزه بصورة مستمرة دون توافر مسوغات كافية ومقنعة.

من الأمثلة كذلك أن إسرائيل لا يمكنها احتلال عاصمة عربية، لذلك توقفت على أعتاب بيروت عندما غزت لبنان في الثمانينيات، كذلك هناك خط أحمر ذاتي يرتبط بحدود العمل العسكري للكيان الصهيوني، فقادة إسرائيل يعلمون أنهم لا يستطيعون الدخول في حرب طويلة لأن ذلك سيضر بالاستقرار الداخلي، إلخ.

ليس الهدف من هذا الفصل الترويج لهذا المصطلح حرفيًّا، وإنما للمعاني التي يشير إليها، إذ من الضروري -عند تحليل الصراعات الدولية- الانتباه إلى أهمية البحث عن القيود والحدود والقواعد التي تحكم سلوكيات الأطراف المتصارعة.

إذًا تفيد معرفة الخطوط الحمراء في تفسير بعض الغوامض في العلاقات الدولية، عندما تتخذ بعض الدول في قضايا أو شؤون معينة مسلكًا يبدو متمردًا أو مناوئًا، ومع ذلك لا تتدخل الدول الكبرى. وفي بعض الأحيان تتصرف بعض الدول بحرية تامة في نطاقها الإقليمي، بحيث يبدو وكأنها هي التي تملك سيطرة ونفوذًا. حقيقة الأمر، أن ذلك كله يتعلق بالخطوط الحمراء التي يدفع تجاوزها لتفاقم الصراعات أو لتدخل قوى وأطراف دولية أخرى في المشهد.

من يعرف هذه الخطوط جيدًا يستطيع أن يفسر الغوامض والتناقضات في العلاقات الدولية.

فمعرفة هذه الخطوط -التي تحكم العلاقات بين الدول- تعطي فكرة واضحة عن حدود القوة وإمكانات استخدامها ونقاط الضعف، ومناطق التوتر والصراع المتوقعة، واحتمالات التصعيد أو التسوية.

ولا يمكن فهم أبعاد الصراعات الإقليمية والدولية دون تحديد الخطوط الحمراء التي تحكم تحركات الأطراف المتورطة في هذه الصراعات.

علىٰ سبيل المثال، عند تحليل حالة الصراع في سوريا، وهو نموذج مثالي للصراع متعدد الأطراف -سواء كانت مباشرة وغير مباشرة- سنجد أن كل الأطراف تحكمها خطوط حمراء.

فهناك خطوط حمراء تحكم تصرفات النظام السوري، مثل استخدام السلاح الكيماوي -أو هكذا تعلن الدول الغربية- من حيث الحجم ومرات الاستخدام ونحو ذلك، وكذلك عدم تجاوز الحدود مع الكيان الصهيوني، أو قصف الجولان.

بالنسبة لتركيا، يحكمها خطوط حمراء تتعلق بحجم ونوعية وانتشار قواتها العسكرية علىٰ الأراضي السورية، وحجم العمليات العسكرية، والأطراف المستهدفة، إلخ.

في المقابل، فإن تركيا تحاول أن ترسم خطوطًا حمراء، مثل التحذير من تجاوز الأكراد نهر الفرات في اتجاه الغرب.

إيران كذلك، تحكمها خطوط حمراء تتعلق بحجم الوجود العسكري، وانتشاره جغرافيًّا علىٰ الأراضي السورية، ونوعية السلاح المستخدم، ومدىٰ الاقتراب من الحدود مع فلسطين، إلخ.

ولا يشترط بالطبع أن يُعبَّر عن هذه القيود أو الحدود بمصطلح «الخط الأحمر» دومًا.

يمكن استجلاء أبعاد هذا المصطلح -الخطوط الحمراء- بتفصيل أكثر من خلال المحاور الآتية:

المحور الأول: الخطوط الحمراء.. فترة الصلاحية:

ليس شرطًا أن تكون الخطوط الحمراء التي تفرضها دولة -أو دول- معينة لها صفة الديمومة، فقد تكون متعلقة بظرف سياسي تتغير بتغيره، أو ربما لا تؤخذ على محمل الجد إلا فترة زمنية معينة ثم يتلاشى رسمها وأثرها دون إعلان أو تصريح. في المقابل هناك خطوط حمراء لا تزول مهما تبدلت الظروف والأحوال.

على مشارف نهاية الحرب العراقية الإيرانية، التقى مدير المخابرات الأمريكية -ويليام كاسي- مع المسؤول العراقي عن المخابرات في ذلك الوقت -د. فاضل البراك- في مدريد، للتباحث حول ترتيبات ما بعد الحرب.

في ذلك اللقاء عبر «البراك» عن رغبة عراقية في ضم إقليم خوزستان الإيراني ذي الأغلبية السكانية العربية، رفض «ويليام كاسي» ذلك بوضوح، وقال إن ضم الإقليم يخل بالتوازن الجغرافي الإستراتيجي بالمنطقة، وشبهه بفصل إقليم كردستان عن العراق[1].

هذا بالفعل خط أحمر غربي ثابت عبر التاريخ: لا يُسمح أبدًا تحت أي ظرف ولأي مسوغ، بتقسيم إيران أو تعرضها للاحتلال من أي دولة عربية، في المقابل تسمح الدول الغربية -أو تغض الطرف- لإيران وهي تتمدد إلى دول عربية مثل لبنان، واليمن، وسوريا، والعراق، من خلال وجود عسكري شبه دائم.

---

(١) المفاوضات السرية ج١ ص١٧٠.

في اللقاء نفسه ألمح البراك إلىٰ المزاعم القديمة للعراق في ضم الكويت، هنا جاء رد «كاسي» غامضًا مبهمًا، حيث ذكر أن هذا الموضوع ليس مجاله الآن، لكنه قال إن الولايات المتحدة ليست لديها التزامات أمنية حتىٰ الآن تجاه مشيخات الخليج[1].

كان الرد غريبًا.. فلو سلمنا بدعوىٰ عدم وجود التزام أمني أمريكي مع دول الخليج يمنع العراق من التمدد إلىٰ الكويت، فهل يقتضي ذلك أن واشنطن لديها التزام أمني مع نظام الخميني، بكونها تمنع العراق من التمدد إلىٰ خوزستان؟

كان الأمر محض تلاعب بالخطوط الحمراء لرسم طريق أمام صدام حسين للتورط في حروب مستقبلية جديدة.

أحد الخطوط الحمراء الأكثر ثباتًا، هو الدعم الأمريكي المستمر لـ«إسرائيل»، الذي عبر عنه وزير الخارجية «الإسرائيلي» الأسبق ييغال آلون عام ١٩٧٥م، بقوله: «إن واشنطن تمكنت من رسم خط أحمر تعرف كل الدول العربية أنها لا يجب أن تتخطاه: أن أمريكا لن تضحي بإسرائيل من أجل الدعم العربي»[2]. من الواضح أن هذا الخط لا يزال قائمًا ويزداد احمرارًا.

في بعض الفترات الزمنية تكون ساحة العلاقات الدولية مضطربة بالدرجة التي تعوق استقرار الخطوط الحمراء أو وضوحها، وهو ما يدفع إلىٰ تعزيز مناخ التوتر في الأزمات والصراعات المسلحة، كما هو الحال في سوريا حيث تتشابك عشرات الأطراف المحلية والإقليمية والدولية وفق مصالح ورؤىٰ متضاربة.

---

(١) السابق ص ١٧٠.
(2) Ben Zimmer, The Long History of the Phrase 'Red Line', wsj.com, 19/7/2013.

يعلق الصحفي الروسي «فيودور لوكيانوف» -رئيس تحرير صحيفة روسيا في الشؤون الدولية- بأن ذلك الوضع المضطرب في سوريا خاصة بين الدول الكبرىٰ، هو» الموقف هو الأشد خطورة منذ الحرب الباردة». وقال: «إبان الحرب الباردة، كانت المواجهة مبنية علىٰ أساس وجود خطوط حمراء. لكن اليوم لا توجد مثل هذه الأسس»[1].

في بعض الحالات تبهت الخطوط الحمراء بسبب ضعف الدول التي أعلنتها وفرضتها، بحيث إن تجاوزها يصبح مسألة وقت، تمامًا كما حدث في قضية نقل السفارة الأمريكية إلىٰ القدس المحتلة، فقد كان ذلك خطًّا أحمر أعلنته الدول العربية منذ عقود، ولم تجرؤ أي إدارة أمريكية علىٰ تجاوزه سابقًا، لكن الرئيس الحالي «دونالد ترامب» أدرك أن وجود الخط مع تلاشي لونه الأحمر، يحفز إلىٰ تجاوزه لا الوقوف عنده، فاتخذ قرارًا مفاجئًا بنقل السفارة، ومرت القضية دون ردود أفعال حتىٰ علىٰ المستوىٰ الشعبي.

المحور الثاني: اختبار الخط الأحمر:

هل يقتضي رسم الخط الأحمر أو تحديده، التزامًا تلقائيًّا من الآخرين؟

مجرد أن تقوم دولة معينة -أو مجموعة دول- برسم خطوط حمراء أمام أطراف أخرىٰ، فهذا لا يستلزم بالضرورة الاستجابة الفورية، أو الالتزام المباشر من الآخرين، بل يحدث في كثير من الأحيان ما يسميه البعض «اختبار الخطوط الحمراء»، لمعرفة طبيعة التهديد وجديته والقدرة علىٰ الحفاظ علىٰ النفوذ، أو لقياس ومقارنة مكاسب تجاوز الخط الأحمر مع خسائره، لتحديد الخيار الأنسب.

---

(١) بي بي سي ١١/ ١٠/ ٢٠١٦م.

بعض الدول -حتىٰ الكبرىٰ أحيانًا- تتورط في إطلاق تهديدات أو وضع قيود ورسم خطوط حمراء أمام دول أخرىٰ، لكنها تعجز عن الحفاظ عليها أو فرض عقاب علىٰ تجاوزها، أو أنها تفرض عقابًا غير رادع.

خط «أوباما» الأحمر:

ما دام أن بعض الخطوط الحمراء تخضع للاختبار، فمن البديهي أن الطرف الذي يرسم هذه الخطوط يضع في حسبانه قدرته علىٰ إلزام الآخرين بها، وإلا فإن تجاوز خط أحمر واحد، يشجع علىٰ تجاوز الخط التالي.

لعل المثال الأبرز علىٰ ذلك هو «الخط الأحمر الشهير» الذي أعلنه الرئيس الأمريكي السابق «باراك أوباما» في أغسطس ٢٠١٢م ضد استخدام النظام السوري للأسلحة الكيماوية للهجوم علىٰ أهداف مدنية.

قال أوباما في مؤتمر صحفي تعليقًا علىٰ التقارير حول استخدام دمشق لأسلحة كيميائية: «إن تحريك أو استخدام كميات كبيرة من الأسلحة الكيميائية سوف يعبر الخط الأحمر ويغير حساباتي»[1].

بحسب نيويورك تايمز، فإن البيت الأبيض بعد سلسلة متتابعة من الاجتماعات الساخنة، قرر أن يرسل إيجازًا تحذيريًّا إلىٰ الرئيس بشار الأسد عن طريق الوسطاء -إيران وروسيا- كان الإيجاز مختصرًا ومعبرًا: «هل أنت مجنون؟».

لكن عندما أراد الرئيس أوباما أن يطلق النسخة العامة من هذا التحذير استخدم مصطلح «الخط الأحمر» وأصبح متورطًا بشكل كبير في رد فعل ملزم.

(1) Peter Baker,Mark Landler,David E.Sanger, and Anne Barnard, nutimes.com, 4/5/2013.

لاحقًا في عام ٢٠١٧م قبل مغادرته البيت الأبيض بأيام قليلة، اعترف أوباما في حديث مع برنامج «٦٠ دقيقة» الشهير على شبكة التلفزيون «سي بي إس» أن تلك العبارة -الخط الأحمر- لم تكن في النص المكتوب وأنه ارتجلها تماشيًا مع الموقف(١).

التهديد وفرض الخط الأحمر عندما يكون مبهمًا غير واضح أو محدد، فإنه يدفع الطرف الآخر للتلاعب، في حين يقع الطرف الذي رسم الخط في ورطة، فإدارة أوباما لم تكن حاسمة في مستوى الاستخدام للأسلحة الكيماوية الذي سيصنف على أنه تجاوز للخط الأحمر، لذلك عندما أرسل البيت الأبيض في إبريل ٢٠١٣م رسالة إلى الكونجرس الأمريكي يخبرهم أن المخابرات تعتقد -بدرجات متفاوتة من الثقة- أن دمشق قد استخدمت غاز السارين على نطاق صغير، لم يكن رد الفعل الذي يجب اتخاذه واضحًا أو محسومًا، حتى أن أحد مسؤولي الإدارة عندما سئل عما إذا كان الأسد قد تخطى «الخط الأحمر» الذي قد يدفع واشنطن إلى التدخل عسكريًا، قال: «لم نصل إلى هذا الحد بعد»(٢).

وقال الرئيس أوباما نفسه على هامش لقائه مع العاهل الأردني -إبريل ٢٠١٣م-: «هناك أسئلة عديدة حول كيفية استخدام هذه الأسلحة ومتى، وأين استُخدِمت». يعود ذلك بالأساس إلى أن الإدارة وجدت نفسها في مواجهة تجاوز «خط أحمر» رسمته دون أن تكون لديها القدرة أو الإرادة على فرض عقاب معين على التجاوز، بمعنى أن بعض الأطراف تفترض أن مجرد فرض الخط الأحمر سيكفي للردع دون حاجة للتفكير لاحقًا في بحث مسألة: ماذا لو وقع التجاوز؟

---

(١) فرانس ٢٤، ١٦/ ١/ ٢٠١٧م.

(٢) سلمان شيخ، هل الخط الأحمر الذي رسمه أوباما، هو ضوء أخضر؟، موقع معهد بروكينجز، ٢٩/ ٤/ ٢٠١٣م.

عندما يدرك الطرف المقابل ذلك، يصبح من السهل عليه التلاعب[١].

كانت دمشق «تختبر الخط الأحمر»، لدرجة أنها استخدمت السلاح الكيماوي خمس مرات علىٰ الأقل في الأشهر التالية لتحذير أوباما. بدأ الجيش في استخدامه بكميات محدودة تستهدف تجمعات صغيرة بحيث يكون عدد الضحايا قليلًا نسبيًّا، في المقابل بدا أن البيت الأبيض يمشي في السياق نفسه متناغمًا مع دمشق، حيث صرح المتحدث باسم مجلس الأمن القومي الأمريكي «تومي فيتور» تعليقًا علىٰ هجوم حمص الكيماوي في ديسمبر ٢٠١٢م، أن تقارير الهجوم «لا تتوافق مع ما نظن أنه صحيح عن برنامج الأسلحة الكيميائية السورية»، بل إنه رفض الإقرار بصحة معلومات دبلوماسية أمريكية واردة من تركيا تفيد بوجود دليل مقنع باستخدام هذه الأسلحة.

في السياق نفسه صرح الجنرال «مارتن ديمبسي»، رئيس إدارة هيئة الأركان الأمريكية المشتركة، في يناير ٢٠١٣م بأنَّ «الحؤول دون استخدام الأسلحة الكيميائية هو شبه مستحيل».

هذا الوضع المقلوب، يعبر عنه تحليل سياسي نُشِر علىٰ موقع معهد بروكينجز الأمريكي، عنوانه لافت للنظر، وهو: «هل الخط الأحمر الذي رسمه أوباما هو ضوء أخضر؟!»[٢].

في إطار التلاعب والاختبار، حاولت دمشق أن تدفع لإعادة صياغة الخط الأحمر بصورة غير مباشرة، فقد صرح وزير الإعلام السوري «عمران زغبي» للصحافة الروسية -إبريل ٢٠١٣م- أن بلاده لن تستخدم السلاح الكيماوي ضد

---

(١) السابق.

(٢) السابق.

مواطنيها أو ضد «إسرائيل»[١]، أي أنهم سيستخدمونه فقط ضد فصائل المعارضة التي تصنفها دمشق على أنها جماعات إرهابية.

تعرض أوباما لانتقادات كثيرة بسبب تصريحه عن الخط الأحمر في سوريا، إذ وصفته صحيفة نيويورك تايمز بأنه قرار ذو طبيعة ارتجالية، وقال باري بافيل، مستشار سياسة الدفاع السابق لأوباما: «لست مقتنعًا بأنه تم التفكير فيه». «أشعر بالقلق من الضرر الأوسع الذي يصيب مصداقية الولايات المتحدة إذا أصدرنا بيانًا، ثم عدنا بلغة محترفة للالتفاف عليه»[٢].

كما سخر منه السيناتور الجمهوري «جون ماكين»، فقال عندما تأخرت ردة فعل إدارة أوباما: «على ما يبدو أن هذه العبارة -الخط الأحمر- كُتِبت بحبر خفي»[٣].

المشكلة الرئيسة في أزمة «خط أوباما الأحمر» هو التفاعل البطيء مع الحدث والعجز عن مواكبة الطرف الآخر بسبب التوازنات المعقدة التي يصعب القفز عليها، يلخص الباحث الأمريكي المخضرم في معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى -أندرو. جيه. تابلر- هذه الوضعية بقوله: «المشكلة هنا أننا نتفاعل ببطء شديد». «كانت هناك العديد من الخطط المدروسة بعناية، ولكنها تتناول سياقًا معينًا. ثم يتغير السياق، ونرى أن الوضع يتدهور بسرعة، ولم تعد التوصيات مضبوطة بشكل دقيق»[٤].

---

(١) الجزيرة ٢٥/ ٤/ ٢٠١٣م.

(2) Peter Baker,Mark Landler,David E.Sanger, and Anne Barnard, nutimes.com, 4/5/2013.

(3) Ben Zimmer, The Long History of the Phrase 'Red Line', wsj.com, 19/7/2013.

(4) Peter Baker,Mark Landler,David E.Sanger, and Anne Barnard, nutimes.com, 4/5/2013.

هنا يمكن للطرف المقابل أن يحلل هذا التباطؤ في رد فعل خصمه، ويسعىٰ بقوة لتغيير السياق أو تعقيده، بحيث يصبح من الصعب إطلاق العقاب علىٰ تجاوز الخط الأحمر.

كان النظام السوري يتعمد تعقيد عملية جمع الأدلة، أو السماح بتحقيق أممي، كما كان يطلق الاتهامات بصورة متتابعة عن تورط المقاومة في تلك الهجمات... كما كان يستخدم تلك الأسلحة بجرعات منخفضة في بادئ الأمر لا تستنهض إرادة دولية لمواجهتها، وهو ما يطلق عليه البعض «القتل دون ضجيج».

ومن ثم عندما أصبحت الدول الغربية أمام الحقيقة الواضحة المتكررة، كان السياق قد تعقد وجرت مياه كثيرة في النهر.

هذا التفاعل البطيء لم يتحسن، بل ظل هو الملمح الأبرز لوصف التعامل الغربي مع استخدام الوحشي للسلاح الكيميائي في سوريا ضد المدنيين.

بحسب لجنة التحقيق بشأن سوريا التابعة للأمم المتحدة، فإن النظام السوري نفذ ٣٣ هجومًا كيميائيًا في الفترة منذ ٢٠١٣م إلىٰ سبتمبر ٢٠١٨م، رغم التحذيرات المتكررة من أمريكا وأوروبا(١). وتوجد تقديرات أخرىٰ تصل بعدد الهجمات إلىٰ ١٤٠ هجمة كيميائية(٢).

عندما نفذ النظام السوري الهجوم الكيميائي الأكثر دموية منذ مذبحة حلبجة -في العراق- تعرض العالم لصدمة كبيرة، فقد قُدِّر عدد القتلىٰ بأكثر من ١٥٠٠ قتيل أغلبهم من الأطفال، إضافة إلىٰ أكثر من ٥٠٠٠ مصاب، وبات البيت الأبيض علىٰ المحك، بالرغم من ذلك لم يتخذ أوباما أي رد فعل عسكري، وتجاهل

(١) سكاي نيوز العربية ١٢/ ٩/ ٢٠١٨م.
(٢) الجزيرة ٤/ ٤/ ٢٠١٧م.

تحذيره «الأحمر» واكتفىٰ بحل وسط قدمه إليه الرئيس الروسي -فلاديمير بوتين- يقضي بأن يقوم النظام السوري بتسليم كل أسلحته الكيميائية إلىٰ روسيا في غضون نهاية العام.

ظل الرئيس أوباما يدافع عن «خطه الوهمي»، مفتخرًا بأن ما حققه هو إنجاز! قائلًا في يناير ٢٠١٧م بينما يتجهز لمغادرة البيت الأبيض: «علىٰ الرغم مما انتهىٰ إليه الأمر في الإعلام، أعتقد أنه في عالم واشنطن السياسي، ما هو حقيقي هو أن الأسد تخلص من أسلحته الكيميائية»[١].

لم يتخلص الأسد -قطعًا- من كل أسلحته الكيميائية، فقد أثبت التحقيقات المستقلة أن الأسد لم يتوقف عن تنفيذ تلك الهجمات ولو لعام واحد، كما سبقت الإشارة، **وهذه أبرز الهجمات بعد تحذير أوباما:**

- ٢٣ ديسمبر ٢٠١٣م: هجوم علىٰ حمص.
- فبراير ٢٠١٤م: هجوم علىٰ عدد من المناطق منها «خان العسل».
- ٢٩ إبريل ٢٠١٤م: إدلب – ريف حماة.
- أكتوبر ٢٠١٤م: كفر زيتا.
- مارس ٢٠١٥م: ريف إدلب.
- إبريل ٢٠١٥م: إدلب.
- فبراير ٢٠١٦م: ريف دمشق.
- أغسطس٢٠١٦م: ريف إدلب- حلب.

(١) فرانس ٢٤/١٦/ ١/ ٢٠١٧م.

- إبريل ٢٠١٧م: خان شيخون، ريف إدلب.

- إبريل ٢٠١٨م: الغوطة الشرقية[(١)].

مع تتابع الهجمات استمرت الدول الغربية في التلويح بالخط الأحمر الدولي، واستمرت دمشق في تجاوزه، حتىٰ بعد الهجوم العسكري غير المسبوق الذي أمر به الرئيس «دونالد ترامب» في إبريل ٢٠١٧م بإطلاق صواريخ توماهوك علىٰ قاعدة الشعيرات الجوية.

لم يردع «هجوم الشعيرات» نظام الأسد لكونه غير مؤثر سواء من الناحية العسكرية، أو حتىٰ السياسية. لذلك استمرت دمشق في تنفيذ هجمات كيميائية بما أن الحسابات الأمريكية تتجنب إضعاف الأسد عسكريًّا، وتلك هي المشكلة الرئيسة.

في إبريل ٢٠١٨م صرح «بنجامين جريفو» المتحدث باسم الحكومة الفرنسية بعد التقارير عن هجوم كيميائي في الغوطة الشرقية، أن الرئيس الفرنسي -إيمانويل ماكرون-: «قال وأكد مرارًا وتكرارًا إنه إذا حدث تجاوز للخط الأحمر وثبت من الفاعل فإن ذلك سيقود إلىٰ رد»[(٢)].

في ١٣ إبريل بعد الهجوم بأيام قليلة، نفذت الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا سلسلة ضربات عسكرية موجهة لأهداف عسكرية سورية في محيط دمشق وحمص، شملت ٣ مراكز علمية وقواعد عسكرية ومقرات للحرس الجمهوري يشتبه في علاقتها بالأسلحة الكيميائية بناء علىٰ معلومات استخباراتية.

---

(١) الجزيرة ٤/ ٤/ ٢٠١٧م – محدث.

(٢) رويترز ١٠/ ٤/ ٢٠١٨م.

استغرق الهجوم ساعات قليلة، وقال المرصد السوري لحقوق الإنسان إن الحكومة السورية أخلت قبل أسبوع من الهجمات القواعد والمطارات العسكرية التي استهدفت في الهجوم[١]، وهذا يعني أن المخزون الذي كان يفترض وجوده في تلك المقرات لم يتعرض للتدمير.

بعد ذلك بأشهر قليلة اكتفت بريطانيا وفرنسا بتقديم مشروع إلىٰ مجلس الشؤون الخارجية التابع للاتحاد الأوروبي -لوكسمبورج- لتأسيس نظام جديد لفرض عقوبات علىٰ الجهات التي تستخدم الأسلحة الكيميائية، وقال وزير الخارجية البريطاني جيرمي هنت: «نحن الآن بحاجة إلىٰ إعادة رسم الخط الأحمر، بحيث يفهم أي شخص يستخدم هذه الأسلحة المروِّعة أن الثمن سيكون كبيرًا جدًّا. فالعقوبات الجديدة ضرورية، ولكنها ليست نهاية المطاف»[٢].

في مطلع يناير ٢٠١٩م أعلنت منظمة حظر الأسلحة الكيميائية -لاهاي- أنها أرسلت فريقًا لتقصي الحقائق إلىٰ سوريا -حلب- للتحقيق في إطلاق قذائف معبأة بغاز الكلور السام تسببت في اختناق العشرات، واتهم النظام فصائل المعارضة بأنها الجهة التي أطلقتها[٣]. وأعلنت الخارجية الأمريكية أنها مجرد قنابل للغازات مسيلة الدموع، وأن الذي خطط لإطلاقها موسكو ودمشق لتقويض الهدنة الهشة في إدلب[٤].

ومع تخوف أطراف عديدة من أن يؤدي الانسحاب الأمريكي من سوريا إلىٰ عودة النظام إلىٰ استخدام الأسلحة الكيميائية، خاصة في ظل سهولة قياس حجم ردود الأفعال الغربية -المقننة- اضطر مستشار الأمن القومي في البيت الأبيض

---

(١) فرانس ٢٤ ١٤/ ٤/ ٢٠١٨م.

(٢) صحيفة الشرق الأوسط ١٤/ ١٠/ ٢٠١٦م.

(٣) عرب ٤٨ ٢٥/ ١١/ ٢٠١٨م.

(٤) المصري اليوم ٨/ ١٢/ ٢٠١٨م.

-جون بولتون- إلىٰ إطلاق تطمينات، فقال: «أي استخدام من جانب النظام السوري لأسلحة كيميائية سيقابل برد قوي للغاية، كما فعلنا في مرتين سابقتين»(١).

السؤال هنا: هل كان الرد بالفعل قويًّا للغاية؟

إيران وفن التلاعب بالخطوط الحمراء:

بعض الدول تؤثر السلامة في مواجهة الخطوط الحمراء، فتتراجع مسافة آمنة إلىٰ الخلف وتقبع ساكنة.

تتبع إيران نهجًا مختلفًا ملتويًا، هو «الاختبار المستمر للخطوط الحمراء».

يتقدم الإيرانيون دومًا عند تخوم الخطوط الحمراء، مع تكرار محاولات تجاوزها بحثًا عن ثغرات أو نقاط ضعف في مواقف القوىٰ التي فرضت هذه الخطوط، أو ترقبا لانتهاء فترة الصلاحية ليتقدموا سريعًا دون تضييع الوقت أو الفرصة.

وفي أحيان كثيرة يؤدي ذلك النهج ليس بالضرورة إلىٰ إلغاء الخط الأحمر، وإنما لإعادة رسمه بشكل جديد يعطي مرونة أكبر أمام الإيرانيين.

لتوضيح هذه الإستراتيجية، سنذكر ٣ أمثلة في مواطن وأوقات مختلفة:

المثال الأول:

في أثناء الحرب الإيرانية العراقية، كانت إيران لا تحترم الحدود أو المجالات الجوية للدول المجاورة، فأعلنت السعودية عن خط افتراضي فوق المياه الإقليمية

---

(١) موقع أورو نيوز العربي ٥/ ١/ ٢٠١٩م.

السعودية في الخليج العربي، وأطلق عليه اسم «خط فهد»، وأعطىٰ الملك فهد أوامر واضحة بإسقاط أي طائرة معادية تتجاوز هذا الخط.

انطلاقًا من الإستراتيجية الإيرانية المعروفة- اختبار الخطوط الحمراء- قامت طائرة فانتوم إيرانية باختراق هذا الخط، فتصدت لها طائرة إف ١٥ سعودية وقامت بإسقاطها، نتج عن ذلك تحفز بين الطرفين، وإرسال أفواج جوية جديدة إلىٰ المنطقة، وعندما أوشكت الأزمة علىٰ التفجر، انسحبت الطائرات الإيرانية، وكانت الحصيلة إسقاط ٣ طائرات إيرانية، وأدركت أن إيران أن الخط الأحمر لا يمكن تجاوزه(١).

المثال الثاني:

في مايو ٢٠١٨م زعمت سلطات الاحتلال الإسرائيلي أن ٢٠ مقذوفًا أطلقت من الأراضي السورية علىٰ هضبة الجولان المحتلة، واتهمت عسكريين إيرانيين بالوقوف وراءها.

ردًا علىٰ ذلك، شنت قوات الاحتلال الإسرائيلية سلسلة من الغارات علىٰ عشرات المواقع التابعة للنظام السوري وفيلق القدس علىٰ الأراضي السورية، وقال رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو إن إيران «تجاوزت الخط الأحمر وأن الرد كان مناسبًا»، وقال مؤكدًا الجدية ومعيدًا رسم الخط الأحمر المتعلق بالوجود الإيراني: «من يضربنا نضربه سبعة أضعاف، ومن يستعد لضربنا سنعمل لضربه بشكل استباقي، هكذا عملنا وهكذا سنواصل العمل»(٢).

---

(١) ويكيبيديا، عنوان: الصراع السعودي الإيراني.. خط فهد.

(٢) سي إن إن، سويس إنفو ١٠/ ٥/ ٢٠١٨م.

في المقابل أبدت طهران تراجعًا واضحًا، وقال الرئيس حسن روحاني: «إن إيران لا تريد توترات جديدة في المنطقة.. لقد عملت إيران علىٰ الدوام علىٰ خفض التوترات»[1].

لكن الغارات الإسرائيلية تتابعت في الأشهر التالية، سواء كانت ردًّا علىٰ تجاوز إيراني أو في محاولة «استباقية» لإثبات قوة الردع، وذلك علىٰ الرغم من وجود تفاهمات تبعد أي وجود إيراني لمسافة ٩٠ كم من الجولان.

المؤشر الأبرز علىٰ إستراتيجية إيران هو الاعتراف الإسرائيلي النادر بحجم العمليات التي تستهدف الوجود الإيراني في سوريا، التي بلغت ٢٠٠ غارة في ١٨ شهرًا فقط، استخدم فيها ٨٠٠ صاروخ وقنبلة استهدفت مواقع تابعة للحرس الثوري الإيراني ومستودعات أسلحة وشحنات صواريخ متطورة.

وقال وزير الاستخبارات -إسرائيل كاتز- إن مثل هذه العمليات تتم بمعدل مرتين في الأسبوع»، ذلك يعني أن إيران لا تتوقف عن تجاوز الخط، وإسرائيل لا تتوقف عن حمايته. وفي المحصلة يحدث ذلك علىٰ الأراضي السورية التي يدفع شعبها ثمن تلاعب القوىٰ الإقليمية بمقدراتها[2].

في مقابل حالة «الاختبار» الإيرانية المستمرة، فإن الكيان الصهيوني يتبع نهجًا استفزازيًّا مماثلًا، يتمثل في التعنت في فرض المزيد من الخطوط الحمراء لإيجاد مسوغات مستمرة للتدخل، من ذلك أن الكيان عدَّ توقيع اتفاقية تعاون عسكرية بين دمشق وطهران، هي بمنزلة تجاوز للخط الأحمر.

---

(١) صحيفة البيان ٢٠١٨/٥/١١م.
(٢) النهار اللبنانية ٢٠١٨/١١/٣٠م، الخليج ٢٠١٨/٩/٥م.

وقال وزير الاستخبارات -إسرائيل كاتز- في مقابلة مع التلفزيون الإسرائيلي إن بشار الأسد، بتوقيعه اتفاقية للتعاون العسكري بين سوريا وإيران، عبر «الخط الأحمر» الذي وضعته إسرائيل[1].

المثال الثالث:

في سياق الأزمة التي لحقت بالاتفاق النووي الإيراني، بعد انسحاب أمريكا منه وعودة العقوبات الأمريكية علىٰ طهران، تصاعدت اللهجة الإيرانية في اتجاه الخط الأحمر، ألا وهو تعزيز عملية تخصيب اليورانيوم والتلويح بالانسحاب من الاتفاقية، فأرسل الرئيس الإيراني «حسن روحاني» إلىٰ الوكالة الدولية للطاقة الذرية يبلغها بأن إيران ستعزز قدرتها علىٰ تخصيب اليورانيوم، وذلك علىٰ سبيل الضغط علىٰ الدول الأوروبية لدفعها للتخفيف من الضغوط الأمريكية.

لكن هذا التهديد عدَّه وزير الخارجية الفرنسي «جان إيف لوران» تلاعبًا بالخط الأحمر، وقال صراحة إنه دائمًا ما يكون «التلاعب بالخط الأحمر خطيرًا»[2].

المحور الثالث: الخطوط الحمراء بين العلانية والخفاء:

لا يمكن الزعم بأن كل الخطوط الحمراء التي تحكم العلاقات الدولية أو تؤثر فيها، هي خطوط معلنة ومعروفة سابقًا أو متفق عليها.

فبعضها معروف معلن، وبعضها مختلف عليه، وبعضها غير موثق لكنه شبه مؤكد، وبعضها سري لا يعلمه أحد.

---

(١) روسيا اليوم ٣/ ٩/ ٢٠١٨م.

(٢) سي إن إن ٦/ ٦/ ٢٠١٨م.

هذه الحدود أو الخطوط، قد تكون راسخة قديمة معروفة، وقد تكون مستحدثة فرضتها دولة ما في مواجهة دولة أو دول أخرىٰ.

في أحيان كثيرة، يتسبب بعض القادة أو الزعماء بأزمات وحروب يقعون فيها بسبب الرعونة وعدم إدراك هذه الخطوط أو خطورتها، وتغافلهم عن أن تجاوز هذه الخطوط يتطلب حنكة وخبرة وقدرة عالية علىٰ توظيف عامل الزمن والتدرج في تحقيق الأهداف.

من أمثلة ذلك، نموذج «صدام حسين» الذي تغافل تمامًا عن كون الاعتداء علىٰ الكويت بمنزلة تجاوز لخطوط حمراء كثيرة، وأقنع نفسه بأنه يمكن لعلاقاته مع أمريكا أن تتجاوز هذا الأمر، وجعل نفسه مطية للخداع والتوظيف.

وذلك علىٰ الرغم من تجارب التاريخ الماثلة التي تبين بوضوح عاقبة الاعتداء علىٰ الكويت، فهذه المطالبة العراقية الجائرة، سبق بها الملك «غازي» (١٩١٢م- ١٩٣٩م) ولم ينجح، ثم جاء «عبد الكريم قاسم» (١٩١٤م- ١٩٦٣م) ليكرر الطلب مع التهديد بالغزو، وحاول أن يفرض علىٰ الكويت اتفاقًا عجيبًا يتضمن إقامة اتحاد فيدرالي عراقي -كويتي، يكون له جيش واحد علىٰ أن تترك الكويت للعراق تصريف شؤونها الخارجية والإشراف علىٰ بعض شؤونها المالية.

لكن الاتفاق لم يمرر بالطبع لأنه تجاوز مصالح غربية وخطوط حمراء واضحة، لينتهي أمر «قاسم» بالإعدام بعد الانقلاب عليه[(١)].

---

(١) جيف سيمونز، عراق المستقبل.. السياسة الأمريكية في إعادة تشكيل الشرق الأوسط، دار الساقي، بيروت، ٢٠٠٤م، ص٢٩٨.
د. علي الشمراني، صراع الأضداد، المعارضة العراقية بعد حرب الخليج، دار الحكمة، ٢٠٠٣م، ص٧٩.

من الأمثلة الواضحة أيضًا: نموذج «محمد علي» (١٧٦٩م- ١٨٤٩م) والي مصر الذي تجاوز الخط الأحمر الذي لا يمكن لدولة عربية أن تتجاوزه، من حيث القوة العسكرية والتمدد الجغرافي.

اللافت هنا أن هذا الخط الأحمر لم يكن معلنًا، لكنه مفهوم، وكان يجدر بـ«محمد علي» أن يكون مدركًا لأبعاد الموقفين الإقليمي والدولي، قبل أن يبادر بالتوسع والتمدد خارج نطاقه الجغرافي، فهناك خطوط حمراء تفرضها الدول الكبرىٰ علىٰ دول الأطراف، تتعلق بالإمكانات الداخلية والتنمية والتطوير العسكري والاقتصادي، والنفوذ الخارجي، إلخ.

كانت قوة «محمد علي» المتنامية تشكل هاجسًا أوروبيًّا، ما حدا برئيس الوزراء البريطاني -اللورد بالمرستون (١٧٨٤م- ١٨٦٥م)(١)- للاشتراك مع «اللورد ولينجتون»(٢) -قائد الجيوش البريطانية صاحب الانتصار علىٰ نابليون في معركة واترلو عام ١٨١٥م- إلىٰ وضع خطة معقدة لحصار «محمد علي» وإرجاعه إلىٰ خلف الخطوط الحمراء، عسكريًّا وجغرافيًّا.

كانت الخطة تتضمن ٣ مراحل: إخراج محمد علي من سوريا، واحتواؤه في مصر، وإنشاء عازل بين مصر وسوريا يتمثل في دولة يهودية.

أحد بنود الخطة كان يقتضي حصر «محمد علي» داخل الحدود المصرية وراء صحراء سيناء، وتحويل هذه الصحراء إلىٰ نوع من «سدادة الفلين» تقفل عنق الزجاجة المصرية التي تتمثل في وادي النيل، وهذا التشبيه استخدمه الملياردير اليهودي المعروف «روتشيلد» في خطاب إلىٰ «بالمرستون» عام ١٨٣٩م.

---

(١) هو هنري جون تيمبل، الملقب بفيسكونت بالمرستون الثالث.

(٢) آرثر ويزلي، الملقب بـلورد ولنجتون (١٧٦٩م- ١٨٥٢م).

من المفيد هنا أن نتأمل إحدىٰ رسائل «اللورد ولنجتون» إلىٰ «بالمرستون» حول مشكلة «محمد علي» لكونها توضح ماهية الخطوط الحمراء التي تجاوزها الأخير:

كتب «لونجتون» في إحدىٰ رسائله: «في هذا العام نشبت أزمة خطيرة بين مصر وتركيا نتيجة لتناقضات وصراعات سببها والي مصر، فقد استطاع محمد علي في عشر سنوات أن ينشئ أسطولًا وجيشًا يفوقان كل ما يحتاج إليه للضرورات الشرعية لحكومته، واستطاع بتصرفات متسمة بالطغيان والاضطهاد ضد شعبه أن ينشئ جيشًا في حجم ليس له ما يبرره، فقد جند مائة ألف رجل وحشدهم ضد سيده الخليفة العثماني، ورمىٰ جانبًا قناع الولاء الذي يتظاهر به، وأعلن أمام قناصل الدول في مصر أنه يريد إعلان استقلال مصر، كما أنه يطالب بضم سوريا. ونجح محمد علي فعلًا في أن يشن حربًا ناجحة ضد الخلافة، وتقدم بجيوشه حتىٰ «نصيبين» علىٰ الحدود التركية السورية، ولم تقتصر قوة «محمد علي» علىٰ جيشه البري، وإنما تمكن أسطوله أيضًا من هزيمة الأسطول التركي. وخاف قائد الأسطول التركي بعد هزيمته أن يعود إلىٰ إستانبول ويلقىٰ عقابه، وهكذا قرر بعمل من أعمال الخيانة أن ينضم بجيشه إلىٰ دكتاتور مصر المنتصر، وأخذ أسطوله إلىٰ الإسكندرية ووضع سفنه -وعليها عشرون ألف بحار- تحت تصرف «محمد علي». إن هذه الأوضاع تتطلب تصرفًا سريعًا من الحكومة الإنجليزية، كما تتطلب تدخلًا عاجلًا يتكفل بإعادة «الباشا» الذي يتصور نفسه لا يقهر إلىٰ عقله وإلىٰ الخضوع والطاعة للسلطان»(١).

---

(١) المفاوضات السرية ج١ ص٤٢-٤٣.

هذه الخطوط الحمراء التي تجاوزها «محمد علي» من منظور «بريطانيا الاستعمارية» تطلبت أن تكون المواجهة علىٰ عدة محاور[1]:

أولًا: شكلت بريطانيا تحالفًا مصلحيًّا يجمعهم مع روسيا والنمسا وبروسيا لمواجهة التمدد العسكري لـ«محمد علي».

ثانيًا: نشط الإنجليز طابورهم الخامس في سوريا لكي يثير الفتن بين الطوائف والأقليات في الشام.

ثالثًا: فرض التحالف حصارًا بحريًّا علىٰ موانئ مصر والشام.

رابعًا: تعرض الأسطولان العثماني والمصري إلىٰ التدمير شبه التام في معركة نافارين في اليونان -١٨٢٧م- علىٰ يد أسطول التحالف، ونتج عن ذلك انفصال اليونان عن الدولة العثمانية.

خامسًا: ضرب مواقع وطرق مواصلات القوات المصرية في الشام لدفعها إلىٰ الانسحاب جنوبًا.

هذان النموذجان -صدام حسن ومحمد علي- يوضحان كيف أن غفلة بعض الدول عن قواعد اللعبة وتعقيدات الصراع والخطوط الحمراء غير المعلنة، يحولهم إلىٰ أداة تُوظَّف من أعدائها لتحقيق أهداف في أنساق صراعية أخرىٰ، ثم يتخلصون منها لاحقًا، أو من قوتها العسكرية والاقتصادية والسياسية.

في حالات صراع مختلفة، تتوافر لدىٰ بعض الأطراف دوافع ومصالح لإعلان الخطوط الحمراء بوضوح، بل مع التهديد والوعيد، فتعلن هذه الخطوط بدرجة كبيرة من الدقة.

---

(١) السابق.

عندما قررت الدول الثلاث -أمريكا وبريطانيا وفرنسا- توجيه ضربة عسكرية لمواقع تابعة للنظام السوري ردًّا علىٰ استخدامه السلاح الكيماوي في إبريل ٢٠١٨م، جرت اتصالات مكثفة قبل الغارات من أجل التنسيق مع القوات الروسية الموجودة علىٰ الأراضي السورية.

وصرح وزير الخارجية الروسي «سيرجي لافروف» بعد تنفيذ الضربات، أن بلاده «حذرت واشنطن من أن استهداف بعض المناطق في سوريا سيكون تجاوزًا للخطوط الحمراء»، وقال: «جرت بيننا اتصالات علىٰ مستوىٰ وزارة الدفاع وعلىٰ مستوىٰ الجنرالات وبين ممثلينا وقيادة التحالف الدولي. وأبلغناهم بمواقع نشر خطوطنا الحمراء.. وفي أي حالة من الأحوال تشير النتائج إلىٰ أنه لم يجرِ تجاوز هذه الخطوط الحمراء»(١).

في حالات أخرىٰ، يكون الهدف من الإعلان عن الخط الأحمر، هو فتح المجال مستقبلًا أمام التدخل.

مثال ذلك، ما أعلنه الجيش الإيراني في يوليو ٢٠١٥م أن هناك خطًّا أحمر محظورًا علىٰ ميلشيات داعش يمتد داخل الأراضي العراقية إلىٰ ٤٠ كم، وإن حدث سيكون ذلك مسوغًا للتدخل العسكري المباشر من إيران.

فقال العميد «أحمد رضا بوردستان» -قائد القوات البرية الإيرانية-: «إن القوات البرية للجيش علىٰ أهبة الاستعداد لتدمير زمرة داعش حينما تحاول التسلل إلىٰ إيران عبر الحدود الغربية للعراق، وتصل بالقرب من الحدود الإيرانية»، وقال: «إن خط إيران الأحمر مع المجاميع الإرهابية يمتد علىٰ مسافة ٤٠ كيلومترًا داخل الأراضي العراقية»(٢).

---

(١) روسيا اليوم ٢٠/ ٤/ ٢٠١٨م.

(٢) العرب ٧/ ١/ ٢٠١٥م.

المحور الرابع: الخطوط الحمراء ونقاط الضعف:

قد يكون منبع الخطوط الحمراء ذاتيًا، بسبب عجز أو ضعف لدىٰ الدولة، يجعلها تضع خطًّا أحمر لنفسها لا يمكنها تجاوزه، فهو لم يفرض عليها من الخارج، وإنما أوجدته الظروف الداخلية. فعندما يدرك أحد أطراف الصراع ماهية الخطوط الحمراء عسكريًا أو اقتصاديًا أو سياسيًا أو اجتماعيًا، إلخ، التي تقيد الطرف المنافس له، فإنه يعمد إلىٰ استغلالها ووضعها في الحسبان.

مثال ذلك: ما سبق ذكره من تكرار استخدام النظام السوري الأسلحة الكيماوية رغم تحذيرات أوباما، بسبب إدراك النظام أن هناك خطوطًا حمراء تحكم البيت الأبيض في إطلاق رد فعل عسكري واسع النطاق علىٰ استخدام تلك الأسلحة، فالخط الأحمر لأوباما كان مقيدًا بخطوط حمراء أخرىٰ داخلية أفقدته فاعليته.

مثال آخر: عجز إسرائيل عن خوض حرب طويلة الأمد.

أطلق الكيان الصهيوني حملة عسكرية لغزو لبنان في يونيو ١٩٨٢م، كان مقررًا أن تستغرق أيامًا معدودة لكنها امتدت لعدة أشهر، علىٰ عكس الحروب السابقة التي خاضها جيش الاحتلال، فبدأ الرأي العام اليهودي يتذمر بسبب عدم التعود علىٰ الحرب الطويلة.

وتسرب التذمر والتأفف من طول الحرب إلىٰ الجيش نفسه ضباط وجنود، فهو في معظمه جيش مجندين لا محترفين، وقد أدىٰ ذلك إلىٰ نشوب أزمة سياسية كبيرة في الداخل الصهيوني وضعت حكومة رئيس الوزراء في ذلك الوقت -مناجم بيجين- ووزير دفاعه -آرئيل شارون- في حرج بالغ[1].

---

(١) جوزيف أبو خليل، قصة الموارنة في الحرب، سيرة ذاتية، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٩٠م، ص٢٠٠.

المراجع

١. د. أنور محمد فرج، النموذج المعرفي الواقعي لدراسة العلاقات الدولية، المركز العلمي للدراسات السياسية، الأردن.

٢. أنيس منصور، معنىٰ الكلام، مكتبة الأسرة، القاهرة.

٣. آنتوني آرنوف، العراق منطق الانسحاب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

٤. إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، دار الآداب، بيروت، ٢٠١٤.

٥. إريك لوران، حرب آل بوش، أسرار النزاع التي لا يمكن الاعتراف بها، دار الخيال، بيروت.

٦. إسحق نقاش، شيعة العراق، دار المدىٰ، بيروت.

٧. أحمد منصور، قصة سقوط بغداد، الحقيقة بالوثائق، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت.

٨. د. إسماعيل صبري مقلد، العلاقات السياسية الدولية، دراسة في الأصول والنظريات، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ١٩٩١م.

٩. بشير الشريف أحمد، البعد الديني في العلاقات الدولية، رسالة ماجستير، جامعة الخرطوم ٢٠١٠.

١٠. بول بريمر، عام قضيته في العراق، النضال لبناء غد مرجو، دار الكتاب العربي، بيروت.

١١. بيار كونيسا، صنع العدو، أو كيف تقتل بضمير مرتاح؟ المركز العربي، ٢٠١٥م.

١٢. توماس زايفيرت، كلاوس فيرنر، السجل الأسود للنفط، المكتبة الشرقية، بيروت.

١٣. توفيق السيف، حدود الديمقراطية الدينية، دار الساقي، بيروت.

١٤. تريتا بارزي، حلف المصالح المشتركة، التعاملات السرية بين إسرائيل وإيران والولايات المتحدة، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ٢٠٠٨م.

١٥. ج. ج. لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج١.

١٦. جوزيف أبو خليل، قصة الموارنة في الحرب، سيرة ذاتية، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٩٠م.

١٧. جوش ماكدويل، بارت لارسون، حقيقة لاهوت المسيح، منصة كنوز.

١٨. جولدا مائير، اعترافات جولدا مائير، مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٧٩م.

١٩. جون نيكولز، ديك تشيني رئيس أمريكا الفعلي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

٢٠. جيف سيمونز، عراق المستقبل.. السياسة الأمريكية في إعادة تشكيل الشرق الأوسط، دار الساقي، بيروت.

٢١. د. سامي إبراهيم الخزندار، إدارة الصراعات وفض المنازعات، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ٢٠١٤م.

٢٢. صمويل هنتنجتون، صدام الحضارات، إعادة صنع النظام العالمي.
٢٣. عبد الرحمن الباكر، من البحرين إلىٰ المنفىٰ، دار الكنوز الأدبية.
٢٤. د. عبد القادر دندن، الأدوار الإقليمية للقوىٰ الصاعدة في العلاقات الدولية، مركز الكتاب الأكاديمي، عمان، ٢٠١٥م.
٢٥. عبد الله محمد الغريب، وجاء دور المجوس، مكتبة الرضوان، القاهرة.
٢٦. د. علي محمد، الدولة العثمانية، عوامل النهوض وأسباب السقوط، دار الفجر للتراث، القاهرة.
٢٧. د. علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، مكتبة الصدر.
٢٨. د طلال محمود ضاحي، د سرحان العتيبي، مقدمة في التحليل السياسي القياسي، جامعة الملك سعود، الرياض، ٢٠٠٤م.
٢٩. د. فؤاد إسحاق خوري، القبيلة والدولة في البحرين، معهد الإنماء العربي، بيروت، ١٩٨٢م.
٣٠. فؤاد النمري، من هو ستالين، وما هي الستالينية؟ نسخة إليكترونية، بدون دار نشر، الأردن.
٣١. د لويد جنسن، تفسير السياسة الخارجية، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٤٠٩هـ.
٣٢. مادلين أولبرايت، الجبروت والجبار، تأملات في السلطة والدين والشؤون الدولية، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ٢٠٠٧.

٣٣. مايلز كوبلاند، لعبة الأمم، مكتبة الزيتونة، بيروت، ١٩٧٠.

٣٤. مجموعة مؤلفين إسرائيليين، الدور الإسرائيلي في الحرب على العراق، مركز الدراسات الفلسطينية، دمشق.

٣٥. د. محمد السيد سليم، تحليل السياسة الخارجية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٩٨م.

٣٦. محمد حسنين هيكل، المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل، الأسطورة والإمبراطورية والدولة اليهودية، ج١، دار الشروق القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩٦م.

٣٧. محمد حسنين هيكل، المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل، سلام الأوهام، أوسلو ما قبلها وما بعدها، ج٣، دار الشروق، القاهرة، الطبعة السابعة، نوفمبر ٢٠٠١م.

٣٨. د. مصطفى اللباد، حدائق الأحزان، إيران وولاية الفقيه، دار الشروق، القاهرة.

٣٩. ناظم عبد الواحد الجاسور، موسوعة علم السياسة، دار مجدلاوي، عمان ٢٠٠٩م.

٤٠. نجدة فتحي صفوة، الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، دار الساقي، بيروت ١٩٩٦م، ج٢.

٤١. نجدة فتحي صفوة، من نافذة السفارة، العرب في ضوء الوثائق البريطانية، رياض الريس، لندن.

٤٢. د. نغم محمد علي جواد، تأثيرات الديانة الكاثوليكية والبروتستانتية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر في العالم العربي، رسالة دكتوراه، جامعة سانت كليمنتس، بغداد ٢٠١٣م، نسخة إلكترونية دون ترقيم.

٤٣. يونج شانج، جون هاليدي، ماوتسي تونج، القصة المجهولة، دار النهار، بيروت، ٢٠٠٧م.